

الأرض العذراء
إيفان تورجنيف
رواية
ترجمة:
عباس حافظ
آفاق للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS
مكتبة
Telegram
Network
2020

)الأرض العذراء(
ل «إيفان تورغينيف»

الأرض العذراء

إيفان تورجنيف

روايـة

ترجمة عباس حافظ

الأرض العذراء

إيفان تورجنيف

رواية

ترجمة عباس حافظ

آفاق للنشر والتوزيع رقم الإيداع:

15907 / 2018 الترقيم الدولي: 4 - 171 - 977-765 - ISBN 978

Afaq Bookshop & Publishing House 1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787 E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com 1

شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية ت: 25778743 00202 - 25779803 00202 - موبايل: 01111602787

لكي تُقلِّب الأرض العذراء، ينبغي لك أن تستخدم محراثًا ينفذ في أعماق الأرض لا محراثًا صغيرًا يمر بأديمها مَرًّا...

المؤلف

كلمة تمهيدية

إن مؤلف هذه الرواية، إيفان تورجنيف، من أكبر كُتَّاب روسيا الذين استطاعوا أن يشرحوا للعالم كله، ذلك الطِّلَسْم الرهيب، روسيا الحديثة، بل هو من وجهة الفن وبراعة التصوير، وريشة الكاتب الرسام الصنع، أكبرهم جميعًا، وأعظم من معاصره «تولستوي» ومن الروائي الذي على غراره «دوستويفسكي» وبقية الكُتَّاب الروس المخلدين، وهو في نثره يتدفق في لغة أنضر من الشعر وأرق، وفي موسيقى أحلى وأفتن من سحرية النغم وأدق، ولطالما تألم في شبابه، من الروح الخيالية التي كانت تتغلب على أدب قومه –من ذلك المرض الذي كانت الكُتَّاب تعانيه، فمضى على سنَنِه في أسلوب جديد؛ هو أسلوب «الرياليزم» أو وصف الحقائق على حقيقتها، ثم خلع على ذلك الأسلوب من وحيه وبلاغة قلمه، ما جعل حقيقته أروع من الخيال.

وهذه الرواية التي نقدمها إلى القراء من أكبر رواياته، وهي إنجيله الذي فتح به أعين الشباب في بلاده إلى ذلك العسف الذي كانت روسيا تصيبه على يد تلك القيصرية الغاشمة، قبل أن تنشب تلك الحرب الكبرى، بل هي وأخوات لها من كبريات القصص، البذور الأولى التي نثرها تورجنيف في تلك الأرض، فأنبتت هذه الحركة الرهيبة التي تريد أن تعم الأرض كلها فلا يقف في سبيلها شيء وهي هذه البلشفية التي يخشاها الكثيرون، ويحبها الكثيرون، والناس فيها هاتف وساخط.

فلهذا المؤلف فضل الوطنيّ الحار الملتهب، الذي استصرخ قومه، وأهاب بأمته، لكي تخرج من الوهدة التي كانت فيها، وتتحرر من ذلك الاستبداد الطاغي البطاش الذي كانت تتململ منه، وفي سبيل وطنيته، لقي من وطنه العذاب، وتشرد في الأفق، ومات منفيًّا، وكان منفاه باريس، كصاحبه «هايني» الشاعر الألمانيّ الذائع الذكر، ولعن الله المنفى، وإن كان في بلد كتلك من جنات الدنيا!

وسيرى القرَّاء من بطل هذه الرواية «نجدانوف» صورة من صور ذلك الشباب الذي تسلط عليه مذهب القضاء والقدر، وتلك الطبيعة الشاعرية التي تريد الظهور بعمل مجيد، وخطب عظيم، فلا تستطيع لذلك سبيلًا، فأحالا قوته جمودًا، ورَدَّا نشاطه ونبوغه خيبة وفشلًا، وهي صورة من صور طائفة كبيرة من الشبان تتجلى غالبًا في بدء النهضات الوطنية، حيث يغشى النهضة جمهرة الحالمين الذين يتطلبون أمانيّ ذهبية، ثم لا يستطيعون لها تحقيقًا.

على أن أمتن صورة في هذه الرواية، بل النبوءة التي تنبأها تورجنيف عن مكان المرأة في الوطنية وفي العمل لتحرير بلادها، هي تلك التي رسم بها الفتاة «ماريانا»، حتى لقد بلغ بكثيرين من الكُتَّاب الكبار الذين كتبوا عن تورجنيف ورواياته، الإعجاب وشدة التأثر، أنْ حكموا بأن نجدانوف ليس بطل الرواية ولا «سولومين»، بل البطل الأول فيها تلك العذراء ماريانا، التي ضحت بكل شيء في سبيل «القضية العامة».

وفي الرواية أمثلة بليغة، وصور حية، وعِبَر مُبكية، تكاد تنطبق على صور كثيرة من أخلاق عصرنا هذا وآدابه، وهي من هذه الوجهة خير ما يبصرنا بعيوبنا ومناقصنا، ويفتح أعيننا لما يجدي على حركتنا الوطنية، ويهدينا إلى طرائق التهذيب، وسنن الإصلاح.

وقد مشى المؤلف في هذه الرواية على هوى نفسه، متمكنًا من موضوعه، قديرًا على إحكام فنه، مجوّدًا رسم صوره الحية الحقيقية، مضحكًا القراء في مواطن الضحك، مرسلًا دموعهم، مثيرًا أشجانهم، أمام آلام تلك الإنسانية المسكينة المظلومة التي تئن من الظلم، ولا تجد لها مخلصًا ومفرًّا.

وأكبر ظننا إنها ستصيب من القراء إعجابًا شديدًا، وتقع لديهم موقع القبول.

عباس حافظ

-1-

في الساعة الواحدة بعد ظهر يوم من أيام الربيع كان فتى في السابعة والعشرين من عمره، أشعث أغبر في ثوب خَلِق وبزة مهمَلة، يصعد مدارج سلم خلفيّ في بيت ذي طباق خمسة في شارع الضباط بمدينة سان بطرسبرج، ولم يلبث أن بلغ الطابق الأعلى وقد وقف يضرب الأرض بحذائه لينظفها، ويهز بدنه الثقيل ليبعث النشاط إلى نفسه، وكان باب الطابق مفتوحًا قليلًا، فلم يدق الجرس بل تنهد تنهيدةً عاليةً، ومشى في ردهة صغيرة مظلمة رأسًا غير متمهل.

وصاح بصوت مرتفع أجش عميق: «هل نجدانوف هنا؟».

فأجابه صوت امرأة في مثل خشونة صوته وعمقه من الحجرة المجاورة: «كلا. ليس هنا. بل ها أنا هنا. ادخل!».

قال الزائر الجديد: «هل هذه ماشورينا؟».

فأجابت المرأة: «نعم. أنا. وأنت. هل أنت أوستراديموف؟».

فقال الرجل: «نعم بامين أوستراديموف».

ومضى يخلع نعليه ويعلق سترته في مسمار في الحائط، وإذ أتم ذلك، مشى إلى الحجرة التي صدر منها ذلك الصوت.

وكانت الحجرة ضيقة قذرة، ذات جدران خضراء الطلاء، لا يكاد ينفذ إليها الضياء من نافذتين قد علاهما الغبار، ولم يكن في الحجرة من الأثاث غير سرير حديديّ مُلقى في زاوية، ومائدة في الوسط، وعدة كراسٍ، ودولاب مفعم بالكتب.

وإلى تلك المائدة جلست امرأة تناهز الثلاثين، حاسرة الرأس، في ثوب أسود، رخيص الثمن، تدخن سيجارةً.

فلما لمحت أوستراديموف، مدت يدها العريضة الحمراء إليه في صمت.

وهز الفتى تلك اليد في يده ولم يقل شيئًا، ثم سقط في مقعد، وأخرج من أحد جيوبه «سيجارًا» طويلة مكسورة من وسطها.

فأشعلت ماشورينا له عودًا من الثقاب دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

وجعل كل منهما يرسل ذوائب زرقاء مستطيلة متلوية في فضاء تلك الحجرة الضيقة، دون أن ينظر أحدهما صوب جليسه.

وكان هناك شيء من الشبه بين هذين الشخصين، وإن كانت تقاطيعهما لا شبه بينها.

نعم، في ذينك الوجهين الأشعثين، وتلك الشفاه الغليظة، وتلك الأسنان وذينك الأنفين، كان هناك شيء من أدلة الإخلاص والثبات والدأب والنضال.

وقال أوستراديموف أخيرًا: «هل رأيت نجدانوف؟».

فأجابت المرأة: «نعم. ولن يلبث أن يعود. لقد ذهب إلى المكتبة يحمل إليها بعض الكتب».

فبصق أوستراديموف في ناحية، ثم قال: «إني لأعجب له اليوم؛ إذ أراه لا يستقر على قرار من القلق، حتى لا يستطيع الإنسان أن يقبض عليه».

فأخرجت ماشورينا سيجارة أخرى، وأشعلتها بتؤدة، وقالت: «لقد أضناه الملل».

فقال أوستراديموف بلهجة المعاتب المؤنب: «أضناه الملل! وهذا الإغراق في الراحة وإشباع شهوة النفس، حتى ليخيل إلى الإنسان أننا متبطلون لا عمل لنا، والله وحده يعلم كيف سننفذ في العمل الذي تولينا تحقيقه، ونبلغ نهايته، ثم هو يشكو بعد كل هذا ألم الملل؟».

ثم ساد سكون.

وراحت ماشورينا تسأل الفتى بعد لحظات: «أتلقيت أنباء من موسكو؟».

قال: «نعم. رسالة وصلت منذ أيام ثلاثة».

قالت: «وهل قرأتها؟».

فأومأ أوستراديموف برأسه إيماءة الإيجاب.

قالت: «وماذا حملت الرسالة من الأنباء؟».

فأجاب: «لا بد من أن يذهب بعضنا في الحال إلى تلك الجهة؟».

فنزعت ماشورينا السيجارة من فمها، وقالت: «ولماذا الذهاب إنهم يقولون إن الأمر سائر سيرًا حسنًا هناك».

قال: «نعم. هو ذلك، ولكنَّ رجلًا منهم بدا متهمًا في مقدرته لا يعتمد عليه، ولا يوثق به. وينبغي التخلص منه، ثم هناك أشياء أخرى. وهم يريدونك أن تذهبي أنت أيضًا إليهم».

قالت: «وهل قالوا ذلك في الرسالة؟».

فأجاب: «نعم».

فهزت ماشورينا شعرها الغزير، وكان معقوصًا من الخلف عقصة واحدة، فانفرط وتدلى فوق عارضها في فروع مرسلة.

ثم قالت: «إذا كان الأمر كذلك، فلا نستطيع أن نقول شيئًا؛ إذ لا بد من الذهاب».

فأجاب أوستراديموف: «بلا ريب، ولكن لا غنى لنا عن المال، ومن أين لنا به؟».

فبدت على وجه ماشورينا دلائل التفكير، ثم قالت بهدوء كأنما تخاطب نفسها: «يجب على نجدانوف أن يظفر لنا بالنقود».

فقال أوستراديموف: «وهذا هو الذي جئت من أجله».

فقالت ماشورينا فجأة: «هل الرسالة معك الآن؟».

قال: «نعم. فهل تودين أن تطلعي عليها».

قالت: «أود ذلك. ولكن لا بأس.. فسنقرأها جميعًا عما قليل».

فقال أوستراديموف في لهجة المتململ المتألم:

- «لا يكن لديك ريب فيما أقول. فإنني قلت حقًّا».

فأجابت الأخرى: «لا ريب لديّ ألبتة».

وسكتا عن الكلام.

وعادت ذوائب الدخان تتصاعد من فمهما متعرجة مستديرة فوق رأسيهما الغريزي الشعر.

وفي تلك اللحظة سمعا وقع أقدام في الردهة.

فهمست ماشورينا تقول: «ها هو!».

وفتح الباب قليلًا، ونفذ منه رأس، ولكنه لم يكن رأس نجدانوف.

لقد كان رأسًا مستديرًا، ذا شعر أسود غليظ، وجبين عريض امتدت فيه الغضون، وعينين سوداوين براقتين تحت هدبين غليظين، وأنف مكوّر، وفم مضحك في تركيبه.

وأطل ذلك الرأس ثم أطرق، ثم ابتسم، عن أسنان صغيرة بيضاء ومشى تحت جسم ضعيف وذراعين قصيرتين وساقين عرجاوين.

وإذ لمحت ماشورينا وأوستراديموف ذلك الرأس، بدت على وجهيهما أمارات الاحتقار والاستياء، كأنما كان كل منهما يقول في نفسه: «ما هذه البلوى التي وقعت علينا!».

ولكنهما لم يتحركا ولم ينبسا ببنت شفة. ولم يندهش الزائر من هذا اللقاء ولم يحفل، بل بالعكس لاح كأنما سره ذلك وأطربه.

قال في صوت رفيع أشبه بالصفير: «ما معنى هذا، أغنية في مقطعين، فلم لا تكون في ثلاثة. وأين صاحب الصوت الأضخم؟».

فقال أوستراديموف في منتهى البرود: «أتعني بذلك نجدانوف يا مستر باكلين؟».

قال: «نعم يا مستر أوستراديموف».

فقال هذا: «سيعود بعد قليل يا مستر باكلين».

فأجاب صاحبه: «يسرني أن أسمع ذلك يا مستر أوستراديموف».

والتفت الأعرج القزم إلى ماشورينا، فقطبت هذه حاجبيها، ومضت تنفخ ذوائب الدخان من سيجارتها غير آبهة به.

قال القزم وهو يبتسم: «كيف أنت، يا عزيزتي... يا عزيزتي يا عزيزتي. إنني متأسف، يا لحماقتي، وضعف ذاكرتي. إنني دائمًا أنسى لقبك ولقب أبيك».

فهزت ماشورينا كتفيها.

قالت: «لا حاجة بك إلى معرفة لقبي. فإنني أظنك تعرف كنيتي، فماذا تطلب أكثر من ذلك. ولمَ هذا السؤال الذي تفتأ تسألنيه، كيف أنت، كيف أنت، وها أنت تراني حية في مملكة الأحياء».

فتلوى وجه باكلين لوية عصبية، وقال:

«بلا ريب. فلو إنك كنت في مملكة غير عالم الأحياء لحرم خادمك الوضيع هذا من لذة رؤيتك هنا ومن مسرة الحديث معك، إن دهشتي تعود إلى عادة قديمة لديّ، أما عنْ اسمك، فلا يصح أن أدعوك «ماشورينا» حاف؛ بلا زيادة ولا نقصان، إنني أعرف أنك توقعين رسائلك بهذا الإمضاء «بونابرت» سماحة يا سيدتي ماشورينا، ولكن في الحديث وفي التكلم معك. لا يصح...!».

فقاطعته المرأة قائلة: «ومن الذي سألك أن تتكلم معي من فضلك!».

فأرسل باكلين ضحكة متشنجة فاغرة فاها وقال: «حسن لا بأس. يا عزيزتي. هاتي يدك أصافحها ولا تغضبي، إنني أعلم أنك حسنة القصد فيما قلت، وكذلك أنا أيضًا».

ومدّ يده، فنظرت ماشورينا إليه نظرة قاسية، وَمدّت أخيرًا يدها.

قالت بلهجة خشنة كنظرتها في وجهها:

«إذا كنت حقًّا تريد أن تعرف اسمي. فإنني أُدعى فيكلا».

وتلاها أوستراديموف فقال بصوته المنخفض الهادئ:

«وأنا أُدعى بامين».

فصاح القزم الأعرج: «يا لهذا التعليم والتفهيم. ألا نبئيني أي مولاتي فيكلا. ونبئني أنت يا سيد بامين، لِمَ عمركما الله تأبيان أبدًا إلّا أن تتلقياني بهذا اللقاء العدائي، وهذه السحنة المقلوبة الملوية، كلما.......».

فقاطعه أوستراديموف قائلًا: «إن ماشورينا ترى وليست ماشورينا وحدها التي ترى، إنك لست ممن يوثق بهم، ويركن إليهم؛ لأنك تضحك دائمًا سخرية من كل شيء».

فلّف باكلين على عقبيه وصاح قائلًا: «هذه هي الضلة التي يقع فيها كل الناس في حُكمهم عليَّ يا عزيزي بامين. فأولًا، لستُ أرى في كل الأحوال ضاحكًا، ولو كنت كذلك، على سبيل الفرض، لما كان ضحكي باعثًا يحملكما على الشك فيّ والاسترابة بي. وثانيًا. لقد تملقتموني وأوليتموني الشرف أكثر من مرة بوثوقكم بي، فكان ذلك دليلًا مقنعًا على أمانتي وعظم الثقة بي. أنا رجل أمين يا عزيزي بامين».

فتمتم أوستراديموف ألفاظًا بين أسنانه لم تفهم، واسترسل باكلين في حديثه وليس على وجهه أثر الابتسام فقال: «كلا. لست دائمًا ضاحكًا. كلا. لست رجلًا مفراحًا طروبًا ألبتة. وليس عليك إلا أن تنظر إليّ فتدرك ما أقول!».

فنظر أوستراديموف إليه.

وفي الحق لقد كان باكلين إذا سكن عن الضحك وأمسك عن القول، لاح بوجه رهيب، تبدو عليه نظرات محزونة، مسكينة، أليمة، مقدسة. فإذا حرك شفتيه وفتح فمه للضحك أو الحديث، استحال ذلك الوجه مضحكًا عابثًا هازئًا ساخرًا.

ولم يفه أوستراديموف بكلمة إذ نظر إلى ذلك الوجه.

فالتفت باكلين إلى ماشورينا ثانية وقال: «والآن. كيف أنت والدراسة؟ هل تقدمت شيئًا مذكورًا في فنك الإنساني الرحيم حقًّا الحنون، وهل تجدين عناءً كثيرًا في مساعدة رجل غُفل من أهل الدنيا على الظهور لأول مرة على مسرح هذا العالم؟».

فردت عليه ماشورينا بابتسامة راضية مطمئنة إلى نفسها: «ليس من عناء مطلقًا إذا لم يكن أكبر من حجمك هذا».

وكانت ماشورينا قد اجتازت منذ أيام الامتحان في صناعة «القوابل» —الدايات-.

وماشورينا هذه من أسرة نبيلة أصابها الفقر، فغادرت تلك المرأة وطنها في جنوب روسيا منذ عامين، ووصلت موسكو وليس في جيبها غير اثني عشر شلنًا، فدخلت معهدًا لتخريج القوابل، وكدت ودأبت حتى أصابت «الشهادة».

ولم تتزوج ماشورينا، بل عنست وتعففت، فظلت امرأة نقية طاهرة.

وسيقول بعض السفسطائيين، «لا عجب!» إذ يتذكرون وصف وجهها وشكلها، ولكنا نقول لهم مع ذلك، بل العجب كله والدهشة والندرة والغرابة!.

وضحك باكلين من جوابها وصاح: «عال» يا عزيزتي. لقد تحطمت تحت هذه النكتة. ولكن في محلها تمامًا إذ أكون من القزامة والضآلة بهذا الحد. ولكن عجبًا أين ذهب مضيفنا؟».

وكذلك غيّر باكلين عن عمد موضوع الحديث؛ لأنه كان مؤلمًا له. فلم يكن ليرضى مطلقًا عن صغر قامته تلك، وقزامة حجمه ذاك. وجملة الدمامة والعرج الذي هو فيه. ولشد ما كان ألمه إذ كان بكل قوى نفسه ولوعًا بالنساء، وكان يود لو أنه نزل عن أعز شيء لديه ليروح في نظرهن الفاتن الصبيح المحيا.

وكان ألمه من شكله المحزن أشد في نفسه وقعًا من حزنه لحقارة منشأه ولمكانه الخامل الذي لا يتطلع إليه أحد ولا يرتضيه مخلوق، في المجتمع، فقد كان أبوه من أسرة أهل الطبقة السفلى في الحياة وبلغ بوسائل غير شريفة، وذرائع دنية دنسة، رتبة الوسيط في الدعاوى العمومية، والقضايا المدنية، والسمسرة على البيوت والعقارات، فأصاب آخر أمره من كل ذلك ثروة لا بأس بها، ولكنه استسلم إلى الشراب في أخريات سنيه، فاستنزفته الخمر ومات فلم يترك شيئًا، فتربى الصغير باكلين –وكان اسمه الحقيقي «سيلا سامسونتش»[1] وكان هو يعد هذا الاسم نكتة قارصة له- في مدرسة من مدارس التجارة، فأصاب منها علمًا واسعًا باللغة الألمانية، وبعد أن عانى ألوانًا من العذاب والآلام، أُتيح له الاستخدام في مكتب من المكاتب، براتب لا يتجاوز خمسمائة روبل في العام كان ينفق منها على نفسه ويعول منها عمة له عجوزًا وأختًا حدباء.

وكان في عهد هذه الرواية في الربيع الثامن والعشرين، وكان له أصدقاء ومعارف كثيرون بين الطلاب والشباب وكانوا يحبونه لأمازيحه الحادة ولأحاديثه القارصة وإن لم تحدث بعد ذلك أذى ولعلمه الذي لا يرى من كل شيء إلّا ناحية واحدة، وإن كان علمًا حقيقيًّا لا دعوى فيه ولا زهو حواليه، ولا تشدق دونه، ولكنهم بعد ذلك كانوا كثيرًا ما يجلسون فوقه ويستزرون شأنه ويستصغرون أمره، وقد اتفق ذات يوم أن وصل باكلين إلى اجتماع سياسي كان معقودًا إذ ذاك، متأخرًا عن بقية المدعوين والمجتمعين، فأسرع إليهم معتذرًا عن تأخيره، وفي تلك اللحظة ارتفع صوت من زاوية في المكان يصيح: «باكلين كان خائفًا»، فلم يبق أحد في المجتمع لمْ يضحك، وضحك باكلين مع الضاحكين وإن كانت تلك الكلمة أحدّ من رشقة السهم في فؤاده.

وكان أول عهده برؤية نجدانوف في مطعم يوناني صغير، كان نجدانوف يختلف إليه لتناول العشاء، حيث كان يجلس يحدث الصحاب أحاديث آرائه الجريئة الحرة.

وعاد باكلين يكرر سؤاله: «تُرى أين ذهب مضيفنا؟ لقد أصبح اليوم «مِأرْيِف». الله لا يقدر أن يكون قد وقع في حب».

فعبست ماشورينا وقالت:

«لقد ذهب إلى المكتبة لأجل الكتب. أما عن الوقوع في الحب، فليس لديه الوقت ولا الفرصة».

فكادت تخرج من فم باكلين هذه الكلمات: «ولمَ لا معك أنتِ؟».

ولكنه قال بصوت مرتفع: «أريد أن أراه؛ لأن لديّ مسألة هامة أود أن أتحدث معه عنها».

فقال أوستراديموف: «وما تلك. هل تتعلق بموضوعنا وشؤوننا؟».

فأجاب: «ربما، نعم شؤوننا العامة».

فهمهم أوستراديموف غير مصدق؛ لأنه لم يكن يثق به، وجعل يقول لنفسه: «من يدري، فإن هذا القزم حيوان كثير الحركة».

وللحال صاحت ماشورينا فجأة: «ها هو قد حضر!».

وبرقت عيناها الصغيرتان العاديتان، وكانت طول تلك المدة مستقرتين على الباب، كأنما أضاءهما نور داخلي، وضياء من أعماق القلب، فراحتا ناعمتين فاتنتين، مفعمتين حرارة وعاطفة ورقة وفتح الباب.

ودخل الغرفة فتى في الربيع الثالث والعشرين، وقبعته الصغيرة فوق رأسه، متأبطًا حزمة من الكتب.

هذا هو نجدانوف بعينه!

* * *

ولما لمح زوارًا في الحجرة، وقف عند الباب، فاستعرضهم في نظرة، وألقى بقبعته جانبًا، وقذف بالكتب إلى أرض الحجرة، ومشى رأسًا إلى السرير، فجلس على حافته.

وتولى وجهه عارض استياء وكدر، وكان ذلك الوجه شاحبًا جميلًا، بل كان يلوح أشحب من حقيقته، بالنسبة إلى شعره الأصفر المتموج.

فولت ماشورينا وجهها، وعضت شفتها، وتمتم أوستراديموف يقول: «ها قد جاء أخيرًا!».

وكان باكلين أول من فاتحه الحديث.

قال: «ما الخطب يا هاملت روسيا! وما الأمر؟ أحدث شيء أم أنت محزون واجم فقط لغير ما سبب تعرفه؟».

فصاح به نجدانوف مغضبًا مهتاج النفس: «ألا قف يا مستفويلس روسيا عن المزاح؛ فإنني لست في حالة نفسانية أستطيع فيها أن أحتمل الآن سماع أمازيحك الباردة».

فضحك باكلين وقال: «هذا ليس بصحيح. فإن كانت أمازيح فلا يمكن أن تكون باردة، وإن كانت باردة فلا يمكن أن تكون أمازيح».

فقال نجدانوف ليسكته: «تمام. تمام. عارفين إنك ذكي في التأويل والتفسير».

فقال باكلين مترددًا: «هل أعصابك مضطربة أم حدث حقًّا شيء؟».

فأجاب نجدانوف: «كلا. لم يحدث شيء جديد، ولكن لقد أصبح يستحيل على المرء أن يظهر أنفه في هذه المدينة اللعينة الكريهة دون أن يلتقي بشيء من السوقية والحماقة والفوضى. أو لا يعثر بأدلة جديدة على ظلم شنيع وعسف لا يطاق. لا يستطيع الإنسان أن يعيش في هذا البلد بعد الآن».

فقال أوستراديموف: «أهذا هو السبب الذي حملك على نشر ذلك الإعلان الذي ظهر في الصحف، وفيه تطلب الاستخدام في أي محل، ولا مانع لديك يمنعك من مغادرة سان بطرسبرج؟».

فأجاب الفتى: «نعم. أود لو أنطلق من هذا البلد، فذلك السرور كله لنفسي! لو وُجد الأحمق الذي يستخدمني، أو يُوجد لي في غير هذا البلد مكانٌ».

فقالت ماشورينا وهي لا تزال مشيحة بوجهها: «ينبغي لك أولًا أن تؤدي ما عليك من الواجبات هنا».

فالتفت نجدانوف نحوها وقال: «أي واجبات تعنين؟».

فمضت ماشورينا شفتها وأجابت: «سَلْ أوستراديموف».

فالتفت نحو أوستراديموف، فهمهم هذا، وتمتم وسعل، كأنما يريد أن يقول: «انتظر لحظة».

فانبرى باكلين يقول: «ولكن في الحق هل بلغتك أنباء غير سارة؟».

فوثبت نجدانوف عن السرير وصاح به بصوت راعد: «ماذا تريد بعد هذا من الأنباء. إن نصف روسيا يموت جوعًا، وكُتَّاب الأدب في موسكو يريدون أن يدخلوا الطريقة القديمة المدرسية في أساليب الأدب، وأندية الطلبة قد أُوصدت، والجواسيس مبثوثون في كل مكان، والظلم قد عمّ وطمّ، والأكاذيب والخيانة بألوانها وضروبها، والخديعة والغش واللؤم والسفالة... أكل هذا لا يكفيك. ثم تسألني بعد ذلك أمن أنباء أليمة غير ذلك! إنه يظنني مازحًا. يا باكلين، أفقْ من نومك. إن بازانوف صديقنا قد قُبض عليه. وقد بلغني الخبر في المكتبة».

فرفع أوستراديموف رأسه، وفعلت كذلك ماشورينا، وقد بهتا للنبأ:

وقال باكلين: «يا عزيزي أليكسي ديمترتش، إنك مغضب مهتاج النفس، ولك الحق أن تغضب وتهتاج نفسك، ولكن أنسيت في أي عصر وفي أي مملكة نعيش؟ إن في مجتمعنا هذا ينبغي للغريق أن يجد لنفسه العشب الذي يتماسك به ويتشبث طالبًا النجاة من الغرق. فلماذا إذَنْ نرسل عواطفنا تتألم وتتهيج من أجل ذلك.

ينبغي للإنسان منا أن ينظر إلى الشيطان في وجهه، لا أن يتهيج ويغضب كما يفعل الأطفال!».

فقاطعه نجدانوف بلهجة اليائس المتألم الموجع: «كفاية من فضلك. نحن نعرف عنك النشاط والحمية. ونعلم أنك لا تخاف شيئًا قط».

فقال باكلين: «أنا لا أخاف شيئًا قط؟».

وظل نجدانوف في حديثه فقال: «إنني لأعجب ولا أدري من الذي سولت له نفسه أن يغدر ببزانوف ويكشف لهم أمره. لا أستطيع لذلك فهمًا».

فقال باكلين: «صديق ولا ريب. فما أقدر الأصدقاء على ارتكاب ذلك. ينبغي أن لا ينخدع الإنسان بأصحابه وأصدقائه. لقد كان لي يومًا صديق وكان رجلًا طيبًا كريم العاطفة في عينيّ، وكان يشغل باله دائمًا بأمري وأحوالي وسمعتي في الناس. وإنه ليلقاني بالتحية صائحًا في وجهي إذا عثر بي في عرض الطريق «اسمع! يا لتلك القصص المخيفة المفزعة الدائرة على ألسنة القوم عنك، إنهم يشيعون عنك أنك دسست السم لعمك، وأنك في منزل دخلته ضيفًا جلست طول اليوم موليًا ظهرك لربة البيت، وأنها تألمت الألم كله حتى بكت من وقع تلك الإهانة. هذا حديث خرافة ولا ريب. ومن الأحمق الذي يصدق هذه الأمور عنك. هذا ما قال لي يومًا فماذا لعمرك تظن! مضى عام على ذلك الحديث، فوقع بيني وبين ذلك الصديق الحريص على سمعتي شجار وخلاف، فكتب إليّ كتاب الفراق يقول: أنت يا من قتلت عمَّك. أنت الذي لم تخجل من أن تهين سيدة شريفة إذ جلست موليًا لها ظهرك. أنت. أنت... وهلم من تلك الكلمات الساخنة اللذاعة التي كان يحرص على سمعتي منها. هاك مثل الأصدقاء يا نجدانوف».

فتبادلت ماشورينا وأوستراديموف النظرات.

فبدأ أوستراديموف القول، فقال بصوته المنخفض الأجش يريد أن يقطع سبيل مناقشة تافهة كتلك: «ألكسي ديمترتش، لقد وصل كتاب من موسكو من فاسيلي نيقولوفيتش».

فارتعد نجدانوف رعدة خفيفة، وأطرق برأسه، وراح يسأل: «وماذا يقول في ذلك الكتاب؟».

فقال أوستراديموف وهو يشير بحاجبه صوب ماشورينا: «إنه يريد أن نذهب إلى موسكو وهي معنا».

فقال نجدانوف: «أيريدونها هي أيضًا؟».

فأجاب الآخر: «نعم».

فقال نجدانوف: «حسن. وهل من ضير في ذلك».

قال أوستراديموف: «نعم. الحاجة إلى النقود ولا ريب».

فغادر نجدانوف السرير ومشى صوب النافذة ثم قال: «وكم تريدان؟».

قال أوستراديموف: «خمسين روبلًا على أقل تقدير».

فسكت نجدانوف لحظة ثم همس يقول وهو ينقر زجاج النافذة بأنامله: «ليس لديّ منه شيء الآن. ولكني مستطيع أن أظفر منه بالقليل. ألديك الخطاب؟».

فقال الآخر متلعثمًا مترددًا: «نعم. إنه.... أريد أن أقول إن الكتاب....».

فعاجله باكلين صائحًا به: «لماذا تحاولون دائمًا أن تكتموا عني أموركم؟ ألم أكن يومًا جديرًا بثقتكم! ولئن كنت لا أشارككم في العاطفة، ولا أرى رأيكم فيما تعتزمون أن تفعلوه، فهل تظنونني رجلًا خائنًا سيغدر بكم، أو يحدث الناس عن شؤونكم؟».

قال أوستراديموف: «لعلك قد تفعل ذلك من غير قصد أو نية».

فقال باكلين: «ما كنت بالمتكلم عن قصد ومن غير قصد. إن الآنسة ماشورينا تنظر إليَّ بابتسامة... ولكني أقول...».

فانفجرت ماشورينا قائلة: «أنا لست مبتسمة».

واسترسل باكلين يقول: «ولكني أقول إنه يعوزكم الذكاء وتنقصكم اللباقة. إنكم تعجزون عن معرفة أصدقائكم ولا تستطيعون أن تتبينوا أعداءكم من أصحابكم.

فإذا ضحك إنسان أمامكم حسبتموه غير مستطيع أن يكون رزينًا جادًّا وقورًا».

فقالت ماشورينا بلهجة متعجلة: «أليس الأمر كذلك؟».

فاستطرد باكلين في حديثه يقول: «ها أنتم مثلًا بحاجة إلى النقود. ونجدانوف منها اليوم صفر الكف. إنني مستطيع أن آتيكم النقود».

فعاد نجدانوف عن النافذة وهو يقول: «كلا. كلا. لا ضرورة لذلك. سأحصل على المال المطلوب. سآخذ شيئًا من المرتب مقدمًا، دعنا نلقي نظرة على الخطاب يا أوستراديموف».

ولكن أوستراديموف ظل جامدًا في مكانه برهة طويلة، ثم ألقى نظرة حوله، ونهض من مجلسه، ثم انحنى، وقَلّب رجل بنطلونه، ونزع في رفق قطعة من الورق الأزرق من حذائه المرتفع، فنفخ فيها ثم ناولها لنجدانوف.

ونشر هذه الرسالة، وأنعم فيها النظر، ثم مد يده بها إلى ماشورينا.

ونهضت هذه من مجلسها فقرأتها، ثم ردتها إلى نجدانوف، على الرغم من أن باكلين كان قد مد ذراعه ليأخذها منها.

وهز نجدانوف كتفيه، وألقى بالرسالة السرية إلى باكلين.

وتلا هذا أسطرها في صمت، وضم شفتيه ضمة ذات معنى، ثم ألقى بالكتاب في جلال فوق المائدة.

فمشى إليها أوستراديموف، فأشعل عودًا طويلًا من الثقاب ورفع الرسالة فوق رأسه، كأنما يريد أن يظهرها للحضور كلهم، وأوقد فيها النار، غير مكترث بأنامله، فلما التهمتها النار، ألقى برمادها في الموقدة.

ولم يتحرك منهم أحد من مجلسه ولم يَفُهْ ببنت شفة.

وساد السكون على الجميع. وقد بدا في الوجوه القلق.

وكان باكلين المبتدر بالحديث.

قال: «والآن. أمتقبلون أنتم قرباني على مذبح الوطن؟ أتأذنون لي أن أحضر خمسة وعشرين روبلًا أو ثلاثين على الأقل، إن لم يكن المبلغ كله، اكتتابًا مني في سبيل القضية الوطنية؟».

فكاد نجدانوف يتميز من الغيظ، وقد بدا كأنما غلت فيه مراجل الغضب، وكان يريد أن يجد سبيلًا لينفجر.

فلما سمع ذلك من باكلين صاح به: «قلت لك لا أريدها لا أريدها... لا أريدها. ولن آذن لك، ولن أتقبل منك. سأكفل أنا المال، سأكفله في الحال، ولست بحاجة إلى عون أحد!».

فقال باكلين: «هوّن عليك يا عزيزي أليكسي. أراك لست ديموقراطيًّا على الرغم من أنك الرجل المتمرد الثائر!».

فأجاب الفتى: «ولماذا لا تقول بصراحة إنني أرستقراطي نبيل؟».

فقال باكلين: «وإنك لكذلك إلى حد محدود».

فاستضحك نجدانوف وقال: «أراك تريد تلميحًا عن مولدي غير الشرعي. ألا اغن عن نفسك هذه المتعبة يا صديقي العزيز. فلن أنسى ذلك ما حييت».

فنشر باكلين ذراعيه في يأس وصاح قائلًا: «يا صديقي نجدنواف، ما الخبر وما بك؟ كيف تخرج كلماتي مثل هذا التخريج؟ إنني أراك اليوم على غير طبيعتك».

فهز نجدانوف كتفيه.

فقال باكلين: «لقد أزعجك نبأ القبض على بازانوف، ولكنه كان مهملًا غير حريص».

وأردفت ماشورينا تقول برنة حزن: «ولم يكن يخفي آراءه ومبادئه. وما كان لمثلنا أن يجلس مجلس الحكم عليه»، فأجاب باكلين: «هو ذلك، ولكن كان أولى به أن يحسب حسابًا للآخرين، فقد يحتمل أن يقبض على غيره بسببه الآن».

فانبرى أوستراديموف يصيح في وجهه: «ما الذي يحملك على هذا الظن؟ إن بازانوف رجل ذو خلق متين ولن يدلهم على أحد، وفضلًا عن ذلك، لا يغيب عن فطنتك يا مستر باكلين، أنه لا يستطيع كل إنسان أن يكون حذِرًا حريصًا».

فاستاء باكلين من هذه الكلمات وهمّ بأن يقول شيئًا ولكن قاطعه نجدانوف قائلًا: «أقترح أن ندع السياسة جانبًا أيتها السيدات وأيها السادة».

فساد السكون.

وبدأ باكلين الحديث فقال: «لقد التقيت اليوم عَرَضًا بصاحبنا سكوروبكين نقادتنا العظيم الفنان، الحمى المتوقد. فيا له من مخلوق لا يطاق، فهو ما يفتأ يغلي ويرغي ويزبد أشبه شيء بزجاجة من شراب. «الكِفَاس» الحامض اللذاع إذ ترى غلام الحان عاديًا به مسرعًا وأصبعه فوق فم الزجاجة كالفلينة، فإذا سكنت حدته، وانقطع عن الغليان والفوران لم تجد في قاع القدح إلّا بضع نقط صغيرة من مادة قذرة كريهة الرائحة لا تروي غليلًا، بل تردُّ الصحيح مريضًا. وكذلك صاحبنا النقادة الكاتب سكوروبكين، فالخطر والأذى كل الأذى لمن يتصل به أو يقرأ كتبه من الشباب والفتيان».

فلم تحمل هذه المقارنة الصحيحة الفكهة سامعيه على الابتسام، وإنما انبرى نجدانوف يقول: «إنه إذا كان في الشباب قوم حمقى يحتفلون ويكترثون بالخياليات، فلا يستحقون الرثاء مطلقًا، وإن أغواهم سكوروبكين هذا وأضل أذهانهم».

وعاد السكون فاستولى على الجميع.

وإذ ذاك نهض باكلين من مجلسه، ونظر إليهم في وجوههم وقال:

«إن الجلوس معكم يضني ويؤلم؛ فأنتم مهمومون لا يطاق مجلسكم. وخير لي أن أنصرف».

ومشى ليتناول قبعته، وإذا بصوت رقيق عجيب قد سُمع فجأة منبعثًا من الردهة، وكان ذلك الصوت يوحي إلى السامعين الأدب ورقة العاطفة وصفاء الشعور.

وكانت الكلمات التي سمعت هي: «هل مستر نجدانوف هنا؟».

فنظر الجميع إلى بعضهم البعض في دهشة وذهول.

وعاد ذلك الصوت يقول: «هل مستر نجدانوف هنا؟».

فرد نجدانوف أخيرًا: «نعم. هنا».

وفتح الباب برفق، ودخل الحجرة رجل في نحو الأربعين، وأزاح ببطء قبعته الزاهية اللون عن رأسه الجميل الحليق.

وكان الرجل طويل القامة متين البناء، في ثوب حسن وياقة طويلة من الفرو، على حين أن الوقت كان إذ ذاك في أبريل.

فراع منظره فؤاد نجدانوف وباكلين، ووقفت ماشورينا وأوستراديموف مذهولين، أمام بزة هذا الرجل الأنيق المؤدب الحسن السمت.

فلما دخل الحجرة، نهض الجميع عن مقاعدهم وقوفًا محيين.

* * *

-3-

وتقدم هذا الرجل المأنق البزة نحو نجدانوف وعلى وجهه ابتسامة لطيفة، وهو يقول: «لقد كان لي قبل اليوم السرور بلقائك والتحدث إليك يا مستر نجدانوف، وذلك أول من أمس في دار التمثيل، إذا كنت لا تزال تذكر ذلك».

وتمهل الزائر لحظة كأنما ينتظر من نجدانوف أن يؤمن على قوله. ولكن نجدانوف لم يزد على أن انحنى متأدبًا واحمر وجهه خجلًا.

فاسترسل الزائر يقول: «لقد جئتك بشأن إعلانك الذي قرأته في الصحف. وأحب أن نتكلم معًا في هذا الموضوع إذا لم يكن لدى أضيافك مانع».

وانحنى صوب ماشورينا انحناءة مؤدبة، ولوّح يدًا مكسوةً بقفازة سوداء صوب باكلين وأوستراديموف.

فأجاب نجدانوف: «لا مانع ألبتة، ألا تفضل بالجلوس».

فانحنى الزائر واجتذب له مقعدًا، ولكنه لم يجلس، إذ رأى الجميع وقوفًا، بل دار بعينه في الحجرة متفحصًا.

فقالت ماشورينا بغتة: «إلى الملتقى يا ألكسي، سأعود بعد قليل».

وأردف أوستراديموف في أثرها: «وأنا كذلك».

ولم تعر ماشورينا الزائر أدنى التفاتة إذ مرت به، وإنما تقدمت رأسًا إلى نجدانوف، فشدت على يده شدًّا طويلًا، وغادرت الحجرة دون أن تنحني لأحد ما، ومشى أوستراديموف وراءها، وهو يثقل الخطى ويحدث بنعله الثقيل صوتًا عاليًا، ويتمتم بين أسنانه بلهجة السخرية والاحتقار: «هاك رجلًا من أهل النفوذ بياقة من الفرو!».

وأتبعهما الزائر نظرة مؤدبة، وإن كانت مستفسرة فضولية متسائلة، ثم رد عنهما البصر، فألقاه على باكلين آملًا أن يحذو هو أيضًا حذو ذينك الضيفين، ولكن باكلين مضى إلى ركن قصيّ من الحجرة وانكمش في مجلسه.

وكان وجه باكلين منذ دخل ذلك الزائر الغرْيب قد علته ابتسامة لم يستطع إخفاءها.

وجلس الزائر ونجدانوف كذلك. وبدأ الزائر الحديث بزهو يمازحه تواضع: «إن اسمي سيبياجين، ولعلك سمعت بي».

وينبغي الآن أن نصف كيف كان لقاء نجدانوف بهذا الرجل في الملهى..

كانت هناك رواية تمثيلية للروائي أوستروفسكي ستمثل في دار التمثيل بمناسبة قدوم الممثل الكبير سادوفسكي من مدينة موسكو، وكان نجدانوف معجبًا بالرواية، فمضى إلى الملهى ليقتني تذكرة قبل موعد التمثيل، فوجد الزحام شديدًا على شباك التذاكر، ولكنه مشى إلى العامل، وفي نيته أن يبتاع تذكرة في «صالة» الملهى، وإذا بأحد الضباط وكان واقفًا خلفه، قد مد ذراعه فوق رأس نجدانوف بورقة من فئة ثلاثة روبلات، وصاح بالعامل: «ربما يكون هذا -يعني نجدانوف- يريد فكة، وأنا أحتاج إليها، أعطني تذكرة «لوج» من فضلك، أسرع فإنني في عجلة».

فصاح نجدانوف راميًا قطعة من النقود مساوية لها أمام العامل، وكانت تلك كل ما يملك: «انتظر من فضلك. إنني أريد تذكرة «لوج» مثلك أيضًا».

فوجم الضابط وخرس.

وأخذ نجدانوف تذكرته، وفي المساء كان في جناح المقاصير «الألواج» في ذلك الملهى.

وكان في بزة مهملة سيئة المظهر، ينتعل حذاءً قذرًا ولا قفازة في يده، فتولاه من ذلك الألم، وغضب من نفسه لألمه وقلقه. وكان جالسًا عن يمينه في المقصورة ضابط برتبة «الجنرال» قد رشق صدره بالأوسمة الوهاجة، وجلس عن يساره سبياجين هذا بعينه الذي راع ظهوره ماشورينا وأوستراديموف اليوم، وجعل الجنرال يرمق نجدانوف بنظرات حادة بين آونة وأخرى، كما ينظر الإنسان إلى شيء كريه مؤذ ثقيل في غير موضعه، أما سبياجين فكان يرنو نحوه بنظرات ليس فيها تلك القسوة التي كانت تبدو في عين الجنرال.

وكان جميع الذين حوله قومًا من أهل المكانة، وكانوا يعرفون بعضهم بعضًا، ولذلك مضوا يتبادلون الملاحظات والتعجبات والتحيات يتقاذفونها فوق رأس نجدانوف ويتطارحونها عن يمينه وشمائله.

وجلس هو في مكانه جامد الحركة قلقًا منزعجًا في مقعده الواسع، وقد شعر كأنما كان إذ ذاك رجلًا طريدًا نبيذًا ملفوظًا من المجتمع.

ولم يسره التمثيل، ولم يطرب للرواية، من شدة اضطرابه، وأحس في فؤاده بالغضب والجزع.

وإذا به بغتة، يا للعجب والغرابة، في فترة من الفترات التي بين الفصول، يرى جاره الذي عن يساره، قد دنا منه فحياه بأدب وحياء ورفق.

وجرى بينهما الحديث عن الرواية، فمضى ذلك الرجل يسأله عن رأيه في التمثيل، وطلب إليه أن يشرح له فكره في موضوع الرواية، كرجل يمثل الجيل الجديد، فخفق قلب نجدانوف وعلاه حياء، وتولاه الاضطراب، فجعل يجيب في بادئ الأمر عن أسئلة الرجل أجوبة مقتضبة وكلمات متقطعة، ولكنه لم يلبث أن غضب من نفسه لهذا الخجل، وراح يقول في أعماق نفسه.

«بعد كل هذا، ألست رجلًا ككل الناس؟».

وانطلق يشرح آراءه بكل جلاء وصراحة وحرية دون خجل أو تردد أو جزع، وأخذته الحمية لرأيه، وطغى مدّ بلاغته، فجعل يتكلم بصوت جهير، حتى أزعج صاحبُنا الجنرالَ ذا الأوسمة المزدحمة على صدره.

وكان نجدانوف من أكبر المعجبين بالمؤلف أوستروفسكي، ولكنه كان ينكر عليه شخصية من شخصيات الرواية.

وكان جاره المؤدب مصغيًا إلى حديثه كل الإصغاء، وقد بدا عليه الاحتفال بما كان يسمع من نجدانوف.

وتكلم معه أيضًا في الفترة التالية، ولم يكن الحديث في هذه المرة عن الرواية، وإنما عاج بهما الحديث إلى عدة شؤون من شؤون الحياة، عن العلم، والفنون ثم انتهى إلى المسائل السياسية.

وكان الرجل مشغوفًا بحديث الفتى وآرائه، ومضى نجدانوف يعب به الحديث ويتمادي، وقد اتخذ سيمياء المحدث البارع الفيلسوف، كأنما كان وجهه يقول لمحدثه: «إذا كنت تريد مني أن تعرف آرائي، فها أنا سأشبع شهوتك وأرد حيرتك وأروى غليلك!».

وكان استياء الجنرال ينقلب غضبًا وغيظًا، حتى بدأ يرتاب في نجدانوف وينظر إليه نظرة الاتهام والقلق.

فبعد انتهاء الرواية، استأذن سبياجين من نجدانوف بكل أدب، ولم يسأله عن اسمه ولا أنبأه هو عن لقبه.

ووقف سبياجين يرتقب وصول مركبته، وفي تلك اللحظة مر به البرنس ج.... أحد ياوران القيصر.

فقال هذا لصديقه سبياجين: «لقد كنت ألاحظك طول الوقت من مقصورتي. فهل تعرف من ذلك الفتى الذي كنت تكلمه».

فأجاب سبياجين: «كلا. فهل تعرفه أنت؟ يلوح لي أنه فتى ذكي ألمعيّ. فمن يكون؟». فهمس البرنس له في أذنه باللغة الفرنسية: «هذا أخي. غير الشرعي. إنه يُدعى نجدانوف. وسأخبرك بقصته كلها يومًا آخر، ولم يكن أبي يتوقع ألبتة أن يرزق به ولذلك سماه «نجدانوف»[2] كما ترى. ولكنه عني بأمره، ورعاه برعايته. وقام بالنفقة عليه. ونحن ندفع له مرتبًا يعيش منه. وهو فتى ليس بالأحمق ولا بالغبي. وقد تربى تربية حسنة، والفضل في ذلك لأبي. ولكنه انحرف عن الجادة وأكبر ظني أنه اليوم من الجمهوريين. وقد أبينا على أنفسنا أن ندخل في شؤونه. إلى الملتقى. إنني أرى مركبتي في الانتظار».

وانصرف البرنس.

وفي اليوم التالي أخذ عين سبياجين ذلك الإعلان الذي نشره نجدانوف عن نفسه في الصحف. فذهب لزيارته.

* * *

وعاد سبياجين يقول، وقد جلس أمام نجدانوف يجيل فيه النظر: «إن اسمي سبياجين، وقد علمت من إعلانك أنك تطلب عملًا، وقد جئت لأعلم إذا كنت تتقبل العمل عندي. إنني متزوج ولي صبيّ في الحول الثامن من عمره. إنه طفل في غاية الذكاء إن أردت الحق، ونحن عادة نقضي الصيف والخريف في الريف في ولاية س..... في ضيعة لنا على مسيرة خمسة أيام من المدينة التي بهذا الاسم، وأود أن تأتي معنا لتمضي هذه الفترة في تعليم الطفل التاريخ والأجرومية، وأظن هذين الموضوعين هما اللذان ذكرتهما في الإعلان، وأكبر رجائي أنك ستسر بعشرتنا، وستعجبك الضيعة وما حولها من بلاد الريف، فلنا هناك بيت كبير وحديقة غناء والهواء هناك طيب والنهر يجري منا قريبًا، والآن هل لك في الذهاب، وليس علينا إلّا أن نتفق على الشروط، ولن نجد عناء في موضوعنا من هذه الوجهة».

وكان نجدانوف يراقب الرجل طول مدة الحديث، وجعل ينظر إلى رأسه الصغير وجبينه المنخفض الضيق، على الرغم من بريق الذكاء يلمع في غضونه وأنفه الروماني الدقيق، وعينيه اللطيفتين، وشفتيه المستقيمتين والألفاظ تخرج منها مستفيضة جميلة المخارج وجعل يرمق ذلك الشارب المتساقط المتطامن، وهو يقول لنفسه: «ما معنى هذا كله. لماذا جاء هذا الرجل يخرجني من مكمني؟ أمثلنا يعيش تحت سقف واحد أنا وهذا الأرستقراطي؟ في أي شيء ترانا متفقين متفاهمين، وماذا يرى في فتى مثلي؟».

وذهب في تفكير بعيد، فلم يقل شيئًا ولم تتحرك شفتاه عندما أتم سبياجين حديثه، وتمهل يرتقب جوابًا، وألقى الرجل نظرة إلى ذلك الركن الذي جلس فيه باكلين كأنما يريد أن يراقبه كذلك. وقد خطر له أن وجود شخص ثالث في الحجرة هو الذي منعه الكلام.

ورفع حاجبيه كأنما قد استسلم إلى غرابة هذه البيئة التي دفع بنفسه فيها من تلقاء خاطره، ثم مضى يعيد السؤال على الفتى.

وإذ ذاك انتبه نجدانوف من ذهوله، وقال متلعثمًا في عجلة: «بلا ريب أود أن... بكل سرور. وإنما اسمح لي أن أقول الحق... إنني في دهشة وحيرة... إذ ليس لديّ من يتوسط لي في هذا الشأن أو يقول كلمة خير. والآراء التي أبديتها لك ونحن في دار التمثيل كانت أولى بأن تترك في نفسك من ناحيتي أثرًا سيئًا...».

فقال سبياجين وعلى شفتيه ظل ابتسامة حلوة: «لقد أخطأت هنا وضللت. يا ألكسي ديمترتش، هل تراني لا أزال اذكر اسمك بجملته صحيحًا. إنني لأجسر أن أقول إنني قد عرفت، بل اشتهرت بمبادئي الحرة وآرائي المتخلصة من التقاليد، نعم. لقد أخطأت. فإنني بالعكس قد وافقت كل الموافقة على حميتك يوم التمثيل، بل كنت بها مسرورًا طروبًا. عدا ألفاظًا معدودات تُغتفر للشباب؛ إذ هم يميلون بطبائعهم إلى الغلو والمبالغة. إن أذنت لي أن أقول ذلك».

وكان سبياجين يتكلم ولا أثر للتردد في كلامه، بل كانت الألفاظ تتدفق من شفتيه كالجدول الفضفاض.

واستطرد في حديثه الأول فقال: «إن زوجتي تشاركني في وجهة النظر ومطارح التفكير، بل تكاد آراؤها تجري مجرى آرائك أنت أكثر مما تمشي مع مبادئي. ولا غرو في ذلك ولا عجب؛ إذ هي أصغر مني سنًّا وأنضر شبابًا، وعندما قرأت اسمك في الصحف في صبيحة اليوم الذي التقينا فيه يوم التمثيل، لشد ما اندهشت لذلك الاتفاق الغريب؛ إذ كنت قد عرفت اسمك وسمعت به في الملهى، حتى لقد خيل إليّ أن ذلك من وحي القدر، ويد القضاء الإلهي، واغفر لي أنني رجل أعتقد بالخرافات وتقع مني الأوهام. أما عن الوساطات والتوصيات فلا أرى لها ضرورة في موضوعنا هذا، إنني أشعر بعاطفتي مجتذبة نحوك، وقد اعتدت أن أركن إلى صوت عاطفتي وأدين بإلهام وجداني، فهل أتوقع منك قبولًا؟».

فأجاب نجدانوف «نعم. تقبلت. وسأذهب معك. ولعلى سأحقق حسن ظنك بي. وإني محاول أن أكون خليقًا بثقتك. ولكنَّ هناك أمرًا أحب أن أذكره لك. إنني آخذ على عاتقي تعليم ولدك. ولكني لست مستعدًا أن أقوم على تربيته والعناية بتأديبه، فإنني لا أريد أن أتعهد بأمر قد يكون فيه اعتداء على حريتي».

فلوح سبياجين بيده تلويحة صغيرة كأنما يطرد عن وجهه ذبابة تحوم حوله، ثم أجاب:

«اطمئن من هذه الوجهة، فلن يكون هذا عملك في داري. إنني إنما أردت معلمًا لا مؤدبًا ولا مربيًا، وقد وجدت فيك ضالتي المنشودة. والآن ماذا تقول في الشروط.

أما الوجهة المالية فتلك حقيرة لا أحفل بها».

فلم يعرف نجدانوف ماذا يقول.

ومضى سبياجين يقول: «إنني أرى أن المهذبين يستطيعون إنهاء هذا الموضوع بكلمتين. إنني سأعطيك مائة روبل في الشهر، وأتحمل مصاريف سفرك وأوبتك. فهل أنت متقبل ذلك؟».

فاحمر وجه نجدانوف حياء وخجلًا، وقال متلعثمًا: «إن هذا الراتب أكثر مما كنت أريد أن أطلب.... لأنني....».

فقاطعه سبياجين قائلًا: «إني أعتقد إذَنْ أن الموضوع قد تم بيننا الآن. وأعدك منذ اللحظة فردًا من أهل بيتي».

ونهض من مقعده فرحًا مستهل المعارف، كأنما قد أصاب «لقطةً» أو مُنح منحة لم يكن يتوقعها.

وبدأت تظهر على محياه وفي حركاته دلائل الألفة والتحبب والدعابة والمراح، ومضى يقول في لهجة رخية رقيقة: «سنسافر بعد يوم أو يومين، فليس شيء أحب إلى نفسي من لقاء بواكر الربيع في الريف واستقبال مطالعه في القرى. وإن تراءيتُ للناس رجل عمل خشن مغلول إلى المدنية، مقيد بالحضر. فلتحسب تعيينك منذ اليوم. وقد سافرت زوجي وطفلي قبلنا ولعلها في موسكو اليوم. وسنجدهما إذ نبلغ الضيعة في أحضان الطبيعة، وحِجر الربيع. وسنسافر نحن وحدنا، أشبه شيء برجلين أعزبين. أليس كذلك؟».

وضحك سبياجين ضحكات المداعب المهذار. ثم قال: «والآن...».

وأخرج إذ ذاك دفتر جيب أسود مفضض من معطفه، وانتزع منه بطاقة، وعاد يقول: «هاك عنواني. تعال زرني غدًا. في نحو الثانية عشرة. حتى نتحدث في الموضوع أكثر من هذا، فإنني أحب أن أشرح لك بعض آرائي ومبادئي في التربية، ويمكننا إذ ذاك أن نتفاوض في موعد السفر».

وأخذ يد نجدانوف وقال خافضًا صوته ومنحنيًا ناحية:

«وعلى ذكر ذلك، أقول لك إذا كنت بحاجة إلى النقود، فمن فضلك لا تجعل للكلفة سبيلًا بيننا، فإنني أستطيع أن أدفع إليك راتب شهر مقدمًا».

فحار نجدانوف ولم يدر ماذا يجيب، بل راح ينظر إلى ذلك الوجه البراق الرفيق البسام المشجع.

وعاد سبياجين يسأله في همس:

«قل لي هل أنت بحاجة إلى شيء منها؟».

فتشجع نجدانوف وأجاب: «سأقول لك غدًا».

فأرخى سبياجين يد نجدانوف من يده، والتفت لينصرف قائلًا: «إذَنْ إلى الملتقى. إلى الملتقى غدًا».

فقال نجدانوف بغتةً: «أريد أن أعرف من الذي نبأك باسمي. فقد قلت إنك سمعت به في دار التمثيل».

فأجاب سبياجين: «شخص معروف لديك. بل قريب من عشيرتك. هو البرنس ج...».

فقال نجدانوف: «أتقصد الياور؟».

فأجاب سبياجين: «نعم».

فاشتد نجدانوف خجلًا وحياءً، ولم يقل شيئًا. فهز سبياجين يده مرةً أخرى. وانحنى أولًا إلى نجدانوف، ثم إلى باكلين، ووضع قبعته فوق رأسه وهو واقف بالباب، ومضى مبتسمًا ابتسامة الرضى والسرور.

* * *

وما كان سبياجين يجتاز عتبة الحجرة، حتى قفز باكلين من مكانه، وعدا نحو نجدانوف يمطره تهنئة وتشجيعًا وكلمًا رقيقًا فرحًا متهللًا، وهو يقول ضاحكًا لا يكاد يقيم قامته من شدة الطرب: «يا لها من لقطة طيبة. أتعرف من هو هذا الرجل! إنه عَلَم من الأعلام، ونجم في روسيا من الأنجم الزهر، بل رجل طائر الذكر سيروح في المستقبل وزيرًا».

فأجاب نجدانوف برنة حزن: «لم أسمع به قبل ذلك».

فرفع باكلين ذراعيه يائسًا وقال: «هذا خطأنا. وذلك ضلالنا يا ألكسي. نحن لا نعرف أحدًا من هؤلاء الناس، ونريد أن نحدث في هذا البلد أحداثًا كبارًا، ونقلب هذه المملكة، بل العالم كله رأسًا على عقب، ثم نحن بعد كل هذا نعيش خارج العالم نفسه، بين صديقين أو ثلاثة، نتطارح الحديث، ونتعايب ونتشاجر في ندوتنا الضيقة الصغيرة الضئيلة».

فقال نجدانوف: «معذرة إذا أنا قلت إن هذا ليس بالحق. نعم ينبغي لنا أن لا نوغل في وسط أعدائنا ولنا في ذلك الحق، بل نحن نمتزج بشعبنا، ونختلط بالجماهير».

فقاطعه باكلين قائلًا: «إن كلامك هذا يذكرني برأي الشاعر جوت الألماني، وهو أن لا يختلط الإنسان بأعدائه، ولكني أقول لك إن الحماقة كلها أن يولي الإنسان ظهره لعدوه ويتحاشى فهم أخلاقه ودرس أسلوب حياته. نعم ذلك هو الطيش بكل مادته. وإنك إذا أردت أن ترمي برصاصك الذئب في الغابة، كان أخلق بك أن تتحرى جولانه ومواضع هيمانه وعَدْوه وطوفاته. وقد قلت الآن عن الاختلاط بالشعب ودخولنا في عمار الجماهير. فيا طفلي العزيز، في عام 1862 ألّف أهل بولونيا عصابات الثوريين منهم في الغابة، ونحن نوشك أن ندخل تلك الغابة بعينها، أعني الشعب والأمة، وهي ليست أقل ظلمة وكثافة من تلك الغابة التي تعرف».

قال نجدانوف: «وماذا تريد منا إذَنْ أن نصنع؟».

فاسترسل باكلين في حديثه يقول: «إن الهندوس يلقون بأنفسهم تحت عجلة الموت، ويموتون في لذة لا توصف، ويلفظون أنفاسهم في حمية سارة متناهية. ونحن لدينا عجلة الموت. نعم، ولكنها تدهمنا وتمزق جسومنا، وتقطع أوصالنا، دون أن نجد من ذلك لذة أو نشعر منه بمسرة أو طرب».

فصاح به نجدانوف مغضبًا: «إذَنْ ماذا تريد أن نفعل؟ أتريد أن تؤلف روايات وعظية صياحة حماسية».

فشبك باكلين ذراعيه، وأمال رأسه إلى ناحية وأجاب: «أنت على الأقل تستطيع أن تكتب روايات وتنشئ قصصًا؛ فإن لك ذهنًا ينتحي مناحي الأدب، ولكن ما علينا، لن أتكلم في هذا الموضوع ألبتة؛ فإنني أعلم أنك لا تحب أن يذكر أمامك. وأعرف أنه ليس من العناء في شيء أن يكتب الإنسان ما يريد الشعب. إنني لا أزال أذكر لك تلك القصائد الحلوة...».

فأجاب نجدانوف: «هذا أمر لا أهمية له عندي».

فقال باكلين وهو يهرش رأسه: «إنني أريد أن أنصح لك أن تلم بكل شيء وكل طبقة من الناس بادئًا بالطبقة العليا. وأهل الخطر والمكانة في المجتمع؛ إذ لا ينبغي أن نتكل على أناس مثل أوستراديموف. نعم، إنهم قوم أمناء أوفياء، ولكنهم من الحمق والبلاهة بحيث لا تجد بعد حمقهم حمقًا. ألا انظر إلى صديقنا أوستراديموف هذا. فلمَ أسرع بالخروج في الحال من الحجرة لا لشيء غير أنه لم يرد أن تحويه ورجلًا من الأرستقراطيين حجرة واحدة، وأن يستنشق الهواء بعينه الذي يدخل في رئتي رجل من أهل الطبقة العالية..».

فانفجر نجدانوف مغضبًا وقال: «أرجو أن لا تتكلم هكذا عن أوستراديموف أمامي، فإنه إذا كان قد أراد أن لا يبقى في الحجرة مع ذلك الرجل، فذلك أمر يُمدح عليه، وخليق أن يظفر بالثناء، بل إنه فوق ذلك قدير على تضحية نفسه ومواجهة الموت، وهو أمر لا تستطيعه أنت ولا أنا أيضًا».

فقطب باكلين حاجبه، وأحدث حركة محزنة، وأشار إلى ساقيه العرجاوين المتأودتين وقال: «هل تراني أبدو لعينيك جنديًّا محاربًا قويّ البأس يا ألكسي؟ ولكن دعنا من هذا الحديث، إنني مسرور لك إذ التقيت بسبياجين هذا، وأتوسم الخير في هذه المعرفة، وأتنبأ بأنه سيجدي على قضيتنا العامة، وأنت عما قليل واجد نفسك في بهرة المجتمع الراقي المتعالي المترفع، ومختلط بأولئك الحسان اللائي نسمع بهن في الكتب، سيدات لهن أبدان كالقطيفة، وجسوم في نعومة الحرير. ولو أنك كنت رجلًا إباحيًّا عبد شهوتك، لنصحت لك بترك السفر والعدول عن الذهاب، ولكن ليست تلك بغيتك من السفر. أليس كذلك؟».

فقال نجدانوف: «إنني ذاهب لأكسب رزقي وأكدح لعيشي ولأهرب منكم أجمعين!».

فأجاب باكلين: «بلا ريب، بلا ريب، ولهذا نصحت لك، يا سلام. ألا تشم هذه الرائحة البديعة التي تركها هذا الرجل في جو الحجرة عابقة متأرجحة؟».

وراح يستاف الهواء بأنفه رافعه عاليًا متوجهًا إلى السقف.

فقال نجدانوف كأنما يسائل نفسه في لهجة حزينة: «إنه تكلم عني مع البرنس ج...، وأظنه يعرف قصتي بحذافيرها».

فأجاب باكلين: «لا تك في ريب من ذلك، ولكن أي أهمية لهذا. إنني أراهن على أن هذا هو السبب الذي حمله على استخدامك وستستطيع أن ترفع رأسك في وسط أعظمهم قدرًا، ولن تقل عن أكبرهم شأنًا، فأنت فتى أرستقراطي نبيل دمًا ومولدًا، وأنت مساو لهم مكانًا وشأوًا، على أنني قد تمكثت لديك طويلًا، ويجب أن أعود إلى مكتب صاحبي الذي استخدمني. فإلى الملتقى».

ومشى باكلين إلى الباب، ولكنه وقف، ثم دار وتقدم إلى نجدانوف وهو يقول بلهجة الحث والإغراء ورنة المتوسل الضارع: «لقد رفضت يا صديقي ألكسي منذ هنيهة عوني، وإني أعرف أنك لن تعوزك النقود بعد اليوم، ولكن هلا أذنت لي أن أبذل القليل مما أملك في سبيل بلادي، إنني عاجز عن أن أؤدي عملًا، فهل تقبلت أن أعين قومي بشيء مما في جيبي، لقد وضعت فوق المائدة عشرة روبلات، فهل تقبلتها مني».

فلم يحر نجدانوف جوابًا.

وإذ ذاك تهلل وجه باكلين وصاح فرحًا طروبًا: «إن السكوت دليل الرضى فشكرًا. شكرًا».

واختفى.

وبقي نجدانوف وحده في الحجرة، فظل ينظر إلى تلك الردهة الضيقة المظلمة التي لا تنفذ الشمس منها حتى في وقدة الصيف، وحمارة القيظ، فأحس بالحزن وشعر بفؤاده قد علته غمة وألم. وقد علمنا من قبل أن والد نجدانوف كان البرنس ج... قائدًا من كبار رجال الجندية وغنيًّا واسع الثراء، وأما أمه فكانت ابنة رئيسة الوصائف في قصر البرنس. فتاة حسناء توفاها الله يوم خرج إلى نور الحياة وليدها نجدانوف. فتلقى الطفل تربيته في مدرسة داخلية، كان يديرها رجل من السويسريين، وهو معلم شديد القسوة، نشيط الروح، وانتقل من تلك المدرسة إلى الجامعة، وكان مطمح بصره أن يدرس القانون، ولكن والده، وكان يحمل في فؤاده كراهية شديدة للثورة والفوضوية، أصر على أن يتخرج ابنه في التاريخ وفقه اللغة، وكان من عادة أبيه أن يزوره أربع مرات فقط في العام كله، وإن كان مع ذلك منصرفًا إلى العناية بأمره، محتفلًا بمستقبله. فلما قضى نحبه ترك له مبلغًا قدروه بستة آلاف روبل، وكتب في وصيته يقول: ذلك في سبيل ذكري فاستنكا.

وكان هذا اسم أمه، فظل نجدانوف يتناول ريع ذلك المال من إخوته، وكان يسمون ذلك الريع كرمًا منهم وجودًا بالمرتب، وقد أصاب باكلين في تسميته نجدانوف بالأرستقراطيّ، فقد كانت كل حركة من حركات الفتى وكل تقاطيع وجهه ومعارف محياه، ومظاهر خلقه، تنم عن منشأه، وتشف عن مولده ومنبته، وكذلك أذناه الدقيقتان، ويداه الناعمتان البضتان، وقدماه الصغيرتان، وتقاطيعه الرقيقة الجذابة، وبشرة بدنه اللينة، وفروع شعره المتموجة المرسلة، وحتى صوته الرقيق الموسيقي الناعم الأغاريد.

وكان نجدانوف بعد ذلك مزهوًّا فخورًا متناهي الإيمان بذكائه ونبوغه، وكان حساسًا شفاف الوجدان، وقد جعله مكانه الخامل السيئ الذي وضع فيه منذ طفولته، غضوبًا متبرمًا سريع التهيج، ثَوَّار العاطفة، ولكن طبيعته الكريمة حمته أن يكون كثير الوساوس، سريع التهمة للناس، متجهم الطلعة في لقائهم، وكان ذلك الظلم الذي رده طفلًا نبيلًا غير شرعي هو بعينه الذي كان علة تقلبه وقلقه ونفرته من حال إلى حال، وكان نجدانوف ملتهب العاطفة، نقي الذهن شجاعًا جبانًا، جريئًا منزويًا، في آن واحد، وكالنادم على آثامه والخَجِل من ذنوبه، كان يأنف من حيائه. ويشمئز كذلك من نقاء عاطفته. وكان له فؤاد كريم متحبب بطبيعته إلى الناس، ميال إلى الود، والعطف، ومع ذلك كان يحمي نفسه عن الدخول في غمارهم، ويعتزل نَدِيّهم ومجالس أسمارهم، وكان سريع الغضب يهتاج من أقل حادث وأتفه كلمة. ولكنه لم يكن ليحمل لأحد ضغينةً. أو يكنّ لمخلوق في فؤاده حقدًا ولا كرهًا. وكان حانقًا على أبيه أن زج به في دراسة «الخياليات»، كما كان يُسمى منحي العلم الذي انتحى دراسته، فمضى يشتغل بالسياسة والشؤون الاجتماعية. وكان يجاهر على رؤوس الملأ، وفي بهرة الندوات بأشد الآراء تطرفًا وأبعد المبادئ غلوًّا في الوطنية وإغراقًا. ولم تكن المبادئ لديه كما هي عند جمهرة الشباب ألفاظًا منمقة، وكلمًا عذبًا، لا حقيقة له في نفوسهم.

وكان يسره في خفية أن يشتغل بالفنون والشعر والجمال كله في سائر مظاهره وألوانه، وفي ساعات مسرته، وتنزل الوحي على فؤاده، يعمد إلى النظم فيكتب أبياتًا وينشئ قصائد. ولا ننكر أنه كان يخفي على الناس كراسة أشعاره ويكتم أصدقاءه سر شاعريته. فلم يكن أحد من صحابته يعلم بنبأ تلك الكراسة، إلّا باكلين هذا، فقد أُلهم معرفة مخبأ الكراسة إلهامًا.

ولم يكن شيء ليؤلمه ويجرح عاطفته أشد وقعًا لديه من التلميح بشعره، أو ذكر كلمة صغيرة عن قصائده، إذ كان يعد الشعر فيه ضعفًا لا يغتفر له ولا يجد شفيعًا يتشفع به عنه.

وكان أصحابه جميعًا يحبونه، وينزلونه من نفوسهم أحسن منزل، وكان يستهويهم منه حبه للعدل، ورقة فؤاده، وصفاء ذهنه، ولكن نجدانوف يوم ولد لم يخرج للحياة تحت نجم سعيد، وكوكب مزهر. فلم تكن حياته عبئًا خفيف الحمل، لا ينوء به. فآلمه ذلك وأضناه فشعر بالوحدة، على رغم إخلاص صحابته له والتفافهم حوله.

ووقف أمام النافذة مفكِّرًا سابحًا في لجة عميقة من التأملات. ونهضت في ذهنه خواطر حزينة مؤلمة ظالمة عاسفة، متعاقبة واحدة وراء الأخرى، فجال في خاطره السفر، والرحلة. وذلك الحادث الجديد الذي غيّر وجه الحياة لديه، ولم يكن يشعر بشيء من الأسف لمغادرته سان بطرسبرج إذ كان يعلم أنه لن يترك وراءه في تلك المدينة الكبرى شيئًا عزيزًا لديه، ولا أمرًا حبيبًا إلى نفسه. وأنه عائد إليها في مبتكر الخريف، غير مفارقها الدهر كله.

ومرت بخاطره هذه الفكرة كخطف البرق: «لي الله أي معلم مؤدب سأكون غدًا. أخلَق الله مني ناظر مدرسة، أم وثبتُ للحياة لأكون معلمًا».

وكاد يندم ويؤنب نفسه على أنه تقبل تلك الوظيفة، ولو أنه فعل، لكان ظالمًا لنفسه. لأنه كان مهذب الذهن واسع العلم، وكانت الأطفال لا تلبث أن تقع في حبه وتميل إليه بجوانحها، وكان هو يحنو عليهم، ويجد سبيله إلى نفوسهم.

ولقد كان حزنه أثر ذلك الإحساس الذي يتملك الإنسان منا قبل الدخول في عمل جديد، وتَقلّدِ وظيفة غريبة عليه. وهو شعور يتملك الفتيان الذين يغلب على طبيعتهم الحزن، والشباب الكثيري الأحلام. وما كان ذلك الإحساس ليصيب تلك الطبائع النشيطة الدموية الخشنة العملية الواثبة، التي لا تني تطرب وتفرح لقدوم الطارئ الجديد على حياتها، وللمباغتات التي تعرض لها في نظام عيشها، وترحب بكل نقلة، وتستقبل مطالع التحول من أفق إلى أفق، ومن بيئة إلى بيئة فرحة متهللة.

وقد غرق نجدانوف في خواطره وأبعد في مطارح التفكير حتى مضت خواطره –وهو لا يدري- تتخذ شكل الألفاظ وتستحيل نجوى وحديث نفس. وإذا به يصيح بصوت مرتفع: «اللعنة. اللعنة. ها أنا قد عدت إلى الخيال، واندفعت في الشعر والوهم».

فعاد عن النافذة، وإذ ذاك حانت منه التفاتة إلى قطع النقود التي تركها باكلين فوق المائدة فقذف بها في جيبه، ومضى يذرع الحجرة جيئةً وذهابًا.

وجعل يحدث نفسه قائلًا: «ينبغي لي أن أحصل على شيء من النقود مقدمًا. يا ألله! ما أكبر هذا القدر الذي اقترحه هذا الرجل! مائة روبل... ومائة مثلها من إخوتي. كلا، بل مثلها من «أصحاب السعادة» إخوتي... إنني بحاجة إلى خمسين روبلًا أوفي بها ديوني، وخمسين أخرى أو سبعين للرحلة. وأما البقية فهي لصديقي أوستراديموف. يأخذها إذا شاء. وفضلًا عن ذلك لا تزال لديّ نقود باكلين، وأستطيع أن أظفر بشيء أيضًا من ماركيلوف».

وفي وسط هذا التدبير الحسابيّ انقطع وحي شاعريته، فوقف في مكانه لا يتحرك وهو ينظر نظرات مشردة مذهولة، ثم لم يلبث أن تحسست يداه درج المائدة على غير إرادته فنزعتا منه كراسة صغيرة بالية الغلاف، طال العهد عليها، وإذ ذاك سقط في مقعد ومضى يترنم ترنيمة لا ألفاظ لها، ويصفر بشفتيه صفيرًا رقيقًا خافتًا، وهو يهز بين آونة وأخرى فروع شعره المستطيلة، وقد أمسك بالقلم يكتب سطرًا إثر سطر، ثم يمحو بعض الأسطر، ويكتب غيرها.

وفي تلك اللحظة فتح الباب قليلًا وأطلت ماشورينا برأسها، ولم ينتبه نجدانوف لدخولها، بل مضى في كتابته، وظلت ماشورينا في مكانها تنظر إليه وتتأمله برهة طويلة، ثم هزت رأسها واجتذبته خلف الباب، وعند ذلك لمحها نجدانوف، فقال بشيء من التسخط والاستياء: «أهذه أنت؟!»، وبسرعة البرق قذف بالكراسة في جوف الدرج.

فتقدمت ماشورينا بخطى ثابتة، وقالت في رفق: «لقد كلفني أوستراديموف أن أمر بك لنعلم في أي وقت سنتناول النقود، فلو استطعت أن تصيبها لنا اليوم سافرنا الليلة غير متمهلين».

فعبس نجدانوف وقال: «لا أستطيع اليوم. تعالي غدًا لتأخذي المبلغ...».

قالت ماشورينا: «وفي أي ساعة أحضر؟».

فأجاب: «في الثانية بعد الظهر».

قالت: «حسن جدًّا. سأكون لديك في هذا الموعد».

وسكتت ماشورينا عن الكلام برهة، ثم مدت يدها وقالت: «أخشى أن أكون قد قطعت عليك سبيل التفكير. إنني آسفة. ولكنك تعلم... أنني مسافرة تاركة هذا البلد. ومن يدري هل سيقدر لنا أن نلتقي بعد اليوم. لهذا أردت أن أقول لك وداعًا إلى لقاء!».

فشد نجدانوف على أناملها الباردة وأجاب: «أرأيت هذا الرجل الذي كان هنا منذ ساعة! إنني اتفقت معه، وأنا بعد يوم أو بعض يوم مغادر هذه المدينة. إن ضيعته في ولاية س.... وهي ليست بعيدة عن البندر».

فتهللت أسارير ماشورينا وقالت:

«في ولاية س.... لعلنا ملتقيان هناك، فقد يرسلوننا إلى تلك المدينة».

وتمهلت لحظة وتنهدت ثم عادت تقول: «أواه يا ألكسي!».

فقال نجدانوف: «ماذا بك؟».

فشدت يد ماشورينا مرةً أخرى وقالت بسرعة: «لا شيء. لا شيء. إلى الملتقى. لا شيء».

ومضت منصرفة.

فوقف نجدانوف ينظر صوب الباب وهو يقول لنفسه:

«ليس في هذا البلد كله نفس متعلقة بي مثل هذه المخلوقة الغريبة الأطوار، ولكني كنت أود لو أنها لم تقطع عليّ سبيل التفكير، ومع ذلك لقد أحسنت صنعًا؛ فذلك خير لي».

وفي اليوم التالي زار نجدانوف النبيل سبياجين فتلقى منه مائة روبل.

ومضت عشرة أيام، فكان إذ ذاك متكئًا في مقعد جميل في حجرة من حجرات الدرجة الأولى، بجانب هذا السياسي العاقل الحر المهذب، والقطار ينهب الأرض بهما يريد مدينة موسكو.

* * *

-5-

في حجرة الاستقبال من قصر شاهق بديع جلست زوجة سبياجين «فالنتينا» امرأة فاتنة الحسن، ترتقب وصول زوجها بين لحظة وأخرى، وقد كان طيّر لها نبأ قدومه.

وكانت الحجرة مزدانة على آخر أسلوب من زينة العصر، فكل شيء فيها جميل، وكل شيء فيها مجتذب يغري الناس بالجلوس والرياش فيها والأستار والكلل في أبدع نظام، وأجمل مظهر، ونور الشمس وضياء مايو الجميل، يشع فيها فيملأها نورًا، وينفذ منبثقًا مندفعًا من شرفاتها الرحيبة المفتوحة على مصاريعها.

وكان الهواء سجسجًا عليلًا، يحمل في أضعافه أريج زنبق الوادي يرسله في فضاء الحجرة، فيملأ الأنفاس، وينعش الروح.

يا ألله! ما أروع تلك الصورة، وتلك المرأة الحسناء الفاتنة في مجلسها ذاك، كأنما القطعة الحية التي تتم بها الصورة.

نعم. لقد كانت في تلك الحجرة القطعة التي تجعل لذلك الجمال الأنيق حياة، وترد عليه معنًى وروحًا.

وكانت فالنتينا امرأة سمهرية القوام، لمّا تبلغ الثلاثين، ذات شعر فاحم، سمراء اللون، أشبه بصورة «مادونا» الساحرة، ولها عينان عميقتان ناعمتان رانيتان.

وكانت شفتاها الصفراوان مكتملتين ممتلئتين، أما كتفاها فمستويتان مستقيمتان، ويداها قد يصح أن توصفا بأنهما عريضتان قليلًا. ولكن على الرغم من كل ذلك، لا يستطيع من يراها وهي تتهادى في تلك الحجرة، متثنية من خصرها النحيل، منحنية تشم الأزاهر التي تحف بجدران الحجرة وفي صفوف متعددة في منافسها، وتلك الابتسامة الرائعة على شفتيها، أو منسقة طرائف من الخزف الصيني أو مسرعة تصلح جدائل شعرها الصقيل البراق أمام المرآة، وهي مغمضة عينيها النجلاوين نصف إغماضة –نعم لا يستطيع من يراها وهي كذلك، إلا أن يحكم بأنه لم يخلق الله مخلوقًا أبدع منها ولا أفتن ولا أكثر إغراء لألباب الناس بالجنون.

وعدا واثبًا إلى الحجرة وليد جميل جَعْد الشعر، يكاد يكون في الحول التاسع من عمره، ولكنه لم يلبث أن وقف جامدًا في مكانه إذ لمحها. وكان مرتديًا ثوبًا دانمركيًّا، عاري الساقين، مزينًا مجملًا عابقًا متأرجًا.

فقالت فالنتينا تسأل صبيها بصوت أنعم من خديها: «ماذا تريد يا كوليا؟».

فأجاب الصبي مضطربًا متلعثمًا: «مَامَا، لقد أرسلتني عمتي لكي أحضر لها زنبق الوادي لتجمل به حجرتها... فليس لديها منه شيء...».

فوضعت فالنتينا يدها تحت ذقن الطفل، ورفعت الرأس المتأرج المنظم الجدائل وأجابت: «قل لعمتك إنه أولى بها أن تبعث إلى البستاني يحمل لها ما تريد من الأزاهر. أما هذه فهي لي خاصة ولا أريد أن تُمس. قل لها إنني لا أريد أن أفسد نظام حجرتي. فهل تستطيع أن تعيد على مسمعي ما قلته لك؟».

فهمس الطفل يقول: «نعم أستطيع».

فقالت أمه: «إذَنْ أعد ما قلت».

فأجاب الصبي: «سأقول لها... سأقول... إنك... إنك لا تريدين...».

ولم يزد على ذلك شيئًا.

فضحكت أمه، وكانت ضحكتها أيضًا ناعمة.

قالت: «أرى أنه لا يستطيع الإنسان إلى الآن أن يحملك رسائل، ولكن لا بأس قل لها أي شيء تريد».

فقبل الصبي خد أمه بسرعة، وخرج عاديًا لا يلوي على شيء.

فأتبعته فالنتينا نظرها، ثم تنهدت ومشت إلى قفص ذهبي الأسلاك، وقد وقف في ناحية منه ببغاء أخضر يخرج منقاره من فرجة بين سلكين، فداعبته قليلًا بطرف أنملتها، ثم جلست فوق متكأ، والتقطت عددًا من مجلة العالميْن، وكانت موضوعة فوق مائدة مستديرة بديعة النقش وراحت تقلب الصفحات.

وسمعت إنسانًا يسعل سعلة في أدب، فالتفتت، وإذا بخادم وسيم في ثوب نظيف وربطة عنق بيضاء قد وقف بالباب.

فقالت بصوتها الناعم: «ماذا تريد يا أجافون؟».

فأجاب الخادم: «قد حضر يا مولاتي سيميون كولومتزف. فهل أتقدمه إلى الحجرة».

فقالت فالنتينا: «بلا ريب. وقل لماريانا أن تحضر إلى حجرة الاستقبال».

وألقت مجلة العالمين على المائدة، ورفعت عينيها كأنما لتفكر، وكانت هيئتها، وهي على هذه الحال، تذهب بالألباب.

ومن ذلك المظهر الذي دخل به سيميون كولومتزف، وهو رجل في الثانية والثلاثين، ومن ذلك التهلل الذي بدا في معارف وجهه، ومن انحناءته إلى جنب، واستواء قامته بكل أدب، ومن اللهجة التي تكلم بها، لهجة بين الخشونة وبين الرقة، ومن الطريقة التي قبّل بها يد فالنتينا، يدرك الإنسان أن هذا الزائر لم يكن رجلًا من أغنياء الولايات، رجلًا سريًّا من عامة السراة، بل نبيلًا من سادة سان بطرسبرج، ونجمًا من الأنجم الزهر في المجتمع الراقي المهذب.

وكان متجملًا بأحدث الأزياء الإنجليزية، وقد أطل من الجيب الذي فوق صدره جانب من منديل بديع حريريّ، وتدلت زجاجة منظار واحدة من شريط أسود، والقفازة تلمع في يده، ملتئمة مع ظهارة سترته.

وكان حليقًا على أسلوب من الحلاقة طريف، وكانت تقاطيع وجهه أقرب إلى النسائية منها إلى تقاطيع رجل، فعينان نجلاوان متقاربتان، وأنف أقنى صغير دقيق، وشفتان بلون الأرجوان، تنمان عن ذوق رجل من الأشراف سامي الأدب.

وكان هو الطرب والتهلل بكل مادتهما، ولكنه كان سريع الانقلاب، حتى ليتمادى به غضبه إذا غضب إلى حد العامية ولغة السوقة، إن تجاسر أحد على تكدير مزاجه أو معارضته في مبادئه الدينية أو السياسية أو في عقيدته الوطنية، وإنه ليرتد حيوانًا لا رحمة في فؤاده خشنًا لا رقة لديه، وإن أناقته لتختفي متطايرةً كالدخان، وتتخذ عيناه منظر القسوة والوحشية وتفيض من شفتيه الجميلتين أشنع ما في السوق من كلم، وأقبح ما في المعاجم من ألفاظ، وكان يغلب الناس في المحاجة، ويقهر خصومه في الجدل بالفزع إلى السلطة ورجال الحكومة.

وكانت أسرته قِدْمًا بستانين لا أكثر ولا أقل، ولكن كولومتزف عد نفسه أخيرًا رجلًا أرستقراطيًّا مدعيًا أنه انحدر من سلالة البارون فون جالنمير، الذي كان فيلد مارشال في حرب الثلاثين، وكان

سيميون يشتغل في مكتب الوزارة وقد منعته وطنيته أن يسلك نفسه في السفارات، إذ أبى أن يغادر وطنه ويرحل عن روسيته الجميلة، وما ذلك إلا لأنه كان وسيمًا عليمًا بالعالم خبيرًا بالدنيا في نظر نفسه، ناجحًا مع النساء، فكان يقول دائمًا بالفرنسية: «أمثلي يغادر روسيا؟! أبدًا مطلقًا لن يكون ذلك وأنا حيّ».

وكان كولومتزف غنيًّا، وكان له صحاب عديدون من أهل النفوذ وهم يعدونه فتى يركن إليه، وإنما كان في نظرهم «متطرفًا في أرستقراطيته»، كما قال عنه يومًا البرنس ب، وناهيك بالبرنس ب وسلطانه في الدوائر الكبيرة في سان بطرسبرج وندواتها.

وقد جاء كولومتزف إلى الريف ليقضي إجازة شهرين في تفقد مزارعه، وما هو في نظره إلّا إرهاق الفلاحين وتعذيبهم قليلًا، حتى لقد اعتاد أن يقول: «لا يستطيع الإنسان أن يَسْلك معهم إلا بهذه الطريقة!».

قال وهو يرفع رِجْلًا فوق رجل ثم ينزلها: «كنت أظن أن زوجك لا بد أن يكون قد وصل منذ مدة».

فقالت فالنتينا بحركة غريبة: «هلا كنت جئت في وقت آخر».

فتراجع كولومتزف إلى الوراء، وقد أزعجته هذه الكلمة، وصاح: «كيف تقولين كلمة كهذه يا فالنتينا؟».

فقالت: «ما علينا. اجلس خذ مكانك، فسيكون زوجي هنا بعد قليل، وقد أرسلت المركبة إلى المحطة؛ لكي تقله. فلو انتظرت قليلًا، جزيت على صبرك برؤيته... كم الساعة الآن؟».

فأخرج كولومتزف ساعة ذهبية كبيرة الحجم جميلة النقش من جيب صداره، فأراها لفالنتينا قائلًا: «منتصف الثالثة مساءً. هل رأيت هذه الساعة قبل الآن؟ هذه هدية من ميشل الأمير الصربي، انظري ها هي الأحرف الأولى من اسمه، فنحن صديقان على أحسن الود وطالما خرجنا للقنص معًا... إنه لرجل عظيم وله يد حديدية في الإدارة، وتلك أكبر مزايا الرجل الحكوميّ ذي النفوذ، فهو لا يسمح لنفسه يومًا بأن يهزأ الناس منه. كلا. حاشا له أن يكون كذلك».

وجلس كولومتزف في مسند طويل، ووضع رِجلًا فوق رِجل، وبدأ ينزع قفازة يده اليسرى ومضى يقول: «ما أحوجنا نحن إلى رجل قدير كهذا في هذه الولاية».

فقالت فالنتينا: «ولماذا؟ ألست راضيًا عن الحالة هنا؟».

فطوّل كولومتزف في وجهه وأجاب:

«نعم. مجلس الولاية الملعون الكريه. فأي فائدة منه ليت شعري وأي جدْوى. ليسَ منه إلا إضعاف لجانب الحكومة. وإغرار للشعب بالتفكير في منحى الضلال والخطأ البعيد. ولقد ذكرت ذلك قبل اليوم في سان بطرسبرج، ولكن لهم اللعنة لم يكن أحد ليستمع لي، حتى زوجك كذلك. ولكنه مع ذلك مشهور بآرائه الحرة الجديدة».

فاستوت فالنتينا في مجلسها، وقالت:

«ماذا أسمع؟ أنت تعارض الحكومة يا مسيو كولومتزف».

فقال كولومتزف: «أنا... مطلقًا أبدًا... ما هذه الفكرة؟ ولكني رجل صريح في قولي! ولذلك اسمح لنفسي من حين إلى آخر أن أنتقد قليلًا. ولكني أبدًا طائع مطيع».

فأجابت فالنتينا: «وأما أنا فعلى العكس منك، لا أنثني عن النقد، ولن أطيع».

فقال كولومتزف: «لك الله، يا لها من كلمة كبيرة... ألا اسمحي لي أن أعيدها على مسمع صديقي لاديسلاس، فهو كما تعلمين آخذ الآن في وضع رواية اجتماعية، وقد قرأ عليّ شيئًا منها. شيء بديع... بديع للغاية... ولن نلبث أن نرى العالم المذهب النبيل من الروس مرسومًا بريشة مصور ماهر».

قالت فالنتينا: «وأين ستنشر تلك الرواية؟».

فأجاب كولومتزف: «في مجلة الرسول الروسي بلا ريب، فتلك مجلة العالمين لدينا، وها أنا أرى هذه المجلة ملقاةً على المائدة».

قالت فالنتينا: «نعم. ولكني أظنها قد أصبحت ثقيلة الظل في هذه الأيام».

فأجاب كولومتزف: «ربما. ربما. وكذلك مجلة الرسول الروسي؛ فقد أسَفّت في الأيام الأخيرة قليلًا، وأصبحت تستعمل أساليب سوقية في أبحاثها التي تنشر على صفحاتها».

وضحك كولومتزف؛ إذ سره أن وصف المجلة بقوله: «أسفت!».

واستطرد يقول بالفرنسية، ثم ينثني عنها إلى الروسية، شأن أهل الطبقة العالية: «ولكنها مجلة تحترم نفسها، وهذا ما يهمنا من أمرها. وإنني ليحزنني أن أقول إنني في هذه الأيام قليل الاحتفال

بالأدب الروسي فقد أضحى عاميًّا بشكل شنيع. إذ أصبح بطل الرواية طاهيًا! نعم طباخًا صرفًا لا أقل ولا أكثر، ولكني سأقرأ رواية لاديسلاس من غير شك، فإنه يكتب عن خبرة، ويرمي بقصصه إلى غرض من الأغراض، وسيحطم العدميين، ويديل دولة الفوضويين، وأنا معه في آرائه؛ فإن آراءه؛ تمام لا غبار للكذب عليها».

فقالت فالنتينا ملاحظة عليه: «هذا ما يكفر له عنْ ماضيه».

فأجاب كولومتزف: «آهِ. لِنسدل ستارًا على الأغلاط التي ارتكبها في شبيبته».

ونزع القفازة من يده الأخرى، فأغمضت فالنتينا عينيها الساحرتين نصف إغماضة، ورنت إليه دلالًا، وعن خلاعة.

قالت: «سيميون، لماذا تستعمل كل هذه الألفاظ الفرنسية عندما تتكلم بلغتنا الروسية؟ فإنني يخيلُ إليَّ أن تلك «موضة» قد ذهب عصرها، إن سمحت لي أن أقول ذلك».

فأجاب كولومتزف: «ولكن يا سيدتي العزيزة، ليس كل إنسان منا قد ملك مثلك ناصية لغة بلادنا؛ إن في نفسي احترامًا شديدًا للغة الروسية. فليس في العالم لغة مثلها في فخامتها وألفاظ الأمر والنهي فيها، وهي أصلح اللغات للتعبير عن سلطان الحكومة ونفوذها. وإني لأود أن تظل لا تشوبها شائبة من اللغات الأخرى، ولكن ليت شعري كيف يستطيع الإنسان منا أن يستخدم الروسية في أحاديثه الاعتيادية».

فضحكت فالنتينا وقالت: «أخشى أن لا تستطيع إقناعي. أنني لأعجب أين ذهبت ماريانا».

ودقت الجرس، فدخل أحد الخدم.

قالت تخاطبه: «لقد طلبت أن تحضر ماريانا إلينا. ألم ينبؤوها عن ذلك».

وقبل أن يتمكن الخادم من الإجابة، ظهرت خلفه عند الباب فتاة في عنفوان الشباب، وهي في ثوب مهفهف أسود اللون، وقد قصّت قليلًا من فروع شعرها.

هذه ماريانا، ابنة أخت سبياجين.

* * *

قالت ماريانا وهي تدنو من ربة البيت: «آسفة يا عزيزتي فالنتينا، فقد كنت في شغل، ولم أتمكن من الحضور توًّا».

وأحنت رأسها لكولومتزف، وتراجعت إلى مكان قصي من الحجرة، فاتخذت لها هناك مجلسًا بجانب الببغاء، وقد راح يرفرف بجناحيه إذ رآها.

فقالت فالنتينا: «لماذا انتبذت هذا المكان البعيد يا ماريانا، أتريدين أن تكوني قريبة من صديقك الصغير؟».

ثم التفتت إلى كولومتزف وقالت:

«ألا تصور لنفسك يا مستر سيميون، لقد وقع هذا الببغاء في حب ماريانا».

قال كولومتزف: «لا أدهش لذلك».

فأجابت فالنتينا: «ولكنه بجانب هذا لا يطيقني».

قال: «لعلك تضايقينه».

فأجابت فالنتينا: «مطلقًا. لا أعاكسه ألبتة. بل بالعكس لا أفتأ أقدم إليه السكر. ولكنه لا يتقبل شيئًا من يدي. يظهر إنها مسألة عواطف وكره».

فرمقتها ماريانا بنظرة حادة، فنظرت إليها فالنتينا كذلك.

وكانت المرأتان لا تحبان بعضهما بعضًا...

ولكن ماريانا إذا قورنت بفالنتينا، عُدّت غير حسناء، وراحت غير وسيمة.

لقد كان لها وجه عريض وأنف طويل وعينان نجلاوان سوداوان براقتان وحاجبان جميلان بديعا الرسم وشفتان رقيقتان.

وكانت قد قصت جدائل شعرها الأسود الوّحْف الجثل الغزير، ولكن كان يلوح على شخصيتها أدلة القوة والجرأة وثورة العاطفة.

لها يدان رقيقتان، ورِجْلان في مثل تلك الرقة، وبدن صغير حلو متناسب يذكر الإنسان بتمثال دُمية فلورانسيه من دُمَى القرن السادس عشر.

أما مشيتها وحركاتها، فالجمال والحسن والروعة.

وكان مركز ماريانا في دار سبياجين حرجًا. كان أبوها رجلًا بديعًا بولوني الأصل، بلغ مرتبة الجنرال، ولكن لم يلبثوا إذ ذاك أن اكتشفوا سر جريمة ارتكبها، وهي تبديد أموال طائلة للحكومة، فحُوكم وأُدين وجُرد من رتبته وشرفه ونبله ونُفي إلى سيبيريا، ثم قضى دهرًا في المنفى، فعُفي عنه، وأُطلق سراحه، ولكن أي سراح بعد ذلك وأي حرية مُنح، فلقد تحطم تحت تلك النكبة، فلم يستطع أن يبدأ الحياة من جديد، فمات في الفقر المدقع، ولم تعش زوجته وهي أخت سبياجين بعد تلك الصدمة، ولم تحتمل تلك المعرة طويلًا. ولم تستطع أن تضطلع بخطب وفاة زوجها، فماتت على أثره.

فكفل الخال سبياجين لابنة أخته الوحيدة ماريانا البيت والمأوى...

وكانت الفتاة ماريانا تكره عيشة العَيْلة، ويضنيها أن يعولها في الناس مخلوق، فصبت للحرية بكل ذات نفسها.

وكانت بينها وبين زوجة خالها معركة خفية ناشبة محتدمة في صمت، يشعر كل منهما بها، ولا يستطيع أن يذكر كلمة عنها.

وكانت فالنتينا تنظر إليها نظرة المرأة الحسناء إلى فتاة ثورية طليقة الفكر، متخلصة الروح من الجمود، وكانت ماريانا تحتقر زوجة خالها، وترى فيها المرأة الغاشمة الطاغية.

وكانت ماريانا تميل إلى اعتزال خالها والابتعاد عنه، والانزواء عن أهل الدار جميعًا، ولكن لم يكن ذلك منها عن خشية في نفسها وخوف منهم؛ لأنها لم تكن بطبيعتها صبية منزوية الفؤاد.

وعاد كولومتزف يقول «ما أغرب شأن هذه الحالة النفسانية التي نسميها الكراهية؛ فالناس جميعًا يعرفون عني تديني وعمق إيماني وتمسكي بشعائر الدين التمسك كله، ولكن رؤية قسيس مرسل الفروع سبط الشعر يثير جنوني، ويردني عاصفًا أهوج مخيفًا. إن منظره يجعلني أغلي من الغضب».

فقالت ماريانا: «إنني أعتقد يا مستر سيميون كولومتزف أن للشعر بجميع أنواعه وضروب فروعه وذوائبه تأثيرًا سيئًا في نفسك يهتاجك ويغضبك، وأكبر ظني أنك لا تطيق أن ترى الشعر مقصوصًا كشعري هذا».

فرفعت فالنتينا حاجبها في رفق، ثم أطرقت برأسها كأنها في دهشة وعجب لهذه الحرية التي تتكلم بها فتيات العصر وبناته مع الشبان والرجال.

وابتسم كولومتزف ابتسامة المتنزل عن عليائه وقال: «بلا ريب. إن الحزن ليتملك مني الفؤاد إذ أرى جدائل حسناء فاتنة كجدائل شعرك هاوية ساقطة تحت حدّي مقص لا رحمة لديه ولا رفق، ولكن منظره لا يغضبني ولا يثير كراهيتي. بل إن هذا الأسلوب الجديد في قص الجدائل قد يغير عقيدتي!».

وقالت فالنتينا: «حمدًا لله إذ لم تعمد ماريانا كذلك إلى وضع المناظير فوق عينيها ولبس الياقات، ولكن لسوء الحظ تراها اليوم تدرس التاريخ الطبيعي، وتشتغل بمسألة المرأة. أليس الأمر كذلك يا ماريانا؟».

وقد فاهت فالنتينا بذلك لتغضب ماريانا وتغيظها، ولكن الفتاة لم تغضب ولم تتألم. بل أجابت: «نعم، يا خالتي، فأنا لا أفتأ أقرأ أي شيء يقع في يدي عن هذا الموضوع؛ لأنني أريد أن أدرس مسألة المرأة أتم الدرس».

فالتفتت فالنتينا إلى كولومتزف وقالت: «هاك شباب روسيا يا عزيزي كولومتزف. أما أنا وأنت فنحن لا نشغل أنفسنا بأمثال هذه المواضيع. أليس كذلك؟».

فابتسم كولومتزف ابتسامة اللطف والسماحة، وعمد إلى إطاعة ربة الدار والانسياق مع دعابتها فقال: «إن ذهن ماريانا مفعم بخواطر الشباب. بتلك الأمثلة العليا التي توقد النفوس الفتية، ولكن بمرور الزمن...».

فقاطعته فالنتينا قائلة: «يا ألله! إنني ظالمة لنفسي إذ قلت ما قلت لأنني أهتم بهذه المسائل أنا أيضًا، إذ لم أصبح بعد امرأة عجوزًا».

فأجاب كولومتزف في عجلة: «بالتأكيد، وأنا أيضًا كذلك، نوعًا ما، وإنما الفرق بيني وبينكما في ذلك، أنني لا أسمح بأن يتحدث الناس جهارًا في المجالس عن هذه الشؤون».

فقالت ماريانا في لهجة الدهشة: «أتقول لا تسمح بأن يتحدث عنها الناس؟».

فأجاب: «نعم. إنني لأقول لهم: انصرفوا إلى التفكير في هذه الشؤون، فلكم من ذلك ما تريدون. وأما أنْ تتكلموا علانية عنها... فليس عندي لكم إلا كلمة واحدة...

وهي.. صه...».

ووضع إصبعًا فوق شفتيه.

واسترسل في حديثه يقول: «نعم. إنني لا آذن للصحف بأن تتكلم عنها».

فضحكت فالنتينا وصاحت به: «ماذا تقول. أتريد أن تؤلّف لجنةً من الوزراء لتسوية هذه المسائل».

فأجاب كولومتزف: «ولِمَ لا؟ ألا ترين أننا أقدر على حلها نحن الكبار، من أولئك السوقة المتبطلين الأفّاقين الجياع المفاليك الجهلاء، الذين لا يعرفون شيئًا ويحسبون أنفسهم أهل النبوغ والعبقرية وسادة الذكاء. فلو أننا فعلنا ذلك أو انتوينا فعله، لكان خليقًا بنا أن نُعَين زوجك سبياجين رئيسًا لنا».

فضحكت فالنتينا ضحكة عالية، وقالت: «خير لكم إن فعلتم أن تحذروه، فإن سبياجين من الأحرار الثوريين أشبه باليعقوبيين في الثورة الفرنسية».

وإذ ذاك مضى الببغاء يصيح: «يعقوب.... يعقوب!».

فلوَحت فالنتينا بمنديلها صوبه وصرخت فيه قائلة: «لا تقطع علينا حديثًا شائقًا اجتماعيًّا خطيرًا... ماريانا. هّلا علمته الأدب!!».

فألقت ماريانا نظرةً إلى الببغاء فوجم وخرس، وتولت هي عابسة من هذه السخرية الأليمة.

واستمرت فالنتينا تقول: «نعم. إنني لأراك في دهشة من سبياجين فإن في خلقه عنصرًا غريبًا، عنصرًا من خلق القضاة الرومان، والنواب في تلك الدولة».

فأجاب كولومتزف بحماسة باللغة الفرنسية: «ذلك لأنه خطيب، مفتنّ بديع تفعل ألفاظه بالألباب. وهو يعمل على أن يصيب من الشعب حبه ومن الجماهير ميلهم. وعلى ذكر ذلك أخشى أن يكون اليوم ملولًا سائم النفس. أليس كذلك؟».

فنظرت فالنتينا إلى ماريانا، وقالت بعد تمهل: «لم ألحظ ذلك عليه».

فاستطرد كولومتزف يقول: «نعم. فقد افتقدناه يوم عيد الفصح فلم نره».

فغمزت له فالنتينا بعينها صوب ماريانا.

فابتسم كولومتزف، وأغمض عينيه ليشير إليها بأنه قد أدرك المعنى. ونظر ناحية ماريانا، ثم قال بصوت جهير: «ماريانا. هل في النية أن تعطي دروسًا في المدرسة هذا العام أيضًا؟».

فولّت ماريانا ظهرها إلى القفص وواجهته قائلة: «هل يهمك أنت أن تعرف ذلك؟».

فأجاب: «نعم. بلا ريب. يهمني كثيرًا».

فقالت: «ألا تسمح بذلك أيضًا؟».

قال مغضبًا: «نعم. لا أسمح للعدميين الفوضويين أن يولوا وجوههم شطر المدارس؛ فإنني أحب أن تكون المدارس كلها في أيدي أهل الكنيسة، ولا يمنعني شيء من أن أُنشئ أنا أيضًا للعلم معهدًا، وأن أقوم على رقابته».

فقالت ماريانا: «في الحق إنني لا أدري ما أنا صانعة في هذا العام. فقد سارت الأمور في العام المنصرم على غير ما أحب، ولم تصب نجاحًا، وأما العام الذي نحن فيه، فلا أدري كيف السبيل إلى إنشاء مدرسة وإقامة معهد».

واحمرت وجنتها حياء وهي تتكلم، وصبغ الخجل خدها الأثيل، كأنما كانت تغالب نفسها وتشعر من قولها ذاك بألم شديد.

وقالت فالنتينا: «ألم تُعدِّي لذلك العدة كلها؟!».

فأجابت ماريانا: «لم أفعل إلى الآن».

فصاح كولومتزف عجبًا ودهشة: «يا إله السماوات! ماذا أسمع؟! لي الله والملائكة. هل هناك ضرورة لإعداد المعدات وأنت تريدين أن تعلمي أولئك الفلاحين الأجلاف حروف الهجاء».

وفي تلك اللحظة أقبل الصبي كوليا على آخر أنفاسه يصيح: «ماما.. ماما. بابا حضر!».

وجاءت في أثره سيدة شمطاء تدرج متثاقلة تحت ساقين ضعيفتين، فأمنت على قول الصبيّ.

وكانت تلك السيدة عمة سبياجين واسمها: «حنة زهروفنا».

فلما سمع الجلوس هذا الخبر هرع الجميع إلى الردهة، وأسرعوا يهبطون السلم بعضهم في إثر بعض، ومشوا إلى سلم السقيفة، ثم انثنوا في ذلك الممشى الطويل في بهرة الحديقة وهو يشق

البستان نصفين إلى الباب الخارجي.

وللحال رأوا مركبة تجرها أربعة من الصافنات مقبلة هادئة تشق ذلك الممشى إلى السقيفة.

ووقفت فالنتينا متقدمة الجميع وهي تلوّح بمنديلها، وراح كوليا يصيح صيحات الفرح.

وأوقف السائق الجياد المطهمة القوية الثائرة، بمهارة أمام السقيفة، ووثب من جانب الحوذيّ ساع شاب في ثوب جميل، فأسرع نحو باب المركبة فشده بعنف، كأنما يريد أن يخلعه من مكانه.

وإذ ذاك خرج من المركبة سبياجين والابتسامة على شفتيه، ودلائل السرور على محياه، وفي برقة عينيه.

فألقت فالنتينا ذراعيها بحركة ساحرة حول عنقه، فتعانق الزوجان، وتحاضنا وتبادلا ثلاث قبلات.

وجعل كوليا يضرب الأرض بقدمه، ويتعلق بذيل سترة أبيه من خلف.

ولكن سبياجين لثم عمته أولًا، ثم حيا ماريانا وكولومتزف، إذ شد على يده على الطريقة الإنجليزية البحتة، وانثنى بعد ذلك لطفله فحمله من تحت إبطيه وقبّله.

وبينا كان هذا المشهد في أشد حرارته، هبط نجدانوف متعثرًا منزويًا منكمشًا في جلده، من المركبة، ووقف بجانب عجلات المقدمة.

وكانت فالنتينا وهي في أحضان زوجها قد ألقت نظرة نافذة بعيدة المرمى من فوق كتف زوجها إلى هذا الإنسان الجديد.

وكان سبياجين قد أخبرها من قبل أنه سيحضر معه معلمًا لطفله..

ومضى الجميع يتبادلون التحيات وشد الأيدي، والتصافح والابتسام. وهم يتقدمون صاعدين مدارج السلم، وقد اصطف وصائف القصر وخدمه على الجانبين منه، ولم يكن وقوفهم لتقبيل يد السيد العظيم، فقد كانت تلك عادة شرقية قديمة طال العهد على تركها، بل جاؤوا ليحيوا رب القصر بإحناء رؤوسهم له بكل احترام، ومضى سبياجين يجيب على تحياتهم تلك بحركة خفيفة من أنفه وحاجبيه، دون هز الرأس.

ومشى نجدانوف في أثر هؤلاء السادة، صاعدًا وراءهم سلمًا فسلمًا.

فلما بلغ الجميع الردهة، وقف سبياجين، وكان قد دار بعينه باحثًا عن نجدانوف في وسط الجمع، فلما رآه في الساقة، دنا منه وقدمه إلى زوجته، ثم إلى العجوز حنة زهروفنا ثم لماريانا، وقال لكوليا: «هذا هو معلمك. فاعمل على إطاعته، وافعل كما يأمرك، والآن قدم إليه يدك مسلمًا عليه».

فمد الصبي يده خائفًا، وحملق البصر إلى نجدانوف مرتعبًا، ولما لم يجد شيئًا يروعه من وجه هذا المعلم الجديد، التفت إلى أبيه فتشبث بثوبه.

وتولى نجدانوف القلق والجزع كما حدث له في دار التمثيل.

وكان في ثوب قديم، وقد علا الغبار محياه ويديه من أثر وعثاء السفر.

فقالت فالنتينا كلمات مؤدبة مشجعة تخاطبه، ولكنه لم يلتقط الألفاظ من شدة اضطرابه ولم يجب.

وتبين له أنها كانت متهللة وأنها متعلقة بزوجها كل التعلق، ولم يعجبه ما رأى من بزة الصبي كوليا وعقص جدائله، والأريج المنبعث من شعره.

وحانت منه التفاتة إلى كولومتزف، وللحال راح يقول لنفسه: «يا له من رجل مؤدب مشرق».

ولم يعر الباقين أي التفاتة.

وجعل سبياجين يدير عينيه ذات اليمن وذات الشمال، كأنما يتفقد خاصة أهل بيته، ثم لم يلبث أن صاح على أحد الخدم بصوته المتردد الصدى، الضخم الأجش قائلًا: «إيفان. خذ هذا السيد إلى الحجرة الخضراء، ثم احمل إليه الأمتعة بعد ذلك».

ثم التفت ناحية نجدانوف، وقال له إنه مستطيع أن يغير ثيابه ويصلح من شأنه، ويستريح قليلًا، وأن الطعام سيكون في الساعة الخامسة.

فانحنى نجدانوف محييًا، وتبع إيفان إلى الحجرة «الخضراء»، وكانت في الطابق الثاني.

ومضى الجمع، وهم كالهالة، ورب الدار، كالقمر، إلى حجرة الاستقبال وعادت التحيات أحرّ من قبل.

وجاءت امرأة عجوز عمياء من خدمة القصر، تحيى رب البيت، فقدم إليها سبياجين يده لتقبلها تعطفًا منه واحترامًا لشيخوختها.

وإذ ذاك اعتذر لكولومتزف عن حاجته إلى ترك الحجرة برهة صغيرة، ومضى إلى حجرته الخاصة، تمشي في أثره زوجته.

* * *

وكانت الحجرة التي تقدم الخادم «إيفان» نجدانوف إليها، أنيقة مزدانة رحيبة لها شرفات تطل على الحديقة.

وصرف نجدانوف الخادم، ونشر جعبة أمتعته، فابترد وغيّر أثوابه.

وكانت الرحلة قد أنهكت قواه وزاد في اضطراب أعصابه غرابة البيئة التي انتقل إليها.

وكان في غضب من نفسه، لحيائه، وتقدم إلى الشرفة وأطل على الحديقة.

وكانت الحديقة على الطراز القديم في الحدائق، خصيبة التربة، مقسومة أقسامًا أربعة، منثورة فوق رابية، منتشرة على منحدر، وقبالة القصر كانت حديقة أزهار تشقها دروب قد فرشت بالحصى اللامع، وطالت على جوانبها السرحات الفارعة، واستدارت حولها دوائر الزهر، وحلقات الزنبق والرياحين.

وعن الشمال بستان فاكهة امتلأ تفاحًا، وأعنابًا، وخوخًا وفواكه طيبة.

وبجانب حديقة الزهر امتد ممشى طويل متسع مشجر.

وكانت الحديقة قد اكتست أول ثياب الربيع ومطالع نضرته، ولم يكن يسمع طنين تلك الحشرات التي تنمو في الحدائق، إذا الصيف حلّ.

أما حفيف الأشجار فكان خفيفًا رقيقًا لا عصفًا، ولا شديدًا. وراحت يمامات تتنزى فوق الشجر، وحمائم تتغزل في سكون.

فوقف نجدانوف ينظر ويسمع، يشرب ذلك الهواء السجسج الرطب العليل. وقد فتح شفتيه نصف فتحة.

ولم يلبث أن ذهب عنه الحزن، ومضى عنه انقباض الصدر، وسرت إلى روحه السكينة والهدوء.

وفي تلك اللحظة التي كان واقفًا فيها كذلك، كان سبياجين وزوجه يتكلمان عنه في حجرة النوم، وكان الرجل آخذًا في شرح كيفية لقائه به وما قاله عنه البرنس ج... وما سمعه من الأحاديث في شقة الطريق.

ومضى يقول ويعيد ويكرر «فتى نشيط ذكيّ، مؤدب، ولا أنكر أنه ثوريّ. ولكن ما لنا ولهذا. إن هؤلاء الناس على كل حال أهل مطامح، وأما عن تعليمه كوليا فإن الصبي لا يزال صغيرًا، فلا يُخشى عليه من تلك المبادئ السخيفة الفارغة الطائشة».

وكانت فالنتينا تسمع إلى حديث زوجها وهي مبتسمة ابتسامًا حلوًا ساحرًا، كأنما كان يحدثها عن حيوان صغير مشاكس شموس.

وكان يسرها أن ترى زوجها ومولاها رجلًا كبير المكانة، عظيمًا في الحياة، ثم لا يزال كذلك جميلًا مداعبًا ملاطفًا كفتى في العشرين.

وكان سبياجين واقفًا أمام المرأة ينظم شعره بفرشتين على الطريقة الإنجليزية. بينا كانت فالنتينا جالسة جلسة تركية فوق متكأ في الحجرة، تصب في مسمعيه أنباء عدة وأخبارًا مستطيلة عن القصر وأهله وخدمه ومصنع الورق، وكان المصنع كذلك في حالة سيئة، وعن رأيها في تغيير الطباخ واستبداله بطهاة أمهر منه، وعن الكنيسة وأحوالها والطلاء الذي سقط عن جدرانها، وعن ماريانا وعن كولومتزف.... وما إلى تلك كلها.

وكان الزوجان على أحب وفاق، وأتم ثقة وإيمان بالحب، فكانا يعيشان في ظلال المحبة والوفاق، كما كان أهل العصر القديم يقولون كلما رأوا زوجين سعيدين.

فلما انتهى سبياجين من زينته، سألها في لهجة الفروسية القديمة أن تعطيه يدها، فمدت هي إليه يديها معًا، ووقفت تنظر إليه مزهوة بنفسها وهو يقبل يدًا ويرخي يدًا. وكان منظر عينيها وهما يرنوان إليه خليقًا بريشة مصور كروفاييل.

ودقت الساعة خمسًا، فنزل نجدانوف إلى حجرة المائدة، وأعلن الناقوس أن الطعام قد أعد للطاعمين.

فلما دخل نجدانوف الحجرة، رأى الجميع قد اصطفوا فيها.

فرحب به سبياجين، وأشار إليه بالجلوس في مقعد بين العجوز حنة وبين الفتى كوليا، وحنة هذه كما قدمنا عمة لسبياجين عانس تعبق منها رائحة الكافور، أشبه شيء بثوب ظل مخزونًا في جعبة الثياب دهرًا طويلًا، ثم نشر بعد ذلك في الهواء.

وكانت لتلك العانس الشمطاء نظرات حزينة عصبية متشنجة، وقد أدت في البيت عمل المربية لكوليا المؤدبة، وقد علا وجهها التجهم والعبوس عندما رأت نجدانوف يجلس بينها وبين صغيرها الذي أدبته.

وجعل كوليا ينظر إليه بطرف عينه خلسة، فلم يلبث ذلك الصبي الذكي أن يتبين حياء معلمه وقلقه، ورآه لم يرفع عينيه ولم يمد إلى الطعام يده.

وسر الصبي ما رآه من معلمه، إذ كان من قبل يخشى أن يكون المعلم الذي جاؤوا به خشنًا غليظ القلب.

وجعلت فالنتينا كذلك تراقب الفتى وهي تقول لنفسها: «إنه يلوح أشبه شيء بطلبة المدارس. فلم يألف المجتمع بعد، ولم يعتد الجلوس إليه. ولكنَّ له وجهًا جميلًا، ولشعره ذلك اللوْن الذي كان لشعر الرسول، وكان المصور الإيطالي الخالد يرسمه أحمر، ثم إن له يدين نظيفتين!».

ومضى الجميع يرمقون نجدانوف بنظراتهم. ولكن لم يلبثوا أن أشفقوا عليه، فتركوه لنفسه في سلام.

وتبين هو ذلك منهم، فسره وأغضبه معًا أن يكون ذلك نصيبه منهم.

وكان سبياجين وكولومتزف يتحدثان، فتكلما عن مجلس الولاية وعن حاكمها، وعن الضريبة وابتياع الفلاحين للأرض، وعن معارفهم في موسكو، وأصحابهم في سان بطرسبرج.

فاسترسل كولومتزف يفوه بأشد المبادئ رجعية وجمودًا وانحطاطًا..

أما سبياجين فراح يصرح بمبادئه الجديدة المهذبة المتخلصة من الجمود، وينقض آراء كولومتزف في لهجة التأدب. ويدحض مبادئه في رفق. بل راح أخيرًا يداعبه ويسخر منه.

قال: «إن خوفك من التحرر يا عزيزي سيميون يذكرني بصديقنا أليكسي تفرتنوف والعريضة التي قدمها في عام 1860، وأصر يومذاك إلا أن تقرأ تلك الورقة، وتتلى في كل حجرة من حجرات الاستقبال في سان بطرسبرج، وكانت في تلك العريضة عبارة بليغة واحدة عن فلاحنا المسكين، إذ وصفه بقوله إنه سيمشي فوق هذه الأرض يحمل مشعلًا في يده. وقد جعل ذلك الكاتب يصيح في كل مجلس: «نعم. سيمشي والمشعل في يده»، والآن ها نحن نريد تحرير الفلاح من النير الذي ينوء تحته، ولكن أين ذلكم الفلاح الذي يحمل المشعل في يده؟!».

فقال كولومتزف: «لقد أخطأ صديقنا تفرتنوف بعض الخطأ، إذ لا ينبغي للفلاحين أن يمشوا والمشعل في أيديهم، بل ذلك واجب الآخرين».

وكان نجدانوف حتى هذه اللحظة لم ينتبه للفتاة ماريانا، فلما فاه كولومتزف بتلك الكلمات، نظر إليها وللحال رآها تبادله النظر، فتبين إذ ذاك أنها تشاركه في مبادئه، وأنها تعيش على تلك العقائد

التي يدين بها، وكان من قبل عندما عرفه سبياجين بها، لم يشعر بأي تأثير عميق من ناحيتها، ولكن ليت شعري لماذا بادلها هي النظرات خاصةً؟!.

وجعل يسائل نفسه ألم يكن من العار عليه أن يجلس يسمع تلك الآراء دون أن يحتج عليها أو يدحضها، وأن يجعل السامعين بسكوته هذا يشعرون أنه مشاركهم فيها آخذ بها مثلهم.

فنظر إلى ماريانا مرةً أخرى، فرأى عينيها كأنما تريدان أن تقولا له: «انتظر هنيهةً؛ فإن الوقت لم ينضج بعد، وليس هذا المجلس يستحق الاحتجاج، وإن استحق، فليس هذا أوانه. انتظر فإن هناك فرصًا أخرى خيرًا من هذه».

وشعر بالغبطة تملأ جوانحه إذ أدرك مرماها، وراح يستمع إلى حديث الرجلين مرةً أخرى.

وجعلت فالنتينا تؤيد زوجها في آرائه، بل لاحت من حديثها أشد تطرفًا في الرأي منه.

قالت: «لا أستطيع أن أفهم كيف تكون لفتى مهذب آراء قديمة كهذه! إنني أرى أنك إنما تقول هذه الكلمات لغرض المحاجة فقط».

ثم التفتت إلى نجدانوف فقالت: «وأنت يا أليكسي ديمترتش. إنني أعلم إنك لا تشارك سيميون في آرائه تلك، فقد أخبرني زوجي بالأحاديث التي دارت بينكما في الطريق».

ولشد ما كانت دهشة نجدانوف إذ سمع تلك الحسناء تفوه باسمه كاملًا واسم أبيه.

فصبغ الخجل وجه نجدانوف، ونظر في صحفة الطعام التي أمامه، وتمتم بكلمات لا تُفهم.

وظلت مدام سبياجين تبتسم له، وهز رب البيت رأسه هزة الرعاية والموافقة، وأما كولومتزف فرمق الشاب بنظرات حادة، ليرى من هذا المخلوق الذي يخالفه في آرائه. ولكن لم يكن مثل نجدانوف يخاف من هذه النظرات، بل جلس مستويًا في مقعده يرمق ذلك الموظف بعينه.

وكما شعر بأن ماريانا صاحبته في الرأي، أحس كذلك أن كولومتزف عدوّ له ولمبادئه.

وشعر كولومتزف هذا الشعور بعينه.

وإذ ذاك أزاح منظاره عن عينه، وأشاح بوجهه، وحاول أن يضحك ضحكة العابث الساخر، ولكن الضحكة لم تخرج متقنة كما أراد.

ولم يكن في الجلوس أحد يؤيد مذهبه غير العجوز حنة؛ إذ كانت تعبده عبادةً. ولذلك اشتد غضبها وحنقها على هذا الغريب الذي جاء فحال بينها وبين الصغير كوليا.

وانتهى الغداء، ومضى الجمع إلى السقيفة ليتناولوا القهوة، فأشعل سبياجين سيجارة، وفعل كولومتزف مثله.

وقدم سبياجين إلى نجدانوف سيجارة من نوع الريجاليا، ولكن نجدانوف استعفاه من قبولها.

فصاح سبياجين «آه. هذا صحيح. لقد نسيت أنكم إنما تدخنون سجائركم الخاصة بكم».

فتمتم كولومتزف بين ماضغيه قائلًا: «ذوق غريب!».

فكاد نجدانوف يصيح منفجرًا: «إنني أعرف الفرق بين الريجاليا والسيجارة جد المعرفة. ولكني لا أريد أن يكون لأحد فضل عليّ».

ولكنه تمالك نفسه وثاب إلى رشده، وأضاف هذه الكلمة التي فاه بها كولومتزف في ذاكراته دليلًا على قحته وبذائه.

وصاحت فالنتينا فجاءةً: «ماريانا، لا تتخذي الكلفة شعارًا مع صديقك الجديد. ألا أشعلي لفافتك إذا شئت».

وتمهلت لحظة، ثم التفتت إلى نجدانوف واستطردت تقول: «ولا سيما أنه بلغني أن الفتيات لديكم يُسمح لهن بالتدخين».

فأجاب نجدانوف بلهجة جافية خشنة: «نعم».

وكانت تلك أول لفظة خاطب بها مدام سبياجين.

واسترسلت السيدة في حديثها فقالت: «إنني لا أدخن. وأشعر أنني متأخرة في نظر العصر والجيل».

ورنت بعينها مبتسمة متدللة متثنية.

وأخرجت ماريانا في رفق وتؤدة لفافة من التبغ وعلبة من أعواد الثقاب وراحت تدخن، كأنما عن عمد وقصد لإغاظة فالنتينا ومعاندتها.

وتناول نجدانوف من ماريانا عودًا مشعلًا وبدأ هو الآخر يدخن...

وكان المساء جميلًا.

ومضت العجوز حنة والصبي كوليا إلى الحديقة، وبقي الآخرون جلوسًا في السقيفة يتنشقون نسائم ذلك المساء الصحو المزهر...

ولم يسهم نجدانوف في تلك الأحاديث التي كانت دائرة بين الرجلين.

وأخذت مدام سبياجين تراقبه، وهي تلوح راضية عن حيائه، ومندهشة في آن واحد.

وذهب الجميع إلى حجرة الاستقبال لتناول أقداح الشاي.

والتفت سبياجين إلى نجدانوف وقال: «لقد استسلمنا إلى عادة سيئة يا عزيزي أليكسي، وهي لعب الورق في المساء، ولهذا لا أريد أن أدعوك إلى التمكث معنا.

ولكن لعلّ ماريانا متفضلة بتوقيع أنغام على البيانو، وأكبر ظني أنك تحب الموسيقى».

وقبل أن يرتقب من نجدانوف جوابًا، تناول أوراق اللعب.

وجلست ماريانا إلى المعزف «البيانو»، وأجرت أناملها فوق قطعه موقعة أنغامًا من قطعة غنائية من وضع الموسيقار «مندلسون»، وصاح كولومتزف من أقصى الحجرة: «بديع. شيء ساحر». ولكن ذلك التشجيع لم يكن غير تأدب منه ومجاملة.

ولم يسر نجدانوف بالنغم ولم يطرب، وجلس سبياجين وزوجته وكولومتزف والعجوز حنة للعب الورق. وأقبل كوليا الصغير لتوديعة المساء، ومضى منصرفًا إلى فراشه.

فنادى أبوه عليه، وأخبره أن معلمه سيبدأ درسه الأول غداة غد..

ومضت برهة، فلاحظ سبياجين أن نجدانوف كان يتمشى في الحجرة لا غرض له، ملولًا لا يجد سرورًا، ولذلك سأله أن لا يطيع أحكام الكلفة، بل يأوي إلى حجرته إذا شاء؛ إذ لعله متعب من وعثاء السفر، وأن يتذكر أن الحرية شعار أهل البيت جميعًا.

فانتهز نجدانوف هذه الفرصة وحيا الجميع وانصرف.

ولدى الباب رأى ماريانا، فنظر إلى عينيها، واقتنع مرةً ثانيةً بأنهما لن يلبثا أن يتصادقا ويكونا صاحبين ودودين، وإن لم تظهر أي مسرة برؤيته إذا التقت به، بل بالعكس قطبت وعبست.

فلما دخل حجرته، كان الهواء العليل قد نفذ إلى الغرفة فملأ جوها إذ كانت الشرفة مفتوحة سحابة اليوم.

وفي الحديقة قبالة النافذة كان بلبل يغني.

فأشعل نجدانوف مصباحًا، فجعل ضوءه يخفق من تأثير الهواء.

ومضى يقول لنفسه وقد اضطجع في فراشه: «ما أغرب وأعجب أن يكون هؤلاء القوم أحرارًا في مبادئهم. ثم لا أزال أجدني قلقًا مضطرب الفؤاد. أما هذا الموظف الثقيل.... كولومتزف. ولكن لنترك هذا الثقيل الآن. فإن عين الصباح أدق وأبعد نظرًا من طرف الليل. ولا فائدة من أن ينقاد الإنسان إلى عواطفه».

وفي تلك الهنيهة سمع نجدانوف الحارس يصيح ضاربًا الأرض بعصاه:

«من القادم هناك؟...».

وسمع صوتًا آخر يقول: «حذار».

فقال نجدانوف لنفسه: «يا للسماء. ليخيل إليَّ أنني في سجن ملعون!».

***

وصحا من نومه مبكرًا فارتدى أثوابه، وذهب إلى الحديقة.

فهام على وجهه في منافسها حتى بلغ البحيرة.

وللحال حانت منه التفاتة فرأى سبياجين مثال النظام والبكور يمشى عن كثب منه.

وكان مرتديًا ثوبًا أسود وقبعة صغيرة متوكئًا على عصا، وعلى معارف وجهه ابتسامة الرضى، وكان يجول جولته طائفًا حول ضيعته مفتشًا مستعرضًا.

فحياه سبياجين تحية رقيقة، وهو يقول: «آه. أراك من الأطيار المبكرة في مطالع الصبح. إننا نتناول الشاي في الثامنة في قاعة الطعام، ونتناول طعام الفطور في الساعة الثانية عشرة. وإنني أود أن تلقي كوليا درسًا في النحو في الساعة العاشرة، وآخر في التاريخ في الثانية بعد الظهر، ولا أريد أن يتلقى الصغير دروسًا غدًا؛ فإنه عيد ميلاده. ولذلك خير لك البدء بالتدريس اليوم».

فأحنى نجدانوف رأسه، واستأذنه سبياجين ومضى في سبيله يصفر بشفتيه ويلوح بعصاه في الهواء، نشيطًا خفيف الحركة، لا كموظف خطير ورجل من كبار رجال الحكومة، بل كسيد روسي ظريف من أهل القرى.

وتمكث نجدانوف في الحديقة حتى آذنت الساعة الثامنة.

ودخل حجرة الطعام، فإذا القوم مجتمعون فيها.

فحيته فالنتينا تحية رقيقة، ولاحت له فتانة الحسن في ثياب الصباح، وبدت ماريانا صامتة وقورًا كعادتها واجمة عابسة.

وفي العاشرة تمامًا ألقى أول درس على الفتى كوليا بحضرة أمه فالنتينا، إذ التمست إليه أن يأذن لها في حضور الدرس، فجلست طول مدة الدرس هادئة ساكنة في مكانها.

وتبين نجدانوف أن الصبي ذكي متقد الخاطر، وبدا له أن أمه قد سرت من طريقة التدريس.

وكذلك حضرت فالنتينا الدرس الثاني، وكان مقصورًا على تاريخ روسيا، وقد قالت وهي مبتسمة إنها تحتاج إلى الدرس حاجة الصبيّ إليه. إذ لم تكن ملمَّة بهذا التاريخ إلمامًا كافيًا.

ومكث نجدانوف في حجرته إلى الخامسة يكتب رسائل لأصدقائه في سان بطرسبرج.

ولم يكن ملولًا ولا يائسًا، فقد هدأت أعصابه قليلًا، وسكن جأشه، ولكن أعصابه لم تلبث أن اهتاجت وثارت ثورتها على مائدة العشاء على الرغم من أن كولومتزف كان غائبًا، وظل رب الدار وربته على أدبهما ولطفهما الأول، ولكن تلك الرعاية نفسها هي التي كانت باعث غضبه واهتياج نفسه، وزاد في ألمه أن رأى تلك العانس الشمطاء تنظر إليه نظرات الكراهية الشديدة، وشهد ماريانا واجمة عابسة، وشعر بقدم الصبي كوليا ترفسه من تحت المائدة، ولاح له سبياجين أيضًا متبرمًا ساخطًا على مدير مصنع الورق الذي أنشأه في الضيعة، وكان ذلك الرجل ألمانيًّا يتقاضى راتبًا ضخمًا، فبدأ سبياجين يتنقص الألمان على العموم، ثم مضى يذكر اسم رجل في عنفوان العمر، يدعى سولومين قال عنه إنه يدير مصنعًا آخر للورق أحسن الإدارة، وكان المصنع لرجل من التجار الأغنياء في تلك الولاية بعينها، وجعل سبياجين يتمنى على الله لو رأى ذلك الرجل سولومين وحدثه.

وجاء كولومتزف في المساء، وكانت ضيعته على مسيرة أميال عشرة من قرية أرجانوف ضيعة سبياجين وأقبل زوّار آخرون. ولم يلبثوا إلا قليلًا حتى قاموا جميعًا إلى مائدة اللعب، فأوى نجدانوف إلى حجرته، ومكث يقرأ ويكتب رسائل حتى منتصف الليل.

وكذلك انصرم أسبوع، ونحن لا نجد صورة لوصف مشاعر نجدانوف، وآرائه وخواطره وما رآه في خلال تلك الأيام، أدق ولا أبدع من شذرة من رسالة كتبها إلى صديق له يُدعى سيلين كان رفيقه في المدرسة، وهو أعز صحبه عليه. ولم يكن سيلين هذا يقيم في سان بطرسبرج، بل في بلدة بعيدة في إحدى الولايات في بيت رجل من أهله كان ينفق على عيشه، ويجد الفتى لديه أسباب راحته. وقد كانت حالته من اليأس والعوز والعيلة بحيث لم يكن يحلم بأنه سيقدر له يومًا أن يخرج من تلك الولاية، ويهرب من مكانه الحقير ذاك في بيت قريبه، وكان سيلين ضعيف البنية، مريضًا، حييًا، واهن الإرادة، محدود الكفاءة، ولكن له بجانب ذلك كله طبيعة صافية نقية جميلة، وكان يحب نجدانوف. وكان نجدانوف ينفض إليه كل ما في فؤاده، وكان يخيل إليه وهو يكتب إليه رسائله أنه إنما كان يفضي بعواطفه إلى روح عذبة عزيزة تسكن في عالم آخر، أو كأنما كان يناجي بها ضميره، ويخاطب وجدانه. وكان نجدانوف يعلم أن صاحبه سيلين يلتهم كل لفظة من ألفاظه، كما يلتهم التراب في الأرض كل وشلة من المطر تسقط عليه، وأنه سيكتم أسراره في طيات فؤاده، وأنه في عزلته تلك، لا يحفل بشيء غير شؤون صديقه، ولم يكن نجدانوف يذكر لأحد من خلق الله، علاقته بسيلين، بل أبقاها نبعة في فؤاده تفيض ولا تعرف حدودًا.

وكذلك كتب إليه يقول: «أجل يا صديقي العزيز، يا سيلين النقيّ الفؤاد. نعم. هنئني. هنئني. فقد سقطت على مرعى خصيب، وأرض ناضرة، وأستطيع أن أريحَ قليلًا وأستجمع قوتي. إنني أعيش اليوم في دار رجل غنيّ من أهل السياسة، وكبار رجال الحكومة، وهو سبياجين المعروف، أشتغل فيه معلمًا لطفله الصغير.

إنني اليوم أغتذي غذاءً طيبًا لم آكل منه شيئًا في حياتي قبل اليوم. وأنام نومًا هنيئًا، وأهيم في الريف المتوحش، والطبيعة العذراء، والحقول المنبسطة المترامية، وليس شيء من كل هذا هو أبعث للسرور في فؤادي من أنني قد هربت من أهل سان بطرسبرج ومعارفي فيها. وكان أول هبوطي إلى هذه الضيعة أليمًا يبعث السآمة، ولكني أشعر الآن بقليل من التحسن، وقد زال عني بعض ما كنت أجد. وسأعود إلى أصلي وحالتي الأولى بعد أن تنتهي المدة، ولكن لي من ذلك على كل حال أن أتمتع بمسرات هذه العيشة الحيوانية النقية وأتضخم ويسمن مني الخصر، ويرتفع البطن، وأكتب أشعارًا، إذا تجلت لديَّ الشاعرية.

«ويلوح لي أن الضيعة في نظام حسن، إلا المصنع، فهو قفر من كل نظام. وترى الفلاحين عامة جهلاء لا تستطيع أن تدنو منهم أو تحدثهم. وأما الأجَرَاء والعاملون في الأرض فقد ضُربت الذلة عليهم. وبدت آثارها في وجوههم. ولكن... ما علينا سأحدثك عنهم في رسالة أخرى. أما رب الدار وزوجه فعلى أدب عظيم، وأفكاره حرة، وآراء طريفة، وترى السيد أبدًا متنزلًا متسامحًا، وإنه لينفجر من الحين إلى الحين في زوبعة من البلاغة وتهدر شقاشقه، فإذا به الخطيب «الفحل».

أما السيدة فجمال رائع مسرح للعين، قد جمعت إلى الحسن كل أساليب الفتنة والذكاء. وهي لا ترفع عن الإنسان بصرها. تلاحظه وتلاطفه فهي أنعم مخلوق رأيت. وأرق حاشية شهدت. ويخيل إليّ أن ليس في بدنها كله عَظْمة واحدة، أو قطعة ناتئة. ويلوح لي إنّي خائف منها، فأنت تعلم أي رجل أنا أمام النساء، وأي رعديد أمام فتنة المرأة. وفي الضيعة جيران، ولكن ليس فيهم من يهمك أن تقرأ عنه. ثم في البيت امرأة عجوز أنا منها أبدًا في انزعاج وويل ورعب. وفوق كل هذا، أراني منصرفًا إلى الاهتمام بفتاة في ريع الشباب، ولا يدري غير الله إذا كانت تلك الفتاة من أهل قرابة رب البيت أو كانت صديقةً أو وليةً فقط، ولم أتبادلْ معها أكثر من كلمتين. ولكن أشعر بأننا من طبيعة واحدة، وعلى إحساس واحد».

وتلا ذلك وصف الفتاة وعاداتها، ثم مضت الرسالة تحوي ما يأتي:

«وليس لديّ أدنى ريب في أن الفتاة ليست سعيدة، وأنها مزهوة متكبرة ذات مطامح بعيدة، ومحتشمة ساكنة لا تجري وراء المزاح، ولكن أشد ما راعني منها حزنها، ولكن لم هي حزينة، ولمّ هي مبتئسة؟.. هذا ما لم أحط به علمًا ولم أستطع له اكتشافًا.

«وفي الحق أن الفتاة على خلق متين، وذات طبيعة مستوية سامية. ولكني لا أستطيع أن أحكم بأنها طيبة القلب أو شريرة الفؤاد. بل لعلي مهتدٍ إلى ذلك بعد اليوم. وإني لأسائل نفسي هل في العالم نساء طيبات القلوب إلّا الحمقاوات البله الطائشات، إذ هل الطيبة واجبة للمرأة؟ على أنني لا أعرف الشيء الكثير عن النساء، وأرى من جهة أخرى ربة البيت لا تحبها، وأعتقد أن الكره بينهما متبادل، وإنما يصعب عليّ أن أقول أيهما على الحق في كره الأخرى، وإنما يوحي إليّ ضمير أن

ربة الدار هي التي على ضلال وخطأ في كراهية ماريانا؛ لأن الفتاة آية الأدب معها، وغاية اللطف والاحترام، وهي فتاة سريعة الانفعال مثلي تغضب من أقل شيء.

«وسأكتب لك أيضًا إذ ينحسر القناع عن خلق أهل هذا القصر.

«إن الفتاة قلما تكلمني كما قلت لك، ولكن في تلك الألفاظ القلائل التي خاطبتني بها على غرة مني وفجاءة، تبينت نغمة خشنة من ذلك الإخلاص الجاف الذي أحبه وأميل إليه، وعلى ذكر ذلك إلى متى يريد قريبك هذا أن يتحكم فيك إلى حد الاختناق؟ متى سيموت هذا الرجل؟».

انتصف شهر مايو الجميل، وأقبلت أيام الصيف القائظة ترسل بوادرها الأولى.

ففي ذات يوم بعد أن ألقى نجدانوف درس التاريخ على الصبي كوليا، انطلق يطوف بالحديقة، ومضى يسير إلى عرائش من الشجر عن كثب منها.

وأنهكه المسير، فاقتعد جذع شجرة عظيمة هناك.

وكانت الأشجار تحف به من جهاته الأربع، جلس غير مفكر في شيء، وإنما تاركًا نفسه يتخيل المكان وجماله، ويسرح بمخيلته في الربيع..

ولكنه لم يلبث أن انتبه على مواقع أقدام، ولم تقع في أذنه كوقع قدم شخص واحد، بل لاح له أنها أقدام شخصين يمشيان الهوينا بخطى متساوية متوازنة.

ولم يلبث أن سمع حفيف ثوب امرأة، ثم تبعه صوت رجل يقول: «أهذه كلمتك الأخيرة؟ لن يكون ذلك إلى الأبد!».

فأجابه صوت امرأة: «نعم. إلى الأبد».

وخيل إلى نجدانوف أنه سمع هذا الصوت قبل الآن.

ومضت لحظة، فإذا به يرى شبح ماريانا من خلال أغصان الشجر.

وكان يمشي بجانبها رجل ذو عينين سوداوين، إنسان لم يره قبل هذه اللحظة ألبتة.

ووقفا جامدين في مكانهما، إذ لمحاه، واضطرب هو، فلم يستطع نهوضًا من مجلسه.

ورأى ماريانا قد صبغ الحياء خديها بلون الأرجوان، ولكنها لم تلبث أن ابتسمت ابتسامة سخرية عابثة هازئة.

ولم يتيسر لنجدانوف أن يدرك هل الابتسامة كانت موجهة لنفسها؟ أم سخرية من حيائها؟ أم له هو ولجلوسه في ذلك المكان؟

واكفهر وجه الرجل الذي كان يماشيها، واضطرب نظره وبريق عينيه..

وبادلها النظرات، وللحال دارا على عقبيهما في صمت وانطلقا يمشيان الهوينا، وأتبعهما نجدانوف بنظراته في حيرة ودهشة.

ومضت برهة غير طويلة، فعاد إلى حجرته ودق ناقوس حجرة الطعام، فرأى ذلك الرجل الذي التقى به في الغابة في حجرة الاستقبال.

فعرفه سبياجين به قائلًا إنه نسيبه وأخ لزوجته واسمه ماركيلوف.

وقال سبياجين مبتسمًا: «أرجو أن تصبحا صديقين إذ تخبران بعضكما بعضًا».

فانحنى ماركيلوف صامتًا، وكذلك فعل نجدانوف، وتركهما سبياجين، ومضى يهز كتفيه، كأنما يريد أن يقول: «لقد عرفتكما ببعضكما إما أن تكونا صديقين أو لا تكونا كذلك، فذلك أمر لا أهمية له عندي».

وأقبلت نحوهما فالنتينا، وعرفتهما بعضهما ببعض مرةً ثانيةً، ثم التفتت نحو أخيها بتلك النظرة البراقة الملاطفة الحنون التي كانت تستطيع أن تثيرها في عينيها الساحرتين بمطلق حريتها في أي وقت تحب.

قالت: «لك الله يا عزيزي ماركيلوف. ماذا حصل منا! فقد كدت تنسانا جميعًا، بل لم تحضر في عيد ميلاد كوليا كذلك، فهل تريد أن أظن أنك كنت مشغولًا إلى هذا الحد؟!».

قالت ذلك، ثم تمهلت ونظرت إلى نجدانوف، واسترسلت تقول: «إن أخي قد بدأ يضع خطة جديدة مع فلاحيه. خطة مبتكرة طريفة لا مثيل لها. فلهم من كل شيء ثلاثة أجزاء وله جزء واحد. وبعد ذلك تراه لا يزال يظن أنه يتناول أكثر من حقه، ويصيب حصة أكبر مما يستحق».

فنظر ماركيلوف إلى الفتى وقال: «إن أختي مولعة بالمزاح، ولكني أميل إلى الأخذ برأيها. نعم، أنْ يأخذ رجل واحد حصة هي ربع ما يصيبه مائة رجله هو الظلم بعينه».

فأجابت مدام سبياجين بتلك النعومة التي في صوتها وفي عينيها:

«هل تظنني يا عزيزي أليكسي مولعة بالمزاح؟».

فلم يدر نجدانوف بأي جواب يجيب.

ولكن في تلك اللحظة جاء الخادم يعلن قدوم كولومتزف، فنهضت ربة الدار لاستقباله.

ولم تكد تمضي دقائق قلائل حتى أعلن الخدم أن المائدة على استعداد.

وعلى المائدة لم يتمالك نجدانوف نفسه من النظر إلى ماريانا وماركيلوف، إذ كانا يجلسان جنبًا إلى جنب، وكلاهما مطرق رأسه خافض عينيه مطبق شفتيه، وعلى وجهه نظرات عابسة مغضبة.

وعجب نجدانوف في نفسه كيف يكون ماركيلوف هذا أخًا لفالنتينا، إذ لم يكن بينهما أقل ظل للشبه!

ولم يتناول من الطعام شيئًا كثيرًا، بل جعل يتلهى بوضع أكوام من الخبز أمام صفحته. وينظر إلى كولومتزف بين فترة وأخرى.

وكان كولومتزف قد قدم من المدينة، إذ ذهب إلى زيارة حاكم الولاية في أمر كان يؤلمه، وظل مغضبًا متجهمًا على المائدة.

وانطلق سبياجين يتهكم به، ويضحك كثيرًا من حكايته وقصصه وكلماته «الطريفة» –كما كان يسميها، وإنما كان يقول عنه بالفرنسية: «إنه رجعي مخيف شنيع».

وكان كولومتزف في أحاديثه يسخر من الفلاحين وجهلهم وأساليب عيشهم، ويصيح مداعبًا مستهترًا: «يا لهذا الشعب الروسي من أمة مضحكة لطيفة، حتى في جهلها».

ولم يكن ماركيلوف يعير حديث كولومتزف أي التفات، ولم يحفل به ألبتة، وإنما نظر إلى نجدانوف متسائلًا مندهشًا، مرة أو مرتين، وقذف كومة من أكوام الخبز التي جمعها أمام صفحته، فكادت تصيب قطعة منها أنف ذلك المحدث البليغ المتشدق.

ولم يكلم سبياجين صهره، وكذلك فالنتينا لم تحدثه، وكان ذلك دليلًا على أنهما كانا يعدّان ماركيلوف رجلًا غريب الأطوار لا يحسن بهما إثارة سورته.

ونهض ماركيلوف منصرفًا إلى قاعة البليارد ليدخن في قصبة التبغ، وانصرف نجدانوف إلى حجرته.

وفي الردهة التقى صدفة بماريانا، فأراد أن يمشي متغافلًا عنها، ولكنها أوقفته بإشارة سريعة من يدها.

قالت بلهجة مضطربة: «يا مستر نجدانوف، إنني لا أعبأ بما ستظنه من الظنون في مسلكي. ولكني مع ذلك أجد..!».

وهنا تمهلت لتفكر في الكلمة الصحيحة التي يجب أن تفوه بها.

ثم عادت تقول: «نعم. أجد حتمًا عليّ أن أخبرك بأنك ولا ريب، عندما التقيت بي في الحديقة وأنا أمشي بجانب ماركيلوف، اعتقدت إذ رأيت على وجه كل منا دلائل الاضطراب أننا كنا على ميعاد مضروب».

فقال نجدانوف: «حقًّا لقد يخيل إليّ أن في ذلك بعض الغرابة...».

ولكنها قاطعته قائلة: «إن مستر ماركيلوف سألني أن أتقبله زوجًا لي. فرفضته. هذا كل ما أردت أن أقوله لك. إلى الملتقى. وظنّ فيّ ما تظن».

قالت ذلك، وأشاحت بوجهها، وأفلتت هاربة.

فدخل نجدانوف حجرته، وجلس على مقربة من النافذة يفكر قائلًا لنفسه: «يا لها من فتاة غريبة. عجبًا. ما هذه الجُنة الغريبة. وهذا الشرح الذي لم أسألها أن تبسطه. أكان ذلك عن رغبة منها في أن تبدو غريبة في خلقها، جديدة حتى في أطوارها، أم ذلك تصنع منها وزهو وكبرياء. نعم زهو وكبرياء بلا ريب. إنها لم تطق أن يخطر في ذهني أقل خاطر للريبة بها، ولم تحتمل أن يسيء مخلوق في العالم ظنه بها. يا لها من فتاة غريبة!».

كذلك راح نجدانوف يفكر ويسائل نفسه، بينما كان القوم يتناقشون عنه في السقيفة تحت نافذة حجرته، وكانت أحاديثهم تصل إلى مسمعيه واضحة بينة.

وسمع كولومتزف يقول: «إنّي أشعر بأنه من الفوضويين دعاة الثورة. فإنني عندما كنت أشتغل في لجنة خاصة مع الحاكم العام في موسكو، اعتدت أن أشتم رائحة هؤلاء السادة كما أشتم ريح الملاحدة، وأنا أدين بوحي الغريزة قبل كل شيء. ومعلم ابنك هذا ثوريّ من دون شك. ألم تلحظ أنه لا ينحني لمخلوق قبل أن يحني له الرأس أولًا؟».

فقالت فالنتينا: «ولماذا يكون هو أول من ينحني للناس بالتحية. إنني معجبة بهذا الخلق منه».

فصاح كولومتزف قائلًا: «إنني ضيف في البيت الذي يخدم فيه. نعم. إنه يخدم أجيرًا يتناول مبلغًا من المال. نعم. مستخدم مأجور. ولهذا أنا سيده وأعلى منه مكانة. فيجب عليه أن ينحني لي أولًا».

فقال سبياجين «يا عزيزي كولومتزف لا تدقق كل هذا التدقيق؛ لأنني أرى أننا قد أصبحنا في عصر غير ذاك العصر. إنني أنقده عن عمله راتبًا، ولكنه لا يزال مع ذلك رجلًا حرًّا لا سلطان لأحد عليه».

فقال كولومتزف مغضبًا: «إنه لا يشعر بثقل «البرذعة» فوق ظهره»، فكل هؤلاء الثوريين كذلك. وقد قلت لك إنني أشم رائحتهم عن بعد. ولو وقع هذا المعلم في قبضة يدي، لعلمته كيف يكون الأدب، ولغنى نغمة غير نغمته تلك. وددت لو أنني نعمت برؤيته وهو يرفع يده إلى قبعته محييًا أمامي».

فصاح نجدانوف من حجرته: «كلام فارغ أيها الحيوان الفخور المزهو الضئيل الصغير الدقيق».

وإذا ذاك فتح الباب، ولشد ما كانت دهشته إذ رأى ماركيلوف أمامه وجهًا لوجه.

***

ونهض نجدانوف لاستقباله، ومشى ماركيلوف إليه من غير تحية ولا انحناءة، وسأله إذا كان هو ألكسي ديمترتش، خريج جامعة سان بطرسبرج.

فأجاب نجدانوف: «نعم».

فأخرج ماركيلوف من جيبه رسالة غير مفضوضة، وقال بصوت منخفض: «تفضل بقراءة هذا الكتاب، فهو من فاسيلي نيقولوفيتش».

ففض نجدانوف الخطاب، ومضى يقرأه، وكان الكتاب على شكل منشور عام يقدم فيه كاتبه ماركيلوف كأنه «أحدهم»، وإنه رجل موثوق به، يركن إليه، وكان هذا موجهًا إلى نجدانوف نفسه، كرجل من كبار أهل الدعوة.

فلما أتم نجدانوف قراءة الكتاب، مد يده لماركيلوف مصافحًا، وقدم إليه مقعدًا، وجلس هو في مكانه.

وأشعل ماركيلوف لفافة تبغ، وفعل نجدانوف مثله.

وبدأ ماركيلوف الحديث فقال: «ألم تجد سانحة سنحت لك لكي تختلط بالفلاحين في هذه الضيعة؟».

فأجاب نجدانوف: «كلا. لم أجد إلى الآن فسحة من الوقت».

فقال ماركيلوف: «إن الشعب هنا من الحماقة بمكان. نعم. شرذمة من الجهلاء البُله. فينبغي السعي إلى تنوير أذهانهم. وهم يعانون أشد ضروب الفقر، ولكنهم لا يستطيعون أن يدركوا السبب الذي أدى إلى فقرهم».

فقال نجدانوف: «يلوح لي أن الفلاحين الذين يعملون في أرض صهرك ليسوا فقراء».

فأجاب ماركيلوف: «إن زوج أختي يعرف من أين تؤكل الكتف. وهو بارع في مخادعة القوم والتغطية على أبصار الفلاحين، ولا أنكر أن فلاحيه أحسن حالًا من سواهم. ولكنّ له مصنعًا، وإلى هذه الناحية ينبغي أن نولي وجوهنا. فإن أقل حفرة نحفرها في ذلك المصنع، ترسل النمال هائجة مائجة، فهل جئت بكتب من مؤلفاتنا معك؟».

فقال نجدانوف: «نعم. بضعة منها».

فقال ماركيلوف: «وسآتيك بأخرى من مكتبتي. ولكن كيف جئت بالقليل منها».

فلم يحر نجدانوف جوابًا، وسكت ماركيلوف كذلك عن الكلام، ومضى يرسل ذوائب من الدخان من أنفه.

ثم لم يلبث أن قال فجاءةً: «يا لهذا الخنزير كولومتزف. لقد خيل إليَّ ونحن جلوس إلى العشاء أن أنهض إليه واثبًا، فأحطم وجهه القبيح ليكون عبرة للآخرين، ولكن كلا. إن هناك شؤونًا خطيرة غير ذلك ينبغي أن تنفذ. وليس لدينا وقت نضيعه في الانتقام من الحمقى لما يقولون. فقد آن الأوان لمنعهم من إحداث أمور طائشة حمقاء مثلهم».

فهز نجدانوف رأسه، واستمر ماركيلوف على تدخينه.

وللحال نظر إلى نجدانوف نظرة طويلة، وقال فجاءة: «ما رأيك في أختي؟ إنها أمكر والله وأخبث من زوجها. وأحذق لضروب الخديعة والملاينة وأفانين المكر. ولكن ما رأيك أنت فيها؟».

فقال نجدانوف: «هي في نظري سيدة رقيقة عذبة المحضر، وفوق ذلك على جمال رائع».

فقال ماركيلوف: «هيه. ما أغربكم معاشر سكان سان بطرسبرج، وما أدهاكم في التعبير عن آرائكم! إنني والله لفي حيرة منكم وضلة ودَهَش. طيب وما رأيك في....».

ولكنه لم يتم كلمته إذا أظلم وجهه فجأة، فلم يستطع أن يتكلم، ولكنه تمهل قليلًا، واسترسل يقول: «إنني أرى أنه لا بد لنا من حديث طويل لا يتيسر لنا في مكاننا هذا، فمن يدري لعلهم مسترقون الآن السمع خلف الباب. لديّ فكرة. إن اليوم هو السبت، ولا أظنك ستلقي أي دروس على ابن أختي غدًا. أليس كذلك؟».

قال نجدانوف: «لديّ إعادة معه في الساعة الثالثة؟».

فأجاب ماركيلوف: «أتقول «إعادة»، إنها لفظة من ألفاظ «المسارح التمثيلية» ولا ريب لديّ في أن أختي هي التي اخترعتها. ولكن لا يهم ذلك، فهل تود أن تصحبني الآن إلى داري؟ فإن قريتي على مسيرة عشرة أميال من هذه الضيعة. ولديّ جياد مطهمة كريمة تبلغ بنا القرية في خطف البرق، وأنت تستطيع أن تمكث بقية هذا الليل، وغداة غد فأصحبك إلى القصر عائدين غدًا في الثالثة. فهلا جئت؟».

فأجاب نجدانوف: «بكل سرور».

وكان قد أمسى في حيرة وارتباك وألم نفساني، منذ رأى ماركيلوف، إذ جعلته هذه الصداقة المباغتة الطارئة قلقًا منزعجًا، ولكنه شعر بأنه يميل بجانحته إلى الرجل. وبدا له أن ذلك الرجل لم يكن بالذكيّ ولا بالمتوقد الذهن، وإنما كان بجانب ذلك يلوح رجلًا مخلصًا وفيًّا قويّ الفؤاد، أصمع القلب.

وخطرت له في تلك اللحظة ماريانا، وما كان بينها وبينه من حديث في الحديقة.

وصاح ماركيلوف: «والآن تستطيع أن تتأهب للمسير بينا أذهب لإعداد المركبة. وعلى ذكر ذلك لا أظنك تريد أن تستأذن صاحب البيت وزوجته في الذهاب».

فأجاب نجدانوف: «بل يجب أن أخبرهما، إذ لا يصح أن أمضي على هذه الحال وهما لا يعلمان شيئًا».

فقال ماركيلوف: «إذَنْ سأتولى أنا إنباءهما عنك، فإنهما الآن غارقان في لعبة الورق، فلا يلحظان شيئًا ولا يعيان أمرًا. فإن صهري لا يحتفل بأحد غير الحكوميين، ولا يحذق شيئًا غير لعب الورق. إنك ستستعد للسير بينا أتولى أنا تدبير كل شيء».

وانصرف مسرعًا.

ولم تكد تمضي ساعة واحدة، حتى كان نجدانوف جالسًا بجانبه في مركبته الفخمة.

ومضى الحوذي يصفر بشفتيه أنغامًا ضعيفة أشبه بصدح الأطيار، وراحت الجياد الثلاثة الصافنة تجري كالريح فوق ذلك الطريق اللين المعبّد.

وكانت الساعة العاشرة، فمضت أشباح الأشجار والسرحات والأجمات تجري وراءهما مسرعة موفضة.

وكانت قرية ماركيلوف تُسمَّى «بورسينكوف»، وهي لا تتعدى مائتي فدان في مساحتها، وتأتي له بريع يقدر بنحو سبعمائة روبل في العام، وكانت تبعد عن «البندر» مسافة أميال ثلاثة، وعن ضيعة سبياجين عشرة أميال. وكانت المركبة لا بد في طريقها من الضيعة إلى القرية من أن تمر بالبلدة.

ولم تكد تمضي دقائق قلائل، حتى لاحت لنجدانوف أنوار الحوانيت من مكان بعيد، وضوء بيوت التجار والباعة، وكان اليوم يوم السبت، ولذلك كانت الشوارع قفرًا خالية من السابلة، ولكن كانت

حانات الشراب غاصة بالشاربين، تنبعث منها أصوات السكارى، خشنة مختنقة، تغني أغنيات شاردة، في مرقص مزدحم مختلط.

وكانت أبواب الحانات بين آونة وأخرى تنفتح مرسلة ضياء ضئيلًا، ورائحة الكحول تملأ الفضاء.

ووقفت أمام أبواب تلك المشارب عجلات الفلاحين، تجرها جياد مسكينة ذليلة متطأطئة الرؤوس، كأنما تولاها النعاس فنامت. وعن كثب فلاح في ثوْب أخْلَاق وقبعة متدلية وراء ظهره كالغرارة قد خرج من الحان، ولكنه لم يستطع المشي على قدميه، فوقف مترنحًا مستندًا إلى الجدار، يعرك شيئًا في يده، وهناك آخر من عمال المصانع مشى فاتحًا صدره، غير منتعل نعلًا؛ إذ ترك حذاءه في الحانوت، ولكنه لم يكد يسير بضع خطوات حتى «اندلق»، ثم استقام على ساقيه، ثم سقط، ونهض متماسكًا، فانكفأ إلى الحان ثانية.

فقال ماركيلوف بلهجة حزينة يائسة: «سيكون الشراب النقمة الكبرى على الروس».

فالتفت الحوذي إليه، وكان قد كفّ عن الصفير؛ إذ مرت المركبة بأبواب الحانات، وكأنما قد غرق في لجة أفكاره فقال: «إنهم يشربون من الحزن يا سيدي ماركيلوف».

فصاح به ماركيلوف بغضب: «التفت إلى الجياد ودع المركبة تسير!».

فوجم السائق وساط الجياد، فاندفعت مسرعة.

والآن لا بد من أن نقول بضع كلمات عن ماركيلوف هذا.

لقد كان أكبر من أخته فالنتينا بأعوام ستة، وكان قد تعلم في مدرسة من مدارس المدفعية، وتركها قبل أن يتمتع برتبة الضابط؛ لأنه بعث باستقالته يوم رُقى إلى تلك الرتبة على أثر حادثة وقعت بينه وبين قائده، وكان ذلك القائد من الألمان. ومنذ ذلك العهد، ظل ماركيلوف يكره الألمان ولا سيما الألمانَ الروسيين، واشتجر الخلاف بينه وبين أبيه لاستقالته. فلم ير أباه منذ ذلك العهد حتى قبيل وفاته، فورث إذ ذاك تلك الضيعة الصغيرة، وأقام فيها.

وفي سان بطرسبرج اختلط بطائفة من معاشر الأذكياء وأهل الآراء المهذبة، فأكبرهم، بل تمادى به احترامه لهم إلى حد العبادة، فحملوه على أن يرى رأيهم، وينساق في وجهة تفكيرهم.

ولم يقرأ ماركيلوف كثيرًا، وإنما قرأ كتبًا يصبو إليها، وكان قد ظل على عاداته العسكرية. ومزج عيشة الجندي بعيشة الراهب، ووقع منذ بضعة أعوام في حب فتاة لم تلبث أن أطرحته وغدرت به أشنع غدر؛ إذ تزوجت بضابط ألماني. فلذلك اشتدت به كراهية الضباط والبغضاء للألمان، وحاول

أن يكتب أبحاثًا ضافية في عيوب المدفعية الروسية، ولكن لم تتيسر له الأداة، ولم تُوَاتِه روح الاستفاضة وإلهام البيان، فلم يتم منها بحثًا، ولم يكمل منها مقالةً، ولكنه لم يكف عن الإمساك بقلمه، وتسويد وجوه أوراق عدة بخطه السقيم العريض الحروف، الغريب في تركيبه.

وكان ماركيلوف رجلًا عنيدًا حديد الفؤاد إلى حد الاستماتة، لا يصفح آخر الدهر، ولا يتغاضى ولا ينسى ولا يتناسى، يشعر دائمًا بأنه قد ظلم وأُسيء إليه، ويعطف على المظلومين. ويود أن يضطلع بأي خطب في سبيل الانتصار إليهم ورد ظلامتهم. وكان ذهنه المحدود الضيق المضطرب لا يتعدى من أي فكرة وجهة واحدة، أما ما لا يستطيع له إدراكًا، وما لا يسهل على ذهنه أن يلم به، فلا أثر له في العالم ولا وجود ولا حيّز، ولا مكان.

ولكنه كان يكره الغش والأكاذيب ويسخر منها، ويحتقر الباطل ويتزرى عليه.

وإذا جلس إلى أهل الطبقة العالية «الرجعيين» كما كان يسميهم أو التقى بهم، قسا عليهم وراح فظًّا خشنًا، أما مع الشعب والعامة فالتبسط واللين والعرف والرقة والتحبب، كل أولئك ديدنه، وإنه ليرعى الفلاح ويدعوه أخاه وصديقه ووليه.

وقد قام على رعاية أرضه أحسن القيام، إذ كان ذهنه حافلًا بعدة من الخطط الاشتراكية، ولكنه لم يستطع أن يخرجها جميعًا إلى حيز العمل، كما عجز عن إتمام مقالاته في عيوب المدفعية.

ولم ينجح في عمره في شيء ما، وكان معروفًا في الفرقة العسكرية التي كان فيها بهذا الاسم «الخيبة!».

ولئن كان ماركيلوف صادق الوجدان، رفيق العاطفة، لين العريكة، فلا تحول تلك كلها بينه يومًا ما، والظهور في مظهر الوحش المتعطش إلى الدماء الصخريّ الفؤاد. على حين تراه آونةً أخرى متأهبًا لبذل نفسه وتضحية دمه على الفور، غير متردد، أو منزو أو محتفل بشيء، أو مرتقب جزاءً....

واعتلى القمر في تلك الساعة قبة الفلك، متعرضًا لجينيا أشبه شيء بدرع مسردة من الفضة.

ومضت المركبة تتسلل بين الأشجار، حتى بلغت دارًا منخفضة غير متسامية البناء، وقد انبثق الضياء من شرفات ثلاث في وجهة البيت. وكان الباب الخارجي مفتوحًا على آخره، كأنما لم يكن يومًا من الأيام منذ وضع في مكانه ذاك مغلقًا، وكأنما لم يوصد أبدًا.

وفي فناء البيت، خرج كلبان صغيران من ركن، ينبحان نباحًا يشق الفضاء، وإن كان نباحًا لا أذاة فيه ولا ضر يخشى منه.

وبدت لعيني نجدانوف أشباح أناس تتنقل في حجرات البيت.

ووقفت المركبة أمام سلم الدار، فوثب ماركيلوف من المركبة، وقال: «ها نحن قد وصلنا، وستجد في البيت ضيفين تعرفهما جد المعرفة ولا تنتظر أن تراهما أو تلتقي بهما في هذا المكان! هلم بنا. تفضل!».

* * *

ولم يكن الضيفان أحدًا من خلق الله غير أوستراديموف والفتاة ماشورينا.

وكانا جالسين في حجرة الاستقبال، يدخنان ويتناولان أقداح الجعة على نور مصباح ضئيل.

ولم يبد على أحد منهما أي أثر للدهشة إذ دخل نجدانوف عليهما الحجرة؛ لأنهما كان يعلمان أن ماركيلوف قد اتفق من قبل معهما على أن لا يعود إلا ونجدانوف معه.

ولكن لشد ما كانت دهشة الفتى إذ رآهما.

ولم يزد أوستراديموف عند رؤيته على هاتين الكلمتين: «نَعِمْتَ مساء» شيئًا، على حين تهللت أسارير ماشورينا، ومدت إلى الفتى يدها.

وبدأ ماركيلوف يشرح قصة حضور ذينك الضيفين، فقال إنهما قدما من سان بطرسبرج منذ أسبوع، وأنه في النية أن يتمكث أوستراديموف في الولاية ردحًا من الزمنْ لنشر الدعوة، وأن تسافر ماشورينا إلى بلدة ك...؛ للقاء رجل من كبار الدعاة إلى القضية الروسية.

ثم انثنى يقول إنه لم يكن لديهما إذ ذاك من عمل خطير يعملونه، ولم يلبث أن احتدم غيظه، وارتفعت حميته، وهدرت شقاشقه، على حين لم يعارضه أحد فيما قال أو يدحض رأيًا من آرائه، وجعل يعض شفتيه ويلعن الويلات التي فشا أثرها في وطنه، والشنائع التي بدا الظلم فيها لا حد له ولا حاجز يصد مدّه وطغيانه، وجعل يقول إن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن ليس في الناس غير الجبناء والرعاديد من ينزوون عن العمل، ويقبعون راضين بذلك الذل، مستكينين إلى ذلك الظلم الفادح، وأنه لا بد من تلك الشدة التي يغرز بها الدبوس في الخُرّاج مهما كان ناضجًا «مستويًا» يريد تنظيفًا، وكان هذا التعبير منه غير مبتكر، بل تراه سمعه من أحد الناس فراق في نظره، ومنذ ذلك الحين جعل يذكره في كل مناسبة، ولغير مناسبة.

وكأنما جعلته الخيبة التي لقيها في حب ماريانا مستهترًا بكل شيء، مشوقًا إلى العمل، حتى ينسى ألم ذلك اليأس.

وجعل يتكلم بحدة وخشونة، ولكن رأسًا إلى غرضه كضربة الفأس، والألفاظ تتحدر من شفتيه الصفراوين على وتيرة واحدة وبوقع واحد، أشبه بنباح كلب عجوز متوحش، وقف بباب يحرسه.

ولم يكن ماركيلوف تكلم في المركبة مع نجدانوف، وإنما ظل صامتًا، فلما بلغ بيته انفجر غيظه المحتدم مرة واحدة.

أما أوستراديموف وماشورينا فكانا يؤمِّنان على كلامه بنظرة أو ابتسامة أو صيحة عجب، ولكن نجدانوف بدأ يشعر بإحساس غريب، فقد حاول في مبدأ الأمر أن يعارض ماركيلوف في آرائه؛ ليدله على الخطر الذي يخشى منه إذا تعجل القوم في العمل، ويضرب له من تاريخ الوطنيات المتعجلة الطائشة أمثالًا وأحداثًا وعبرًا، وأنه لا بد قبل العمل من فهم نفسية الجماهير، وتعرُّف منازع الشعب، ولكنه سكت وصبر، ثم لم تلبث أعصابه أن تصلبت من الجزع والاهتياج، حتى اضطربت كأوتار الأداة الموسيقية، فأنشأ يتكلم بأعلى صوته، والدموع تكاد تفيض من عينيه، ومضى محتدًّا ثائرًا أشد مما كان ماركيلوف وأحدّ.

ولكن ما باعث هذه الحدة التي نزع بها إلى الحديث؟

أكانت ندمًا على أنه ظل متبطلًا في الأيام الأخيرة غير مشتغل بقضية بلاده، أم رغبة في فؤاده يريد أن يغرق عذاب ألمه وحزن نفسانيّ في أعماق فؤاده، أم ليبدو الوطنيّ الغيور المحتدم أمام رفاقه، أم ترى كلمات ماركيلوف قد أثارت في فؤاده حمية حقيقية وأشعلت الدم في عروقه؟!

ذلك ما لا نستطيع أن نلم به أو نعرف سره.

وظلوا يتكلمون حتى مطلع الفجر.

ولم يفارق أوستراديموف مجلسه، ولم تغادر ماشورْرينا مقعدها.

وأما ماركيلوف ونجدانوف، فباتا واقفين لم يتخذا أبدًا مجلسًا.

ووقف ماركيلوف كذاك أشبه شيء بالديدبان، وأمسى نجدانوف يمشي في الحجرة ذهابًا وجيئة، بخطى متثاقلة، ثم ينثني، فيمشي بخطوات واسعة.

وتناولت أحاديثهم الوسائل التي ينبغي أن يستعينوا بها على العمل، ونصيب كل منهم من تلك الخطة، والكتب والمناشير والرسائل التي ينبغي توزيعها على أفراد الشعب.

ثم عاج بهم الحديث أخيرًا على ذكر رجل من التجار يُدعى جولوشكن، توسموا فيه الخير، على الرغم من إنه لم يكن أصاب قسطًا عظيمًا من التهذيب.

وبعد ذلك تكلموا عن سولومين.

فتذكر نجدانوف إذ ذاك ما سمعه من فم سبياجين على مائدة الطعام فقال: «أسولومين هذا مدير مصنع؟».

فأجاب ماركيلوف: «نعم، هذا هو الرجل. ويجب عليك أن تتعرف إليه وأن تعرفه.. إننا لم نسبر غوره إلى الآن. ولكني أعتقد أنه رجل قدير، لا حدّ لمقدرته».

وانطلقوا يتحدثون بعد ذلك عن رجل من الدعاة حار الوطنية، يُدعى كيسلياكوف.

فقال نجدانوف متململًا: «ومن يكون كيسلياكوف هذا؟».

فقال ماركيلوف: «فتى غريب، ولكني لم أعرف عنه غير الشيء القليل؛ إذ لم ألتق به غير مرتين. ولكن له الله! ما أبلغ تلك الرسائل التي يكتبها. نعم. يا لها من رسائل عجيبة. سأريك تلك الرسائل، ولك أن تحكم بنفسك. إنه مفعم حمية وتحمسًا. وأي نشاط لعمرك نشاطه! فقد جاب روسيا كلها طولًا وعرضًا خمس مرات أو ستًّا، ووضع رسالة في اثنتي عشرة صفحة عن كل مكان حلّ به».

فنظر نجدانوف إلى أوستراديموف نظرة المتسائل. ولكن هذا كان جالسًا أشبه بالتمثال جامدًا في مكانه لا يتحرك منه عضو حتى ولا حاجباه. وكذلك جمدت ماشورينا في مقعدها، وإنما جعلت تبتسم ابتسامة مريرة حزينة.

وعاد الحديث ينطلق في شجون عدة من السياسة. ومضى نجدانوف يتكلم ثانية بحدة وغضب وجهارة صوت.

ولم يكن شرب غير قدح واحد من الجعة، ولكن كان يخيل إليه بين آونة وأخرى أنه قد سكر وثمل؛ إذ راح رأسه يدور به ويخفق قلبه خفقان نبض المحموم.

فلما انطلق في الرابعة من الصبح إلى حجرة أُعدت لنومه، مشى يحدث نفسه معجبًا بماركيلوف وبنسيانه أحزانه الشخصية وآلامه في سبيل تلك النهضة التي يؤمن بحقها وصدقها، فكان يقول لنفسه: «إن له ذهنًا محدودًا، وروحًا ضيقة المضطرب. ولكن أليس ذلك أفضل ألف مرة من أن يكون الإنسان مثلي أنا، ويشعر شعوري عينه».

وإذ ذاك لم يلبث أن تولاه الغضب من تنقصه قدره، فقال: «ولكن ما الذي يحملني على أن أرى رأيًا كهذا؟ ألست أنا أيضًا قديرًا على التضحية؟! ولكن مهلًا، مهلًا، أيها القوم، وأنت يا باكلين كذلك. نعم انتظروا فإنني سأريكم فِعَال هذا الفتى الذي تظنونه رجلًا خياليًّا، لا يعرف غير نظم الأشعار!».

وألقى جدائل شَعره إلى الخلف، وكشر عن نابه، وخلع عنه ثيابه في عجلة، ووثب إلى الفراش البارد الرطب.

وإذ ذاك سمع صوت ماشورينا من أقصى الحجرة تقول: «طاب ليلك، إنني جارتك في هذه الحجرة».

فقال نجدانوف: «طاب ليلكِ!».

وتذكر عندئذ فجأة أنها طول المدة كلها لم تترك النظر لحظة إلى عينيه.

فجعل يقول لنفسه: «ماذا تريد مني؟»، ولكنه خجل واستحيا، وقال: «ليت النوم يأخذ عيني».

ولم يستطع أن يهدئ من ثورة أعصابه المتعبة القلقة، فلم يهبط عليه النعاس إلا والشمس قد اعتلت كبد السماء، فذهب في نوم ثقيل مضطرب كثير الأحلام.

وصحا متألمًا من نومه متأخرًا مصدع الرأس، فارتدى ثيابه، ومشى إلى نافذة الحجرة، فراح يطل على ضيعة ماركيلوف.

فإذا به يرى ضيعة فقيرة صغيرة خاملة، لا تكاد تكون شيئًا مذكورًا.

فنزل إلى حجرة الجلوس، فرأى ماشورينا جالسة أمام «سيمافور» الشاي، يبدو عليها كأنها كانت في انتظاره، فعلم منها أن أوستراديموف قد سافر في مهمة تتعلق بالحركة الوطنية، وأنه سيعود بعد أسبوعين، وأن ماركيلوف قد خرج يتفقد شؤون الفلاحين في ضيعته.

وكان نجدانوف متعبًا، يشعر بألم في فؤاده، فقد طال الحديث بهم أمس عن وجوب البدء بالعمل، والخروج من الجمود إلى الحركة والجهاد، ولكنه لم يكن يدري أي سبيل يتخذه وأي وسيلة يستعان بها.

ولم يكن ثمة جدوى من مصارحة ماشورينا بذلك؛ فإنها لا تعرف ترددًا. إذ لم تكن تعرف شيئًا إلا أنها ستسافر إلى بلدة ك...، أما ما وراء ذلك، فلا شأن لها ولا دراية به.

فجلس نجدانوف صامتًا، وتناول الشاي، ونهض فلبس قبعته، ومضى إلى المزرعة.

وفي الطريق التقى بجمع من الفلاحين فتكلم معهم، ولكنه لم يستطع أن يحملهم على فهم حديثه، وإدراك معانيه، ولم يقولوا هم شيئًا سوى أن سيدهم ماركيلوف صاحب تلك الضيعة رجل رفيق كريم، ولكنه غريب الأطوار، وتنبأوا له بالخسار والفقر؛ لأنه يريد أن يمشي على هواه، ولا يود أن يسير في السبيل التي سار فيها أجداده وآباؤه الأولون.

وكانوا يقولون له: «وهو رجل ذكي كما تعلم حاذق، ولكن لا يستطيع الإنسان أن يفهم كلامه، مهما حاول وأجهد ذهنه وحمل على عقله. ومع ذلك تراه رجلًا طيبًا لا بأس به!».

فتركهم نجدانوف وانطلق في طريقه، ولم يلبث أن التقى بماركيلوف وهو في جمع من العمال قد أحاطوا به، ورآه عن كثب كأنما كان يشرح لهم ويخطب فيهم، ولم يلبث أن رفع ذراعيه في وجوههم كأنما أدركه اليأس من بلادة أذهانهم وغبائهم.

وكان يمشي وراءه وكيل أعماله، وهو رجل قزم حسير البصر، لا أثر في وجهه للسلطة أو النفوذ، وكان لا يزيد على قوله: «هو ذلك يا سيدي. هو ذلك».

فدنا نجدانوف من ماركيلوف، وأدهشه ما رأى من دلائل التعب واليأس التي تبدت في وجهه.

فما كاد ماركيلوف يراه، حتى انطلق في أحاديث ليلة أمس عن الثورة المحتومة القادمة. وكان العرق يتصبب من جبينه، والغبار يعلو وجهه، وكان صوته خشنًا، وقد علقت بثوبه قطع من النشارة وأعواد من العشب والطحلب.

ووقف الفلاحون حوله صامتين، بين الخوف يغشاهم، وبين السرور بمنظر هذا السيد المتحمس، وهم لا يعلمون لحماسته سببًا.

ووقف بينهم رجل كان ماركيلوف قد ضرب عليه غرامة مالية لخطأ ارتكبه، يتوسل إليه أن يتغاضى عن ذنبه ويسبل عليه ستر رحمته. فلم يكن من ماركيلوف إلا أن صرخ في وجهه غاضبًا حانقًا وعفا عنه في النهاية.

فطلب نجدانوف إليه أن يعد له جيادًا ومركبة؛ لتحمله إلى الضيعة الأخرى.

فدهش ماركيلوف لهذا الطلب، ولكنه وعده أن يعدّ له كل شيء.

وعاد الرجلان إلى البيت، وكان ماركيلوف يتعثر في مشيته.

فقال نجدانوف: «ما خطبك؟».

فصاح ماركيلوف بلهجة اليائس «ليس بي شيء، إلا أنني متعب مملول. إنك لا تستطيع أن تجعل هؤلاء الناس -وإن جاهدت- يفهمون ما تقول. إنهم عاجزون عن تنفيذ أمر من الأوامر، ولا يفهمون حتى الروسية السهلة الخالية من أساليب البلاغة. لقد حاولت أن أبسط لهم مذهبي في

التعاون على العمل والاشتراك في ريعه ونتاجه. فلم يدركوا من ذلك شيئًا، غير أنني أريد أن أهبهم جزءًا من الأرض، وأمنحهم قطعة من المزرعة».

وكان الخدم في دار ماركيلوف لا يتعدون وصيفًا وطاهيًا وحوذيًّا ورجلًا هرمًا قد نبت الشعر في أذنيه، كان من قبل وصيفًا لجده.

وكان هذا الشيخ لا يترك النظر إلى وجه ماركيلوف، وكانت نظراته تنم عن الأسف والندم واليأس من صلاح ماركيلوف واستقامة أموره.

وبعد أن تناول نجدانوف طعام الفطور، حملته مركبة الأمس بعينها إلى المزرعة الأخرى. وكانت ماشورينا قد سألته وهم جلوس إلى المائدة أن يأذن لها بأن تركب المركبة معه؛ لكي تصل بها إلى البلدة؛ لشراء حاجة لها كانت تريد ابتياعها.

ورافقهما ماركيلوف حتى الباب قائلًا لنجدانوف إنه سيرسل إليه من الحين إلى الحين ليستقدمه، وإنه سيستدعي سولومين كذلك، وإنه إنما يرتقب كتابًا من الزعيم فاسيلي نيقولوفيتش، فإذا وصلته الرسالة فلا بد من الشروع في العمل؛ لأن الجماهير قد أصبحت لا تطيق صبرًا... تلك الجماهير التي لم تستطع أن تدرك الفرق بين التعاون والاشتراك في ملكية الأرض!

فقال نجدانوف لدى الباب: «وعلى ذكر هذا، أين تلك الرسائل التي قلت إنك سترينيها؟ ما اسم ذلك الرجل؟ كيسلياكوف أليس كذلك؟».

فأجاب ماركيلوف: «في فرصة أخرى. نعم. سأريك إياها في حين آخر».

وسارت بهما المركبة.

وظلت ماشورينا جالسة تدخن صامتة، ولكن عندما بلغت المركبة أبواب المدينة، أرسلت تنهيدة مستطيلة.

وأظلم وجهها وقالت: «إنني محزونة لماركيلوف هذا».

فأجاب نجدانوف: «إنه متعب يحمل على نفسه في الجهد والعمل، ويلوح لي أن شؤون مزرعته في أسوأ حال».

فقالت ماشورينا: «إن حزني له ليس من هذه الوجهة».

فقال نجدانوف: «ولِمَ إذَنْ؟».

فأجابت: «لأنه مبتئس شقيّ سيئ الحظ. وإنك لن تستطيع أن تجد رجلًا خيرًا منه. ثم ها أنت تراه المحزون المخيب المضيّع».

فنظر نجدانوف إليها وقال: «هل تعرفين عنه شيئًا؟».

قالت: «لا شيء مطلقًا. ولكنك تستطيع أن تحكم مما تراه في وجهه. إلى الملتقى يا أليكسي».

وقفزت من المركبة، وتولت ذاهبة. ومضت ساعة، فمشت المركبة تخترق فناء دار سبياجين.

وشعر بالتعب قد تولاه من أثر تلك الليلة المسهدة، وتلك الأحاديث، وذلك الحِوَار الموحش العنيف.

وأطل عليه من النافذة وجه مبتسم، ذلك وجه مدام سبياجين ترحب بعودته.

فجعل يقول لنفسه: «لها الله! ما أروع عينيها!».

* * *

وجاء إلى العشاء أضياف كثيرون.

فلما انتهى القوم من الطعام، انتهز نجدانوف فرصة العجيج والزحام والحركة، فأفلت إلى حجرته.

أراد أن يخلو إلى أفكاره؛ ليجمع في ذهنه شتات تلك الخواطر التي جالت في رأسه من أثر رحلته.

ونظرت إليه فالنتينا وهم على العشاء عدة نظرات، ولكنها لم تجد سانحة لتكلمه.

أما ماريانا، فقد لاحت كأنما قد ندمت على ما كان منها من تلك الحادثة الغريبة في بابها، فراحت تتحاشاه وتتهرب منه.

فتناول نجدانوف القلم ليكتب إلى صديقه سيلين، ولكنه لم يدرِ ماذا يكتب، فقد تزاحمت في ذهنه الخواطر، وتضاربت المشاعر، وغص رأسه بالفِكَر والآراء، فلم يشأ أن يفصل بعضها عن بعض، أو ينسقها جَميعًا في رسالة إلى صديقه، فأجَّل الكتابة إلى يوم آخر.

وكان كولومتزف ضيفًا من الضيوف، ولم يُظهر هذا الرجل النبيل في فرصة أخرى ما أظهره في تلك الليلة من القحة والتبجح والبذاء والتنطع والسفاهة، ولكن نجدانوف أنكره، ولم يلتفت إليه، ولم يعره أي اهتمام كأنما لم يكن حاضرًا المجلس.

وجلس نجدانوف في حجرته كأنما قد أحاطت به غمامة كثيفة، تلوح أمام عينه كحجاب مضروب بينه وبين العالم أجمع، ومن خلال تلك الغمامة لم يكن يرى إلا وجوهًا ثلاثة. نعم، وجوه نسوة ثلاث؛ تلك وجوه فالنتينا وماشورينا وماريانا. ولم يدرك نجدانوف ما شأن هؤلاء به، ولماذا يَلُحْنَ أمام خاطره، ويبدون في مخيلته؟!

ذلك ما لم يستطع له حلًّا، وبكَّر إلى النوم، ولكنه لم ينم.

حامت حوله أفكار سوداء وخواطر مظلمة، تدور كلها حول الخاتمة التي لا مفر منها..... الموت!

وكانت تلك الخواطر مألوفة لديه غير جديدة عليه، ولطالما قلّبها في ذهنه وأدارها في مخيلته، وتولته أولًا الرعدة منها والرجفة من الفناء، والفزعة من البلى والسكون إلى الأبد. ولكنه لم يلبث أن رحّب بها، بل تهلل لها، ونَعِم بتخيلها، وطرب لوقعها في ذهنه.

وللحال تملكته ثورة نفسانية طالما ألفها وشعر بها.

سرحت مخيلته مبعدة مترامية في أفق قصتي. ونهض فجلس إلى المائدة وراح يكتب على الفور. لا متمهلًا، ولا ماحيًا لفظة ولا مثبتًا أخرى.

وهذا ما كتب من القصيد.

«يوم أموت. يا صاحبي العزيز. تذكر أمنيتي هذه. احرقْ كل ما كتب فؤادي. وأَمْلِ عليّ وحي قلبي، إلى آخر ذرة من رماده. ودع الأزاهر أجملها وأفتنها تحف بي وتتهادى حولي. والشمس تضحك طائفة بسريري. وخذ أحلى أهل الموسيقى نغمًا، وأروعهم أغاريد، إلى باب الموت، ودار البلى، ولا تدعهم يرسلون نغمًا من أنغام الحزن فوق رأسي. ولا يبعثون حولي لحنًا ساكنًا، أو توقيعًا رهيبًا، أجش عميقًا. كلا يا صاحبي، بل أَقْبِلْ إليّ بألحان الفرح، ونشائد الطرب. تعال احمل إليّ النغمة المرقصة الثائرة الجيَّاشة الحوَّامة العاصفة، فإنني سأسمع إن لم أكن سمعت قبل ذلك شيئًا، تلك الأوتار تضطرب في أعوادها، وتلك الخيوط الموسيقية راعدة راجفة، كما أرعد أنا وأرجف، إذ يتولاني النوم. نعم إن تلك الذكريات، ذكريات الحياة والضحك، وذكريات الفرح الأرضيّ ستكون الأغنية التي أنام عليها، يوم أُحمل إلى ما وراء هذا العالم».

وقد تذكر إذ كتب لفظة «صاحبي» صديقه سيلين. وراح يقرأ ما كتب، ويتلو القصيدة مترنمًا به، وأدهشه ما خرج من قلمه.

ولكنه لم يلبث أن اشمأز من نفسه، وعاد إيمانه بذهنه يُضائِل في فؤاده ويصغر في أعماق روحه، فقذف بالدفتر في الدرج، وآوى إلى مضجعه.

ولكنه لم ينم قبل مطالع الفجر، إذ بدأت القنابر تتنزى فوق الشجر، وأصبحت السماء صفراء شاحبة اللون.

وفي اليوم التالي، بعد أن انتهى من الدرس، جلس في حجرة البليارد، وإذ ذاك دخلت عليه مدام سبياجين، فدارت بعينها في الحجرة متلفتة محاذرة، ثم دنت منه مبتسمة ودعته إلى الذهاب معها إلى مخدعها الخاص.

وكانت في ثوب فضفاض أبيض شفاف، ثوب بسيط للغاية، ولكنه جميل للغاية أيضًا، وتدلت حواشي كمها حتى المرفق، والتف حول خصرها شريط عريض من الحرير، وتماوج شعرها في جدائل ثلاث على عنقها.

كان كل شيء فيها يولم للناس على الحب، ويجتذب القلوب. نعم كل شيء فيها مستأسر مستعبد مستذل. رنوة عينيها المغمضة نصف إغماضة، ونبرات صوتها الحلو الغرد، وحركاتها البديعة، بل حتى مشيتها نفسها مادة الجمال كله.

ومشت بنجدانوف إلى مخدعها الفاتن الأنيق المتأرج بذي الأزاهر العابق بالروائح العطرية المنعشة وعَرْف أثواب النساء، نعم، بتلك الروح التي يرسلها في فضاء الحجرة وجود امرأة فيها أيامًا وشهورًا.

وأشارت إليه أن يجلس في مقعد كبير، وجاءت هي فجلست بجانبه، ومضت تسأله عن رحلته، وعن أسلوب ماركيلوف في عيشته، بلهجة حلوة لبقة فاتنة مظهرة اهتمامًا حقيقيًّا بشؤون أخيها، على الرغم من أنها لم تذكر اسمه ولا مرة واحدة أمام نجدانوف في غيابه.

ولم يغب عن فتنة نجدانوف أن يتبين من خلال حديثها أنها كانت تعرف ما كان بين أخيها وبين ماريانا.

وبدا عليها الحزن، ولكن لم يستطع نجدانوف أن يعلم هل كان حزنها لخيبة أخيها في حبه وإباء ماريانا أن تبادله ذلك الحب، أم أسفًا على أن اختياره وقع على فتاة كماريانا لا تليق به ولا تدانيه في مكانه.

ولكنها جعلت قبل كل شيء تحاول ملاطفة نجدانوف، وإزالة حيائه، وبعث روح الثقة في نفسه من ناحيتها، بل تمادت وأبعدت؛ إذ راحت تعتب عليه أنه لا يعرف عواطفها حق المعرفة.

وجلس نجدانوف يصغي إلى حديثها، وينظر إلى ذراعيها وكتفيها، ويلقي، بين آونة وأخرى، نظرة إلى شفتيها الورديتين وجدائل شعرها المرسل المتموج الغزير.

وكانت أجوبته أولًا مختصرة مقتضبة؛ إذ شعر بضغط في حنجرته وصدره، ولكن لم يلبث أن زال هذا الشعور وتولاه إحساس آخر مؤلم مثله، ولكن لا يخلو من حلاوة وعذوبة ولذة. إذ أدهشه أن تهتم به سيدة نبيلة حسناء مثلها، وهو الفتى الذي لم يكن في العالم شيء غير خريج معهد، وأن لا تهتم به فقط، بل تغازله وتلاطفه وتمازحه نعم، أدهشه ذلك منها، وعجب لذلك العجب كله، ولكنه لم يستطع أن يدرك غرضها الذي ترمي إليه من تلك الخلوة.

واسترسلت مدام سبياجين تتكلم عن كوليا، وتؤكد لنجدانوف أنها ودت أن تختلط به وتمازحه؛ لا لشيء سوى أن تتمكن من التحدث معه في أمر طفلها، وأن تتعرف آراءه في تربية النشأ الصغار.

ولكن لم يكن ذلك باعث هذه الخلوة، ولم تكن تحفل بتربية صغيرها كل هذا الاحتفال، بل لقد تغلبت عليها عاطفة نسائية حساسة. هي الرغبة في إذلال هذا الفتى الثائر المتمرد، وامتلاك فؤاده، حتى يأتي طائعًا فيتطامن ذليلًا عند قدميها.

وهنا لا بد من أن نعود إلى الماضي قليلًا.

كانت فالنتينا ميهايلوفنا ابنة ضابط برتبة «الجنرال»، ولم يكن أبوها رجلًا دؤوبًا ولا مطماعًا؛ فلم ينل في حياته غير وسامين فقط؛ جزاء له على خدمته خمسين عامًا في الجندية.

وكانت فالنتينا فتاة لعوبًا ماكرة بسيطة في مظهرها كالفتيات الروس أمثالها ولدّاتها. وقد استطاعت أن تستخدم هذه البساطة في المظهر لتجعل منه سحرًا وروعة وفتونًا، ولم يكن أبوها غنيًّا، فدخلت أحد الأديرة لتتلقى دروسها وعلومها الأولية، فلما خرجت من الدير، كان أبوها قد ارتحل عن هذا العالم. وكان أخوها قد انطلق إلى الريف، فأقامت مع أمها في طابق نظيف مقرور يرى الإنسان فيه أنفاسه وهي خارجة من فمه من أثر القر ونقاء الحجرة، وكانت فالنتينا تجعل ذلك موضوعًا للمزاح، وتقول إن سكناها في ذلك الطابق أشبه بمقامها في كنيسة.

ولكنها كانت صبورًا على احتمال تلك العيشة الفقيرة الضيقة صبرًا يستحق الإعجاب، إذا كانت حلوة الخلق، عذبة الطبيعة، راضية النفس.

وبدأت تتعرف إلى الناس، وتستعين بأمها على الدخول في بهرة المجتمع المهذب، حتى جعل القوم في أرقى الأسمار وأسمى ندوات الجمع يقولون عنها إذا ذكرت الفتاة الجميلة المؤدبة المهذبة.

فتزاحم الخطاب عليها، ولكنها وضعت من مبدأ الأمر عينها على سبياجين قبلهم جميعًا، ولم تلبث بسحرها ومهارتها أن جعلته يقع في حبها. وظن هو بعد ذلك أنه لم يكن مستطيعًا أن يقع على فتاة أفضل منها.

وكانت الفتاة ذكية طيبة القلب، ولكنها في أعماق نفسها باردة الروح هزاءة بالناس وعواطفهم، غير مكترثة بأحد، ومع ذلك لا تحتمل ولا تطيق أن ترى أو تتصور أحدًا غير مكترث بها، فكانت من تلك النسوة الحسان «الأنانيات» اللاتي لا يصبرن على رؤية رجل من الرجال مستقرًّا متحررًا من سلطانهن، غير آبهٍ بسطوة جمالهن.

وأمثال فالنتينا في النساء لا ينين يُثِرن ويقلقن نفوس الفتيان الغفل الأغرار، أهل الطبائع المتقدة، والعواطف الحارة الملتهبة، وإن كانوا يميلون إلى عيشة السكون، ويؤثرون حياة صامتة بعيدة عن الثورة النفسانية، في سلام وأمن ودعة.

ولهؤلاء النساء أمزجة صافية ساكنة، ولكن رغبتهن في حمل الرجال على الافتتان بهن، وتسويد سلطانهن على أعناقهم، واجتذاب الأفئدة بجمالهن وسحرهن، لا تلبث أن تردهن متهيجات خفيفات الحركة، مشرقات ثائرات، قلقات.

ولا يكون لهؤلاء النساء إلا إرادة حديدية. وأكبر فتنتهن وسحرهن في تلك الإرادة.

ولم تجد مدام سبياجين لمغازلة الرجال عناء أو مشقة؛ لأنها كانت تعلم أنه لا ضير عليها من الغزل ولا خطر، ولكن رؤية أعين الرجال تشرق بنظرات الحب، وتلتهب برنوات الاستكانة والذلة، وخدودهم تحمر حياء وخوفًا، وسماع أصواتهم وهي ترتجف عند خروجها من حناجرهم، وألفاظهم متلعثمة مضطربة لا تكاد تبين، بل شهود روح صغيرة تتعذب، وتبعث من هدوئها وتهتاج من سكونها، -يا ألله! ما أحلى وقع ذلك لديها وما أعذبها لذة لفؤادها. ولشد ما تروح طروبًا فرحة راضية عن نفسها إذا أقبل الليل، ومضت إلى فراشها الوثير الأبيض بلون الثلج، إلى نوم هادئ هانئ، لا ألم حوله ولا جزع ولا حزن. وإذ ذاك تتذكر كل تلك الكلمات المضطربة، والنظرات الخائفة، والرنوات الراعدة، والتنهدات الحارة التي جعلت تلك الأرواح المعذبة تعافيها أمام هذا الجمال الرائع الفاتن!

فأي رضى إذ ذاك وأي مسرة لنفسها إذ تعود إلى صفاء ضميرها وتدرك أنها بعيدة المنال من هؤلاء الصرعى الذين أرْدَتهم نظراتها، في مأمن من أيديهم، ونجوةٍ من خطرهم، وأي تنزل ومنحة عظيمة إذ تستسلم نازلة عن أوجْها إلى أحضان زوجها المؤدب!

لقد كان ذلك الإحساس ممتعًا لديها متناهي اللذة، حتى لقد أثار في لحظة ما شعورًا آخر، شعور الرثاء لهؤلاء الناس، والشفقة على صرعاها المساكين، والتنازل لهم قليلًا عن شيء من رضاها وابتساماتها. أو التكفير عن كبريائها بعمل صالح أو مبرة، وقد حدث مرة أن وقع رجل من ذوي السلطان في حبها، فأيأسته وناءت عنه بجانبها، فلم يجد الرجل خلاصًا غير أن نحر عنقه بسكينه، فأسفت لذلك الحادث، وفي سبيل التكفير عنه، أنشأت ملجأ للعوزة!

ومضت تصلي على روحه بحرارة، وإن لم تكن عميقة الإيمان.

وكذلك استرسلت في حديثها مع نجدانوف محتالة الحيل كلها لترده ذليلًا راكعًا عند قدميها.

وسمحت له بأن يدنو منها، وتكشفت هي له، وتدانت إليه، وجعلت تراقب هذا الفتى الثوريّ الحيّ المتمرد، منتظرة أن يرق ويذل ويلين لها عن طواعية واستسلام.

وكانت هي تنعم بتلك اللحظات وتجد فيها السرور العظيم لضميرها، وإن تبدد كل ذلك بعد ساعة أو يوم، فلا يصبح له أثر ما في نفسها أو بقية أو ذكرى.

وأنساها موقفها ذاك منشأ الفتى، فأرادت أن تزيل حياءه لعلمها أن أمثاله الفتيان الغرباء، يتولاهم هذا الحياء بعينه في حضرة المرأة الجميلة، فمضت تسأله عن قصة حياته وشبابه وعن أسرته وأبويه، ومنشأه وأصله ومنبته، ولكنها لم تلبث أن رأت من حركاته وأجوبته أنها قد أخطأت في تلك الأسئلة، فأرادت أن تتهرب من هذا الحديث، وتعود فتتخلع أمامه وتتظرف، وتتحبب إليه

وتتدانى منه وتتفتح على عينيه، كما تتفتح الوردة عن أوراقها في ظهيرة يوم صائف، ثم لا تني تتقبض وتحبس نفسها ثانية في أوراقها إذ يقبل المساء السجسج البارد.

ولكنها عبثًا حاولت التكفير عن خطئها ذاك، فقد ضربت بأسئلتها تلك على الوتر الحساس في فؤاده، فانزوى نجدانوف، وانكمش، وتعذب وتألم، وثار في أعماق روحه ذلك الإحساس الأليم الذي كان يشعر به كلما ذكرت قصة منشأه، وسر مولده، وللحال تذكر نصيحة باكلين له قبل قدومه إلى دار سبياجين فقال لنفسه:

«لم آتِ إلى هذا البيت لهذا الأمر».

وتحين فرصة سكون ساد عليهما لحظة، فنهض من مجلسه، وأحنى رأسه قليلًا، وأفلت هاربًا.

ولم يغب عن نظرات فالنتينا تأثره، وفرط جزعه وحيرته، فابتسمت وهي تنظر إليه عند خروجه، وعدت نفسها قد انتصرت بعض الانتصار الذي كانت تتوقعه.

وفي قاعة البليارد رأى ماريانا، وكانت واقفة وظهرها إلى النافذة عن كثب من باب مخدع فالنتينا، وهي مشبكة الذراعين.

فألقت نظرها على نجدانوف ورمقته بعينها، وقد بدا في وجهها مزيج من السخرية والشفقة إذ رأته خارجًا من ذلك المخدع.

فوقف هو حيران مندهشًا متعجبًا.

قال عن غير إرادة: «ألديك شيء تريدين أن تقوليه لي؟».

فظلت لحظة لا تجيب.

ولكنها قالت أخيرًا: «كلا. ولكن نعم، لديّ ما أقول، وإنما في وقت آخر».

قال: «متى؟».

فأجابت: «يجب أن تنتظر قليلًا. ربما غدًا. بل لعلي لن أقول شيئًا أبدًا...».

فقال نجدانوف: «ولكني أشعر في بعض الأحيان أن بيننا...».

فقاطعته ماريانا قائلة: «ولكنك لا تعرفني مطلقًا. إذَنْ تمهل. نعم. ربما غدًا أتكلم. إلى الملتقى حتى الغد».

فمشى نجدانوف خطوة أو خطوتين، ولكنه التفت وراءه بغتة.

وصاح بها: «وعلى ذكر ذلك، هل تسمحين لي بأن أذهب معك يومًا إلى المدرسة قبل انتهاء الدراسة؛ حتى أرى ماذا تصنعين هناك؟».

فأجابت ماريانا: «بكل سرور. ولكن ليس الموضوع الذي أردت أن أكلمك عنه يختص بالمدرسة».

فقال: «وعن أي شيء إذَنْ؟».

فعادت ماريانا تقول: «غدًا!».

ولكنها لم تنتظر حتى الغد، بل رآهما المساء يمشيان في الحديقة يتحدثان ذلك الحديث المرتقب.

***

وكانت هي التي مشت إليه أولًا.

قالت: «يلوح لي يا مستر نجدانوف أنك قد فتنت بجمال فالنتينا».

ومشت في ممر الحديقة غير مرتقبة جوابًا.

ومشى هو بجانبها.

قال: «ما الذي يحملك على هذا الظن؟».

فأجابت: «ألم يكن ذلك حقيقة! إذا كان الأمر كذلك، فقد سلكت اليوم أحمق مسلك. إنني لأتخيلها الآن وهي تحاول نشر شباكها وإلقاء شراكها المخيفة».

فلم يحر نجدانوف جوابًا، ولكنه نظر إليها بطرف عينه.

واسترسلت هي تقول: «ألا أصغ إليّ، فلا فائدة من المواربة والمغالطة. إنني لا أحب فالنتينا، وقد رأيت ذلك أنت وتبينته. وقد أكون ظالمة في كراهيتي لها، ولكن يجب أن تسمع دفاعي أولًا...».

وخانها صوتها وفاضت عواطفها، وكانت كلما فاضت العاطفة في فؤادها وجاشت، خُيِّل إلى الإنسان أنها غَضْبَى.

واسترسلت تقول: «إنك ولا ريب تسائل نفسك، لماذا جاءت هذه الفتاة المُتعِبة تقول لي كل هذا؟ كما جعلت تقول ذلك لنفسك ولا شك عندما كلمتك عن مستر ماركيلوف».

وانحنت قليلًا، فالتقطت زهرة، فبددت أوراقها بددًا وأطارتها في الريح...

فقال نجدانوف: «إنك على خطأ عظيم يا ماريانا. إذ بالعكس لقد سرتني تلك الثقة التي خصصتني بها».

ولم يكن نجدانوف في ذلك صادقًا، ولكن هذه الفكرة خطرت له إذ ذاك فقط.

فرمقته ماريانا بنظراتها لحظة، وكانت قبل ذلك مشيحة عنه بوجهها...

قالت بعد تفكير: «كلا. ليس ذلك تمامًا. إنك لا تزال غريبًا عني. ولكن مركزك ومركزي في الحياة متشابهان. نحن شقيان مبتئسان مكدودان. تلك هي الرابطة الوثيقة بيننا».

فقال نجدانوف: «وهل أنت شقية مبتئسة؟».

فأجابت هي تسأله بدورها: «وأنت، ألست شقيًّا مبتئسًا؟».

فلم يحر جوابًا.

قالت في عجلة: «هل تعرف قصة حياتي، وقصة نفي أبي، ألا تعرف ذلك؟ إذَنْ هاكها. قُبض على أبي وحُكم عليه، وجرد من رتبته وألقابه ومن كل شيء كان له، وأُرسل إلى سيبيريا، ثم لقي حتفه بعد ذلك، ولفظ أنفاسه الأخيرة. وماتت على أثره أمي أيضًا، فكفلني خالي سبياجين، ورباني وأنا اليوم عَيّلة عليه، وهو المحسن المتصدق، وأنا أرد إليهما هذا الصنيع كفرانًا وجحودًا؛ لأن لي قلبًا لا يحس ولا يشعر. ولكن خبز الإحسان مرير، وطعام الصدقة أمرّ منه، وأنا لا أستطيع أن أطيق الرعاية وأن أحتمل الصنيع ويُنظَر إليّ كما ينظر إلى المسكينة المتكففة الوكلة المعولة، وديدني أن لا أخفي شيئًا. فإذا أوذيت وأُهنت، فلا أستطيع بكاء ولا تذرف عينيّ العبرات؛ لأنني متكبرة لا أحتمل أن يراني الناس ندية العين...».

وكانت تسرع الخطى وهي تفوه بتلك الكلمات المتقطعة، وإذا بها وقفت فجأة واستطردت تقول: «ألا تدري أن زوجة خالي في سبيل التخلص مني تريد أن تزوجني بذلك اللعين المقيت كولومتزف؟! إنها تعرف آرائي ومبادئي، فأنا في نظرها فتاة عدمية فوضوية. ولكنه هو... نعم إنني لا أنكر أنه لا يحفل بي ولا يهتم؛ لأنني لست حسناء فاتنة المظهر، ولكن يمكن لزوجة خالي أن تبيعني بأي وسيلة. وأنا أعد ذلك أيضًا صدقة منها وإحسانًا».

فهمَّ نجدانوف بأن يقول: «فإذا كان الأمر كذلك فلماذا إذَنْ....».

فنظرت إليه ماريانا وقالت: «لقد أردت أن تقول لماذا إذَنْ لم أتقبل ماركيلوف؟ أليس هذا ما أردت أن تقول؟ فهاك جوابي: إنه رجل كريم القلب، ولكن ليس الذنب ذنبي... إنني لا أحبه»».

وتقدمت ماريانا بخطى واسعة حتى وصلا نهاية الممر، فعرجت على مضيق منعطف هناك يؤدي إلى أكمة من الشجر.

ومشى نجدانوف في أثرها.

وكان فؤاده نهبًا مقسمًا بين دهشتين؛ فالأولى أنه بهت وتولاه العجب إذ شهد من تلك الفتاة الصراحة التامة في حديثها معه، ثم من نفسه إذ لم ير شيئًا ينكره على صراحتها، بل لاحت في عينه طبيعية جميلة لا كذب عليها ولا شائبة للتصنع تشوبها.

ووقفت ماريانا في وسط الطريق ونظرت إليه في عينيه تقول: «يا عزيزي أليكسي ديمترتش، لا تحسب زوجة خالي امرأة شريرة. كلا، ليست كذلك، إنما هي امرأة مزهوة بنفسها أولًا وآخرًا، إنها امرأة ممثلة، «خداعة» منافقة. إنها تريد من كل إنسان أن ينحني لها ويطأطئ رأسه أمامها كقطعة فاتنة من جمال الأرض ويتعبدها كقديسة من القديسات. بل إنها لتبتكر حديثًا طريفًا، وتخترع قصة طلية حلوة، فتقولها لإنسان ما، ثم تجلس إلى رجل آخر فتعيدها على مسمعه، وتنتقل إلى ثالث فتتلوها عليه، بلهجة متقنة كأنما قد طرقت ذاكرتها لأول وهلة، وكأنما أُلهمت القصة في تلك اللحظة إلهامًا، وتروح تؤكد تلك القصة بألاعيب عينيها ورنوات طرفها الساجي الساكن. إنها تفهم نفسها أتم الفهم وتشعر بأنها «مادونا»، وتدرك أنها لا تحب في الدنيا مخلوقًا واحدًا. وإنها لتدعي دائمًا أنها قلقة على مستقبل كوليا، وأمر تربيته ونشأته. ولكنها في الحقيقة إنما تريد بذلك أن تفتح مواضيع للحديث مع أهل الطبقة الراقية؛ لتفتنهم بحسن أدبها وجمال آرائها. إنها لا تريد بأحد سوءًا. فهي الرقة مجسمة، ولكن دع كل قطعة من العظم في بدنك تتكسر أمام عينيها، فإنك واجدها لا تكترث بك ولا قلامة ظفر، ولن تمد أصبعًا واحدة لإنقاذك».

ووقفت ماريانا عن الكلام إذ خنق الغضب صوتها، ولم تستطع أن تتمالك جأشها فتركت لقلبها العنان، ولكنها لم تجد الألفاظ لها مسعفة.

وماريانا هذه من تلك المخلوقات المكدودة المسكينة التي امتلأت روسيا بها، والتي يرضيها العدل ولكنها لا تتهلل له ولا تطرب به. أما الظلم فهي أشد خلق الله شعورًا بوقعه، وإنها لتثور حياله متمردة من أعمق أعماق أرواحها.

وظل نجدانوف يراقبها طول مدة حديثها، وراعه منها وجهها المتورد وشعرها المقصوص المضطرب وتقلص شفتيها النحيلتين. ورأى فوق كل تلك نذيرًا مخيفًا، وجمالًا مدهشًا، وانعكست على جبينها أشعة الشمس وهي تنفذ من خلال أغصان الشجر، فكأنما لاحت قطعة من الذهب فوق عارضها المستهل.

وكانت لغتها المتوقدة الملتهبة الحارة منسجمة مع وجهها المتورد.

قال نجدانوف أخيرًا: «ألا نبئيني لِمَ تظنيني مبتئسًا غير سعيد، أتعرفين عني شيئًا؟».

فأجابت: «نعم».

قال: «وما ذاك الذي تعرفين. أكلمك أحد عني؟».

قالت: «أعرف قصة مولدك».

قال: «ومن ذا نبأك بها؟».

فأجابت ماريانا: «طبعًا فالنتينا، التي تعجب بها كثيرًا. إذ قالت يومًا أمامي وهي مارة بي، كما تعرف من خلقها، إن في حياتك حادثًا غريبًا، ولم تكن لهجتها لهجة رثاء ومؤاساة، وإنما ذكرت كلمتها تلك كامرأة مهذبة راقية الفكر، متخلصة من عقائد الناس وآرائهم، ولا يغريك هذا بالعجب، فما تفتأ تلك المرأة تقول لكل زائر ينزل بدارها وكل ضيف يجيء إلى قصرها إن أبي نُفي إلى سيبيريا؛ لأنه ارتكب جريمة الرشوة. وتقول ذلك باللهجة عينها التي قالت بها كلمتها عنك، ومهما عَدّت نفسها امرأة نبيلة من طبقة الأشراف، فهي لا تعدو امرأة فضّاحة ساخرة بعواطف الناس، هزاءة متصنعة خداعة متكلفة. هذه مادونتك العزيزة يا مستر نجدانوف».

قال: «ولِمَ مادونتي أنا على الخصوص؟».

فولت ماريانا وجهها عنه، ومشت في طريقها منحدرة في الممشى.

وعادت تقول وقد تهدج صوتها: «لأنكما خلوتما إلى حديث طويل اليوم».

فقال نجدانوف: «ولكني جلست صامتًا، لم أَفُهْ بكلمة واحدة، ومضت هي تتكلم وحدها منفردة بالحديث كله».

فمشت ماريانا في صمت، وانعطف بهما الطريق إلى قطعة من الأرض كستها الطبيعة ثوبًا من الخضرة، وفي ناحية مقعد من الخشب قد تراخت فوقه أغصان شجرة عظيمة.

فتقدمت ماريانا إلى ذلك المقعد وجلست، واتخذ نجدانوف مجلسه بجانبها.

وتموجت أفنان السرحة فوق رأسيهما في رفق ودعابة رقيقة.

وحولهما تهادت أعواد زنبق الوادي، تنظر إليهما من خلال الحشائش.

وقد عبق المكان كله بأريج عذب حلو ينعش الأرواح.

وبدأت ماريانا الحديث.

قالت: «أتريد حقًّا أن ترى المدرسة؟ إذَنْ يجب عليّ أولًا أن أنذرك بأنك لن تجد في تلك المدرسة شيئًا يروقك أو يقع من فؤادك. وقد سمعت من قبل أن المعلم الأول في مدرستنا هو القسيس، وهو ليس بالرجل الرديء، ولكنك لا تستطيع أن تتصور أي سخافات يصبها في أسماع الأطفال. وفي الصبية غلام يُسمَّى جاراسي يتيم في الحول التاسع من العمر وهو أذكى الولدان جميعًا، وأحضرهم بديهة وأقواهم حافظة».

وكذلك غيرت ماريانا الحديث، وتغير معه وجهها، إذ اشتد شحوب وجهها، وسكنت ثورة نفسها، ولاحت على محياها دلائل الحيرة والارتباك، كأنما قد ندمت على أنها احتدت وفاض فيضها من قبل.

ولا ريب في أنها أرادت بتغيير شجون الحديث أن تفتح سبيلًا للمناقشة في أي موضوع من موضوعات الجدل، كالمدرسة، أو الفلاحين، أو القضية الروسية، إذ آثرت ذلك على أن تمضي راكضة في حديثها الأول.

وقال هو: «أي ماريانا، إذ أردتِ أن أكلمكِ بصراحة، غير مؤارب أو متصنع، فاعلمي أنني لم أكن أتوقع ما وقع بيننا، وإنه ليلوح لنا أننا قد أصبحنا على غرة منا..

صديقين حميمين متفتحي الصدر للود والولاء. وهذا ما كان ينبغي أن يحدث، فقد ظللنا هذه الأيام التي انصرمت نتقارب ونتدانى إلى هذه الصداقة الحلوة العميقة المستفيضة، وإن لم نظهرها في كلمة أو نبديها في ألفاظ وكلمات. ولهذا سأنفض لك ما في فؤادي صريحًا غير متعمل أو مغالط. إن الحياة ولا ريب تلوح لك هنا متجهمة مريرة، لا تسيغها نفسك ولا ترضى عنها روحك المتقدة. ولكن خالك وإن بدا ضيق المضطرب محدود العاطفة، لا يزال رجلًا رقيق الجانحة مما أرى من ناحيته، وأشهد من وجهه وسمته، فهل ترينه يدرك مركزك في داره، ويحنو إليك ويرعاك بمحبته».

فأجابت ماريانا: «أول كل شيء يجب أن تعلم أن خالي ليس إنسانًا... بل موظفًا في الحكومة، نائبًا، أو وزيرًا أو مديرًا. لا أدرى أيها أحق به وأقرب إلى لقبه. وثانيًا لا أريد شكاة، ولا أود تململًا وتسخطًا، ولا أحب أن أُسيء القول في حق أناس لغير سبب. وليست العيشة ثقيلة عليّ هنا معنتة شاقة؛ إذ لا أجد أحدًا يتداخل في شأني، أو يضع إذنه أو يده في عملي. أما دعابات زوجة خالي ونكاتها وتفائه سخرياتها، فلا تكاد تقع عندي شيئًا، ولا أنا ممن يحتفل بها أو يغضب من وقعها. إنني فتاة حرة طليقة السراح، مرسلة لإرادة...».

فنظر إليها نجدانوف نظرة حيرة وذهول، وقال: «إذا كان الأمر كذلك فيخيل إليّ أن كل ما نبأتني به الساعة...».

فقاطعته قائلة: «لك أن تضحك مني إذا شئت وتسخر. فإذا أنا قلت عن نفسي إنني محزونة شقية مبتئسة، فما كان ذلك لآلامي الخاصة ومبائسي وأحزاني. إنني أتألم وأتعذب لأولئك الأشقياء، وأعاني الحزن للمظلومين في وطني كله، والعانين والمرهقين والفقراء والمساكين المكدودين في روسيا بأسرها. كلا. لم أحْسِن تصور عاطفتي. ألا اعلم إذن أنني غاضبة لهم ثائرة، متمردة من أجلهم، خارجة عن سلطان نفسي وسلطان العالم كله. إنني متأهبة أن أمشي إلى المشنقة لأجلهم. فإذا أنا كنت تعسة محزونة، فما ذلك إلا لأنني فتاة صغيرة، طفيلية حقيرة حشرة وكلة على الناس. وإلا لأنني عاجزة عن أن أؤدي لهم شيئًا أو أحدث في سبيلهم حدثًا. نعم لا أستطيع شيئًا. وعندما ذهب أبي إلى سيبيريا... وبقيت أنا مع أمي في موسكو، لي الله، لطالما تقت إلى الذهاب معه، وصبوت إلى السفر في رفقته، وما كان ذلك لأنني كنت أحبّ أبي أشد الحب أو أحس له أشد الاحترام، كلا، وإنما أردت أن أرى بعيني كيف يعيش المنفيون رهائن الأسر، قعائد المنفى. ولشد ما اجتويت هؤلاء المترفين الناعمي العيش، الذين يرفلون في الدمقس، ويسكنون إلى الدعة، وتطمئن بهم الحياة، ويغتذون عدة الصحاف وألوان الطعام الفاخر الشهي. فلما عاد من منفاه بعد ذلك، ورجع من ذلك المكان النبيذ القصي. جريح الروح، متحطم النفس ضاويًا مهزول البدن، وأنشأ يكدح ويكد ليصلح ما أفسد.

واهًا. واهًا. لقد كان ذلك ويلًا وشناعة وهولًا. لقد أحسن والله بموته، وكان خيرًا أن ارتحل، ثم أمي أيضًا. ولكن يا لسوء الحظ، لقد تُركت وحيدة، ولمَ تُركت؟! لا لشيء سوى أن أشعر من نفسي بطبيعة سيئة شريرة، وأحس أنني فتاة ناكرة الصنيع جاحدة الروح وأن لا هدوء حولي، ولا سكينة تنعم بها نفسي، وإنني عاجزة عن تأدية عمل ما، أو الإجداء على مخلوق من مخلوقات الله».

وأشاحت ماريانا بوجهها، وامتدت يدها على المقعد، على غير إرادتها.

وشعر نجدانوف بالحزن لها والرثاء لآلامها.

فتحسس تلك اليد الذاوية الممتدة المتساقطة!

ولكن ماريانا نزعت يدها منه بسرعة، ولم يكن ذلك منها إذ غضبت لفعلة نجدانوف أو تألمت منه لها، وإنما نهض في نفسها شعور آخر، شعور أرهب من ذلك؛ وهو أنها لا تريد أن يشعر من ناحيتها أنها بحاجة إلى المؤاساة، أو أنها تريد تعزية أو رثاء.

ومن خلال أغصان الشجر لاح لهما ثوب امرأة.

فاستوت ماريانا في جلستها، وتباعدت في المقعد قليلًا.

قالت «انظر. لقد أرسلت مولاتك، مادونتك، جاسوسًا من جواسيسها. إن هذه الوصيفة التي لاح لك ثوبها لا تترك مراقبتي، ولا تني تمشي في إثري، وتتبع خطواتي، ثم تحمل إلى سيدتها ما تراه مني، وتنبئها بالمكان الذي أنا فيه، والجليس الذي أحادثه، والإنسان الذي أماشيه. ولقد يخيل إليّ أن زوجة خالي علمت أنني معك، ورأت أن ذلك لا يروق لها ولا يخلق بي، ولا سيما بعد تلك الخلوة وذلك الفصل الرقيق الذي مثلته اليوم أمامك. ولكن على كل حال، لقد آن لنا أن نعود إلى القصر. هلم بنا».

قالت ذلك، ونهضت من مجلسها، واستوى نجدانوف كذلك واقفًا.

وألقت عليه نظرة من فوق كتفه، وللحال عمّ محياها طائف غريب، فبدا وجهها كالأطفال في حيرتهم الجميلة.

قالت: «إنك لست مغضبًا مني. أليس كذلك؟! إنك لا تظنني كنت في كل ما قلت أو شرحت محاولة أن أكتسب مودتك وأستثير عطفك. كلا. إنني واثقة أنك لم تظن هذا الظن».

وقبل أن تدع لنجدانوف فرصة للجواب، استرسلت تقول: «إنك مثلي، بل وفي مثل أحزاني وشقوة نفسي، وطبيعتك... شريرة كطبيعتي. إننا نستطيع أن نذهب معًا إلى المدرسة غدًا. نحن الآن صديقان على أحب ما يكون الصديقان. ألسنا كذلك؟».

وأقبلا يدنوان من القصر.

ووقفت فالنتينا في الشرفة تنظر إليهما بمنظار طويل، ثم ما لبثت أن هزت رأسها في رفق، وافتر ثغرها عن ابتسامة لطيفة، ثم قفلت راجعة من باب الشرفة الزجاجيّ إلى حجرة الاستقبال، حيث كان زوجها جالسًا مع جار له شيخ أترم يتحدثان.

وقد كان هذا الضيف قد سقط على سبياجين والشاي على استعداد..

فتأففت فالنتينا وتبرمت وراحت تقول متسخطة، وهي تشدد على كل مقطع من ألفاظها: «ما أشد رطوبة الهواء. إنها لمفسدة للصحة».

فنظر نجدانوف إلى ماريانا، فبادلته هذه نظراتها.

فلما سمع زوجها كلمتها تلك ألقى عليها نظرة وزارية متفحصة عمتها من رأسها إلى أخمص قدمها، ثم تولى عنها بعينه، فمضى ينظر إلى ماريانا ونجدانوف، وكانا قادمين في منذ لحظة فقط من الحديقة المظلمة، تلك النظرة الناعسة الباردة البعيدة النافذة...

وانصرم أسبوعان.

ومضى كل شيء في القصر على حاله ونظامه وعادته.

وعيَّن سبياجين لكل فرد من أهل بيته عمله، وفرض عليهم واجباتهم إن لم يكن في عظمة الوزير، فعلى الأقل أشبه شيء بمدير إدارة ورئيس مصلحة، وظل كعادته مزهوًّا متعالي الرأس رفيقًا رحيمًا، لا يكاد يجد في شيء مسرة نفسه، واستمر الصبيّ كوليا على تلقي دروسه. ومضت العجوز حنة زهروفنا على سخطها وتبرمها بالفتى نجدانوف، إذا اغتصب منها رعاية ذلك الطفل، وجاء الأضياف ومضوا وتحدثوا وانصرفوا، ولعبوا الورق وتناولوا الطعام، غداء أو عشاء، ولم يبد على وجوههم أي أثر للسآمة أو الملل.

وظلت فالنتينا تداعب نجدانوف، وتتلهى بالتظرف له. وإن راحت رقتها اليوم ممزوجة بقليل من التهكم اللطيف، والعبث المقبول.

وأصبح نجدانوف صديقًا حميمًا لماريانا وائتلف الروحان، ورأى نجدانوف أنها تشبهه في كثير من نزعات نفسه وعوارض مزاجه الحاد، وأنه لا يشق عليه أن يدخل معها في جدل دون أن يجد منها معارضة ثوارة شديدة.

ومضى معها إلى المدرسة مرة أو مرتين. ولكنه رأى من الزيارة الأولى أنه لا يستطيع عمل شيء فيها، فقد كانت المدرسة تحت إشراف القسيس، وموافقة سبياجين وإشاراته وأوامره.

ولم تلبث المدرسة أن أغلقت أبوابها، إذ أقبل الصيف، فلا تفتح حتى يحل الخريف.

وحاول نجدانوف بكل قواه أن يختلط بالفلاحين، عملًا بنصيحة باكلين له، ويمتزج بالعاملين في الأرض، والقرويين السذج، ولكنه لم يلبث أن رأى أنه لم يفعل شيئًا في هذا السبيل، بل وجد نفسه بحاجة إلى فهمهم أولًا وإدراك نزعات أرواحهم، ولم يقم بنشر الدعوة بتاتًا.

وقد عاش نجدانوف العمر كله في المدينة، ولذلك رأى بينه وبين أهل الريف هوة سحيقة لا يستطيع عبورها.

واتفق له أن تحدث وجمعًا من الفلاحين، ولكنه لم يستطع أن يشرح لهم غرضه، ولم يستطيعوا أن يفهموا كلمة واحدة من كلامه.

وكتب أخيرًا رسالة إلى صديقه سيلين شرح فيها ما وقع برمته، وندم الندم كله وأسف لعجزه وقلة حيلته مع الفلاحين، وأحال ذلك العجوز وأرجعه إلى التربية الحقيرة المهينة التي ترباها ولطبيعته الخيالية التي لا صلاح لها، ولا أمل يُرجى من ناحيتها.

وانتهت به حيرته إلى أن اعتقد أنه لن يستطيع شيئًا في سبيل نشر الدعوة، من ناحية الخطابة والإقناع الكلامي، وأن لا مقدرة له على شيء غير القلم والكتابة والرسائل الثورية.

ولكن الكتب والرسالات التي اختط خطتها لم تفلح ولم تظهر أثرًا أو تُجْدِ أي جدوى.

وبدا له أن كل ما سوَّد به الصحف وكتبه على الورق، لم يكن صادقًا، بل كان متكلفًا متعملًا، في لهجته وأسلوبه. ورأى نفسه -ويا هول ما رأى إذ ذاك- أنه قد انحرف إلى الشِّعر، وفاض منه فيض الخيال.

فأجمع نيته أن يكلم ماريانا في أمر ضعفه ذاك، حتى يكون ذلك رمزًا على الألفة التي بينهما والثقة العميقة المتبادلة.

ولكن لشد ما كانت دهشته إذ رأى ماريانا ترثي لذلك الضعف نفسه، وكانت هي أيضًا تعاني مرارته، وتجد في أعماق روحها أشد الألم منه.

وكان احتقار ماريانا لتلك الروح الخيالية عظيمًا في صدرها، ولا يقل عن سخريته هو منها واحتقاره، ولكن على الرغم من تلك الكراهية التي كانت تجدها لتلك الروح الخيالية، لم يكن رفضها الزواج بماركيلوف إلّا لأنه لم يكن خياليًّا في أعماق نفسه!

ولكنها لم تكن لتعترف بذلك ألبتة. ولذلك ترى أشد أدوائنا تغلغلًا في صدورنا، لا تزال لدينا سرًّا مكتومًا لا نستطيع له اعترافًا أو مجاهرة.

وكذلك مرت الأيام هادئة مترفقة متباطئة، على وتيرة واحدة.

وبدأ تطور جديد يظهر آثاره في فؤاد نجدانوف.

رأى نفسه متسخطًا كارهًا لنفسه، متبرمًا بجموده، وراح يأخذ نفسه باللوم، ويعتب عليها العجز، ولكن في أعمق أعماق وجدانه ظل ثمة إحساس آخر كامنًا مستقرًّا هادئًا في مكانه، وذلك شعور بالسعادة يهدئ ثورة روحه، ويرسل السكينة في حنايا ضلوعه.

فهل كان باعث ذلك الشعور حياة الريف الهادئة الوديعة، والصيف المتجمل المتلطف والنسائم العليلة، والغذاء الدسم الشهيّ الفاخر والمسكن الجميل، والحديقة الضاحكة، أم ذلك لأنه لأول مرة في حياته راح يذوق عذوبة الاقتراب من روح امرأة؟

ذلك ما لا نستطيع أن نهتدي إليه، ولكنه شعر بالسعادة، وإن شكا أو تشكى أو تبرم أو تململ، معترفًا لصديقه سيلين، مهما كان صادقًا في شكواه، وفيًّا في ألمه.

ولكن لم تلبث تلك اللذة البديعة أن تبددت في يوم واحد.

في صبيحة ذلك اليوم بعينه تلقى نجدانوف رسالة من الزعيم نيقولوفتش يأمره فيها بأن لا يضيع هو ولا ماركليوف فرصة تسنح لهما للتعرف بسولومين والاختلاط بتاجر في تلك الولاية يُدعى جولوشكن.

فهاج لهذه الرسالة هائجُهُ إذ تبين له منها لهجة العتب على عجزه، والتلوم على جموده، وإذا ذاك نهض ذلك الألم الذي كان كامنًا في قرارة روحه وجاش وعم أجزاء نفسه كلها.

وجاء كولومتزف إلى العشاء قلقًا متهيج النفس، ثائرًا، ومضى يقول والدموع تكاد تفيض من عينيه: «هل تصدق أي شنائع قرأتها في الصحف! إن صديقي ميشيل المحبوب الأمير الصربي قد قُتل في بلجراد إذ اغتاله شقي من الأشقياء. ولا ندري ماذا سيكون مصيرنا إذا لم نضرب على أيدي هؤلاء اليعقوبيين الثوريين المجانين! إذ ليس أحد منهم في صربيا، وإنما هم الثوريون من أهل هذه البلاد الذين يريدون أن يرسلوا عدواهم طاغية على بلاد الله كلها».

وكذلك مضى كولومتزف يقص على الجلوس تاريخ الأمير المقتول، وكيف كان يحبه أعظم الحب ويذكر البندقية الجميلة التي أهداها إليه، ثم تعب من هذا الحديث الطويل وأفرغ ما في جعبته من قصصه، ولم يلبث أن عاد يشتم العدميين الروسيين، وينحي على الاشتراكيين من قومه باللائمة، ويكيل لهم اللعنات جزافًا غير مطفف، وانتهى به الأمر إلى الغضب والهياج، فأمسك برغيف من الخبز فأهوى عليه بسكينه يشقه نصفين، ويقذف بقطع منه في صحفة حسائه، وصاح إنه سيقطع أي مخلوق يجترئ على معارضته في آرائه إربًا كرغيفه ذاك.

وتلك كانت كلماته: «لقد آن الأوان».

وتمهل لحظة، ورفع المعلقة إلى فمه وراح يقول: «نعم. آن الأوان».

ثم أمسك مرةً أخرى عن الكلام، ومد يده بالقدح إلى الخادم ليملأه شرابًا.

ونظر إلى نجدانوف نظرة كأنما يريد أن يقول: «خذ هذه، إنني أعنيك بها، وسيصيبك مني أكثر منها وأزيد».

فلم يستطع نجدانوف أن يتمالك جأشه، وابتدأ يعارضه في آرائه. بصوت متهدج –لا عن خوف بلا ريب- ويدافع عن مبادئه ومبادئ الجيل الجديد وأمانيه وعلالاته.

فلم يكن من كولومتزف إلا أن انطلق في صياح وغضب وشتيمة وسباب.

أما سبياجين، فاتخذ صف نجدانوف، وعمد إلى تأييده والانتصار له. وانحازت فالتنينا بالطبع إلى جانب زوجها، وحاولت زهروفنا العجوز أن تلفت إليها أنظار كوليا، وجعلت تنظر إلى كل إنسان في الحجرة نظرات الغضوب. وجمدت ماريانا في مكانها كأنما قد ارتدت دمية من الحجر.

وانطلق كولومتزف يتكلم عن صديقه لاديسلاس ويقول عنه: «عزيزي لاديسلاس» ولا يترك العودة إليه من حين إلى آخر.

فلم يلبث نجدانوف أن احتدم غيظه، فألقى راحة يده بشدة فوق المائدة وصاح وقد انفجر غيظه: «يا الله من هذه الحجة الثبت الثقة! كأننا لا نعرف من هو لاديسلاس هذا! رجل ولد جاسوسًا ونشأ جاسوسًا لا أكثر ولا أقل!».

فاختنق صوت كولومتزف من شدة الغضب وقال: «ما.. ذا.. ماذا... قلت؟ كيف تجترئ أن تقول هذا عن رجل يحترمه مثل البرنس بلاسنكرامف وكالبرنس كوفريشكن!».

فهز نجدانوف كتفيه وقال: «شفاعة طيبة. وهل كثير أن يحترمه رجل كالبرنس كوفريشكن وهو من نعرف. ذلك الحقير الوضيع السافل...».

فصرخ كولومتزف قائلًا: «إن لاديسلاس صديقي. ورفيق صباي وأنا...».

فقاطعه نجدانوف بقوله: «وهذا شر عليك، ومذمة كبرى نضيفها إلى مذامك. إذ معنى ذلك أنك تشاركه في آرائه. وإذا صح ذلك، فإن كلماتي التي قلتها عنه تنطبق عليك أنت كذلك».

فاصفر وجه كولومتزف اصفرار الموتى من شدة الغيظ، وصاح يقول: «ماذا تقول؟ وكيف اجترأت؟ ينبغي أن تُحمل حالًا... وعلى الفور...».

فقال نجدانوف مقاطعًا بأدب متهكم وعبث رقيق: «إلى أين تريد أن أُحمل على الفور يا حضرة...».

ولا يعلم إلا الله ماذا كان مصير هذه المشاجرة العنيفة، وماذا كانت مؤديةً إليه. إذا لم يوقفها سبياجين من مبدئها، إذ رفع صوته وتظاهر بالغضب، حتى لا يكاد الإنسان يعرف من مظهره ذاك إذا كان ذلك منه هيبة الرجل السياسيّ الخطير، أو كرامة رب البيت، وقال إنه لا يحب أن يسمع على مائدته ألفاظًا كهذه متطرفة خارجة عن الحد، وإنه وضع لنفسه منذ أمد طويل قاعدة مقدسة وهو أن يحترم عقيدة كل إنسان، ويستمع إلى كل رأي مهما كان، ما دام في حدود الأدب. وإنه لا يسعه من ناحية إلا أن يلوم نجدانوف على كلماته الغاضبة الشديدة الجافة، وإن كان يُعذر في ذلك لصغر سنه وحدة شبابه، وإنه من الوجهة الأخرى لا يستطيع أن يوافق مستر كولومتزف على حملاته الشعواء على أناس يخالفونه في مذهبه، وإن تكن حملاته بلا ريب ترجع إلى حميته وغيرته على الصالح العام.

ثم تمهل لحظة، وانعطف في حديثه يقول: «تحت سقف بيتي. نعم تحت سقف سبياجين ليس ثمة يعقوبيون ولا ثوريون ولا جواسيس، بل قوم أوفياء مخلصون حسنو النية، وهم خلقاء بأن يتصافحوا بالأيدي، إذا تفاهموا، وتصالحوا فيما بينهم».

فلم يَفُهْ نجدانوف ولا كولومتزف بكلمة واحدة بعد ذلك، ولم يمدا أيديهما للتصافح؛ إذ لم يحن الوقت بينهما للتفاهم، بل لم تشتد كراهية كل منهما لصاحبه من قبل مثل ما اشتدت في تلك اللحظة.

وانتهى العشاء في صمت ثقيل، وسكون يزهق الأنفاس.

وحاول سبياجين أن يقص على الحضور حديثًا سياسيًّا فكهًا، ولكنه لم يلبث أن سكت عنه وقد بلغ نصفه.

وظلت ماريانا واضعة عينها على صحفة الطعام التي أمامها؛ إذ لم تكن تريد أن ينم عليها وجهها أمام القوم، ويدلهم محياها على مشاركتها نجدانوف في عواطفه وعقيدته.

ولم يكن ذلك عن خوف في فؤادها، وإنما أرادت أن لا تجعل لفالنتينا فرصة سانحة للعبث بها والسخرية منها، ومحاولة قهرها وهزيمتها. وقد شعرت بنظرات تلك المرأة تكاد تلتهمها التهامًا.

وفي الحق لم تترك فالنتينا طول مدة ذلك الجدل وبعده النظر إلى نجدانوف وإليها.

وسقط عليها انفجاره الفجائي، وحدته المباغتة، كشيء مدهش أحارها، ووقع منها موقع الأمر الطارئ المخيف الرائع، ولكن لم تكد تمضي لحظات قلائل، حتى علا وجهه دليل شعور آخر، فلم تستطع أن تغالب نفسها إذ تمتمت: «رباه!».

نعم، أدركت إذ ذاك أن نجدانوف قد أفلت من يدها، وتخلص من سحرها، نجدانوف الذي كان منذ مدة غير بعيدة يكاد يقع بين ذراعيها، ويحتويه صدرها. فلم تنِ أن قالت لنفسها: «لا بد من أنه قد حدث شيء جديد. ما هو؟... أتكون ماريانا السبب؟ نعم. هي ماريانا لا غير. إنها تحبه... وهو...!».

وختمت نجواها بقولها: «لا بد من العمل!».

وبينا كان كولومتزف يختنق من الغضب حتى لقد جعل يقول وقد جلس إلى لعبة الورق، بعد ذلك الجدل بساعتين، تلك الكلمة المألوفة في اللعب وهي «باسْ» بقلب موجع، ولهجة مريرة، وعبوسة ظاهرة. وقد بدا في صوته أثر عزة نفسه المجروحة، وغضبه لكرامته المزهوة المضيعة، وإن راح يعلن أنه يحتقر هذه الصغائر، ويُذري بتلك السخافات!

وكان سبياجين في الحقيقة الرجل الوحيد الذي تلهى بذلك المنظر وسُرّ منه؛ فقد مهد له فرصة حلوة لإظهار قوة بيانه وسحر بلاغته وقدرته على تسكين العاصفة الناهضة، وتهدئة الزوبعة الثائرة.

* * *

ولما رأى نجدانوف فرصة للإفلات من الحجرة، خرج يريد مخدعه.

وأغلق عليه الباب بالقفل إذا احتوته غرفته.

فقد كره أن يرى مخلوقًا من مخلوقات الله، إلا إنسانًا واحدًا لعمري، وهو.. ماريانا**!**

وكانت حجرتها في نهاية دهليز طويل يشق الطابق الأعلى.

ولم يزرها نجدانوف في حجرتها إلا مرة واحدة، ولم يتمكث يومذاك غير بضع دقائق.

ولكن لاح له في تلك اللحظة أنها لن تتألم ولن تغضب، إذا هو دق باب حجرتها في تلك الساعة، بعد أن تبين له وهو في حجرة الاستقبال أنها كانت تريد أن تخلو إلى حديث معه.

وكانت الساعة متأخرة، إذ كانت العاشرة مساء.

ولم ير صاحب البيت وزوجته حاجة إلى إزعاجه بعد الذي حدث منه على المائدة.

واستفسرت فالنتينا مرة أو مرتين عن ماريانا؛ لأنها اختفت أيضًا بعد العشاء.

وسألت فالنتينا من حولها أولًا باللغة الروسية: «تُرى أين ذهبت ماريانا؟»، ثم عادت تكرر السؤال بالفرنسية دون أن توجه سؤالها لأحد من الجلوس خاصة، بل قذفت به عرضت الحائط، وراحت تسائل الجدران، كما يفعل الإنسان في أغلب الأحايين؛ إذ تتولاه الدهشة من أي أمر من الأمور، ولكنها لم تلبث أن انشغلت بلعب الورق عن كل شيء.

وجعل نجدانوف يخطو في الحجرة ذهابًا وجيئة، ثم خرج ومشى في الدهليز، ووقف بباب ماريانا يدقه دقات خفيفة رقيقة.

ولم يسمع جوابًا.

فعاد يدقه ثانية، ولما لم يتلق ردًّا، أدار الأكرة في يده.

لقد كان الباب موصدًا بالقفل.

فعاد أدراجه إلى حجرته.

ولكنه ما كاد يجلس لحظة، حتى سمع صرير الباب وجَرْس ماريانا وهي تقول له: «أليكسي، هل أنت الذي جئت إلى مخدعي لتبحث عني؟».

فوثب من مجلسه وعدا إلى الدهليز.

ورأى ماريانا واقفة ببابه تحمل مصباحًا في يدها، وهي شاحبة الوجنة جامدة في مكانها لا تتحرك.

فتمتم نجدانوف يقول: «نعم. أنا...».

فقالت: «إذَنْ هلمَّ بنا».

وانطلقت منصرفة في الدهليز، ولكنها لم تكد تبلغ نهايته، حتى وقفت ودفعت بابًا صغيرًا.

فدخل نجدانوف الحجرة، فإذا هي غرفة صغيرة تكاد تكون عاريةً عن الرياش.

وقالت ماريانا: «خير لنا أن نجلس هنا؛ حتى لا يزعجنا أحد».

فأطاع نجدانوف.

ووضعت ماريانا المصباح على خشب النافذة، والتفتت صوبه.

وبدأت الحديث.

قالت: «إنني أدركت لماذا أردت أن تزورني في حجرتي. نعم. لقد أصبح العيش في نظرك هنا أليمًا معذبًا مضنيًا. ولي كذلك».

فأجاب نجدانوف: «أجل، لقد أردت أن أراكِ يا ماريانا، ولكني لا أشعر بالألم من عيشي في هذا القصر، بعد ما عرفتكِ ورأيتكِ».

فابتسمت مارينا ابتسامة هادئة وقالت: «شكرًا لك يا أليكسي. ولكن نبئني أحقًّا تنوي البقاء في هذا البيت بعد كل الذي حدث الليلة؟».

فأجاب نجدانوف: «لا أحسبهم يبقونني في خدمتهم بعد الذي كان... نعم. سأرفض!».

فقالت ماريانا: «ولكن ألا تنوي الذهاب من تلقاء نفسك قبل أن تسمع منهم كلمة الرفض!».

قال نجدانوف: «أنا... كلا!».

فعادت تسأله: «ولماذا؟».

فأجاب نجدانوف: «أتريدين الحق. ذلك لأنك هنا؟».

فأطرقت ماريانا برأسها ومشت مبتعدة قليلًا ناحية من الحجرة.

واستطرد نجدانوف في حديثه فقال: «ثم يجب عليّ كذلك البقاء في هذا البيت. إنكِ لا تعرفين شيئًا عني. ولكني أريد بل أشعر بأنه يجب عليّ أن أنفض لك جميع أمري».

ودنا من ماريانا، وتناول يدها.

فلم تجتذبها الفتاة منه، وإنما مضت تنظر إليه في وجهه.

وصاح هو بشيء من الحمية الفجائية:

«ألا استمعي إليّ!».

وفي الحال. قبل أن يعود إلى مجلسه، بل وهو واقف أمامها، ممسك بيدها في راحته، طفق يقص عليها، بحمية مستفيضة متقدة، وبلاغة متدفقة، دهش نفسه لها وتحير، جميع خططه ونواياه واعتزاماته، والباعث الذي ابتعثه على قبول الخدمة في دار سبياجين، وأسماء أصدقائه وأصحابه وماضيه. ومضى يكشف لها عن خبيئة صدره، ويتلو عليها ما كان يكتمه عن العالم أجمع.

فنبأها عن علاقته بالزعيم فاسيلي ورسائله. ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة من أمور حياته إلا ذكرها لها. حتى سيلين صديقه الذي كان يبعث بكتبه إليه!

وكان يتكلم بعجلة دون تمهل أو تردد، كأنما كان يلوم نفسه على أنه لم يودع تلك الأسرار كلها في ذمته من قبل، وكأنما كان يستميحها الصفح عنه؛ إذ أمسك عنها تلك الأنباء، ويسألها التجاوز عن خطئه في كتمانها عنها.

وكانت هي تصغي إلى حديثه بكلية نفسها، بل كانت تلتهم كلماته وتشرب ألفاظه، وبدت عليها الحيرة في أول الأمر، ثم لم يلبث هذا الشعور أن تولى عنها وتبدد من نفسها.

وكان فؤادها قد طفا وامتلأ شكرًا وعزة وإخلاصًا وتضحية وصرامة عزم.

وأشرق وجهها، وبرقت عيناها. ووضعت يدها الأخرى فوق يد نجدانوف.

وانفتحت شفتاها قليلًا في سرور عظيم ولذة ناعمة لا توصف.

لقد كانت في تلك اللحظة جميلة حسناء مدهشة الحسن، رائعة المحيا.

وسكت أخيرًا عن الكلام، وخُيِّلَ إليه أنه يرى ذلك الوجه الجديد للمرة الأولى، فأرسل أنفاسًا عميقة، وتنهد تنهيدة حارة.

وحاول الكلام، فلم تسعفه الألفاظ فقال: «أواه. كيف أحسنت صنعًا إذا نبأتك بكل شيء؟».

وأراد أن يزيد فلم يزد.

فقالت ماريانا وهي تهمس بالكلم همسًا، وكانت تقلده وهي لا تشعر: «نعم. لقد أحسنت صنعًا... لقد أحسنت صنعًا».

وخانها صوتها.

ولم تلبث أن استرسلت تقول: «وإني لأشعر الآن بأنني تحت أمرك وتصرفك، وأنني أريد أن أكون ذات فائدة لجهادك ومطلب روحك، وأنني على أتم الأهبة لأي عمل تراه واجبًا محتومًا، وللذهاب إلى أي مكان تريدني على أن أوفض إليه. يا الله! لطالما صبت روحي إلى كل هذه الفعال التي تريد أنت أن تنجزها».

وسكتت أيضًا عن الكلام.

ولو أنها زادت لفظة واحدة، لذابت إرادتها وعاطفتها في دموع وعبرات.

ولم تلبث قوتها ومتانة طبيعتها أن لانت وسالت كالشمع.

لقد تولاها ظمأ شديد إلى العمل والتضحية. نعم، لتضحية فعالة سريعة غير وانية.

وفي تلك اللحظة سمعا وقع أقدام في الدهليز خفيفة سريعة محاذرة.

فتباعدت ماريانا قليلًا، واجتذبت يديها من كتفيه.

وتغيرت ملامحها، وبدت إذ ذاك متهللة المعارف، ولاح على محياها أثر من السخرية والاستهزاء، وقالت بصوت جهير حتى يتبينه من في الدهليز بلا مشقة ولا إنصات:

«إنني أعرف من المتنصت المسترق السمع خلف هذا الباب، هذه مدام سبياجين تتسمع علينا. ولكن هذا لا يهمني مطلقًا، ولا أنا ممن يحفل به».

وفي الحال سكن وقع تلك الأقدام في الممشى.

والتفتت ماريانا إلى نجدانوف وقالت: «ألا نبئني ماذا تريد مني أن أفعل، وكيف أكون لك عونًا وظهيرًا على عملك؟ ألا نبئني وعَجّل. ماذا تريد أن أصنع؟».

فأجاب نجدانوف: «لا أعرف ماذا أقول الآن؟. لقد وصلتني رسالة من ماركيلوف».

قالت: «ومتى تلَقيْتها... متى؟».

فأجاب نجدانوف: «في هذا المساء. يجب أن أذهب معه إلى سولومين في المصنع غدًا».

قالت: «نعم. نعم. يا لماركيلوف من رجل عظيم! إنه صديق حقيقي الآن!».

قال نجدانوف: «مثلي أنا؟».

فأجابت ماريانا: «كلا. ليس مثلكِ».

قال: «كيف؟».

فأشاحت عنه بوجهها مستحيية، ثم لم تنِ أن قالت: «لك الله! ألا تدرك أي رجل أصبحت اليوم لديّ. وأي شعور أشعر به الساعة؟».

هنا خفق قلب نجدانوف خفقانًا شديدًا وأطرق برأسه.

لقد أصبحت هذه الفتاة التي أحبته. وهو الفتى الفقير الأفَّاق الذي لا مأوى له ولا دار ولا مضجع. هذه الفتاة التي ركنت إليه. وتأهبت للسير في أثره إلى أبعد حدود الأرض، إذ شاء هو وأمر، والجهاد معه جنبًا لجنب، والنضال في رفقته. هذه الفتاة، العجيبة، يتيمة الدهر. نعم، لقد أصبحت

تلك الفتاة لديه في تلك اللحظة الرمز الحيّ الصادق لكل طهر في الأرض وصدق وطيبة نفس وخير... لقد أضحت لديه رمز حب الأم وحنان الأخت، ووفاء الزوجة، وكل شيء لم يعرفه من قبل، وكل لذة وسعادة لم يدركها في ماضي حياته. نعم، لقد مضت لديه كذلك رمز الوطنية. والهناء والجهاد والحرية والاستقلال...

إذ ذاك رفع رأسه، فالتقى نظره بنظراتها وهي مستقرة عليه.

رباه...

ما كان أجمل تلك النظرة المشرقة الحلوة العذبة التي نفذت إلى قرارة روحه.

قال بصوت مضطرب: «وكذلك سأذهب غدًا وعند عودتي سأنبئك بكل ما تجتمع عليه نيتنا. ومذ هذه اللحظة ستكونين أنت أول من يعرف كل شيء أفكر فيه وكل عمل أعمله!».

فتناولت ماريانا يده مرةً ثانيةً وقالت:

«أواه يا عزيزي. إني أعدك أني فاعلة كذلك».

وكادت هذه اللفظة المعسولة «يا حبيبي» تفلت من بين شفتيها بكل سذاجة وسهولة.

قالت: «هل الرسالة معك؟».

فأجابها: «نعم. وها هي».

فألقت على الرسالة نظرة متفحصة، ونظرت إليه بإعجاب وخشوع وقالت:

«أيعهدون إليك بهذه الفِعال الجسام؟».

فأجاب على دهشتها بابتسامة، وأعاد الكتاب إلى جيبه وهو يقول: «ما أعجب وما أغرب أن ندرك فجأة أننا نحب بعضنا بعضًا، وإن لم نتبادل من قبل كلمة واحدة عن حبنا!».

فهمست ماريانا تقول «وهل كان الحب بحاجة إلى الألفاظ!».

وألقت فجأة ذراعيها حول عنقه، وأسندت رأسها إلى صدره.

ولم يُقبِّلها، ولم تلثمه.

إذ لو فعلا لما راح ذلك في عينيهما إلا أمرًا ثقيلًا عليه دلائل حب العامة، وغرام السوقة والزعانف. ولَهَالهما ذلك وقَبُح لديهم.

وإنما استأذن كل من صاحبه، وتصافحا بالأيدي مصافحة حارة فيها كل أدلة الوفاء والحب...

وعادت ماريانا إلى المصباح، وكانت تركته عند النافذة.

وفي تلك اللحظة فقط أخذتها حيرة غريبة، وأخذ عليها أنفاسها الحارة إحساس جديد. فأطفأت المصباح ومشت بخطى خفيفة إلى مخدعها فدخلته، ونضَّت عنها أثوابها، ومشت إلى السرير، وقد احتواها الظلام الساكن المرسل هدوءه إلى أعماق الروح الثائرة المتمردة.

* * *

-16-

ولما استيقظ نجدانوف في الصباح من نومه لم يشعر بأي أثر للدهشة مما حدث له في الليلة الماضية، بل كان مفعمًا بالسرور والهناء الهادئ الساكن، كأنما قد أنفذ عملًا كان ينبغي له أن يؤديه منذ أمد طويل.

وسأل سبياجين أن يمنحه إجازة يومين، فمنحه ما طلب، وإن لم تخل لهجته من شيء من الخشونة.

وانطلق نجدانوف يريد دار ماركيلوف، ولكنه قبل رحيله حاول أن يرى ماريانا.

ولم تكن هي الأخرى حيية، ولم يبدُ على محياها أثر للخجل، بل مضت تنظر إليه بهدوء وعزم، وجعلت تناديه «يا عزيزي» بكل سكينة دون استحياء أو تكلف.

وكانت مهتمة بما سيكون من وراء زيارته لماركيلوف، وطلبت إليه أن لا يكتمها شيئًا.

فقال نجدانوف: «بلا ريب» ثم راح يحدث نفسه قائلًا: «وعلى كل حال. لمّ ننزعج، في صداقتنا هذه ليس للعاطفة الشخصية إلا المحل الثاني، ونحن مرتبطان متعاهدان على الوفاء والود إلى الأبد في سبيل القضية الوطنية أليس كذلك؟ نعم، في سبيل القضية الوطنية!».

وكذلك جعل نجدانوف يفكر ويناجي نفسه، ولم يبدُ له من نجواه تلك مقدار ما فيها من حق، ومقدار ما احتوت من باطل وكذب.

ووجد ماركيلوف كآخر عهده به متعبًا مكدود مهتاج الخاطر، فبعد أن تناولا طعام الغداء ركبا المركبة يريدان مصنع القطن، حيث كان يقيم سولومين.

وثارت في نفس نجدانوف روح الفضول والتشوق إلى معرفة ذلك الرجل الذي سمع عنه أحاديث كثيرة.

وكان سولومين قد نُبِّئ بزورتهما، ولذلك عندما وقفت بهما المركبة أمام أبواب المصنع، وأرسلا كلمة إلى الرجل يعلنان حضورهما، تقدمهما أحد عمال المصنع إلى جناح صغير كان يقيم فيه المهندس.

وكان سولومين مشغولًا إذ ذاك في المصنع، فوقف الرجلان يطلان من النافذة.

وللحال تبين لهما أن المصنع كان في أحسن حال، وقد تراكم عليه العمل، واشتدت فيه الضوضاء، وامتلأت حجراته حركة وعجيجًا وزحامًا، وإن لم يكن يخلو من أثر الفوضى والقذارة والاضطراب.

فنظر نجدانوف إلى ماركيلوف وقال: «لقد سمعت الشيء الكثير عن كفاءة سولومين ومواهبه، ولا أكتمك دهشتي إذ رأيت هذه الفوضى إذ لم أكن أتوقع رؤيتها».

فأجاب ماركيلوف برنة حزن: «ليس هذه آثار الفوضى، بل تلك القذارة الروسية التي اعتدنا رؤيتها في كل شيء. وتلك علائم الإهمال المألوف في هذه البلاد. ولكن مع هذا إن هذا المصنع يجلب لصاحبه الملايين. وما على سولومين إلّا أن يكدح لكي يثري رب المصنع. فهل تتصور ما هيئة هذا الرجل الذي يملك هذا المكان؟».

فأجاب نجدانوف: «كلا، ليس لديّ عنه فكرة ما».

فقال ماركيلوف: «هو أبخل من أظلته سماء موسكو. رجل «جِلْدة» أقسى من الصخر. وهو غني هائل الغنى».

في تلك اللحظة دخل سولومين عليهما الحجرة، وكان يخيل لمن يراه لأول وهلة إنه من أهل فنلندا أو من السويد؛ فقد كان طوالًا ضاوي العود عريض الكتفين، لا لون لحاجبه ولا لهدبيه، ذا وجه نحيل مستطيل وأنف قصير وعريض معًا وعينين خزْرَاوين يضرب لونهما إلى الخضرة، وشفتين سميكتين وأسنان كبيرة، وكان مرتديًا ثوب عامل ميكانيكي أو وقاد آلة بخارية.

وكان يمشي في أثره رجل آخر، هو مساعده وظهيره في العمل، وكان ماركيلوف يعرفه، وهو بافيل.

وتقدم سولومين نحو الزائرين في رفق، وصافح كلًّا منهم في صمت.

ومشى إلى درج، ففتحه، وأخرج رسالة مختومة دفع بها إلى بافيل في صمت أيضًا فغادر هذا الحجرة توًّا.

وإذ ذاك تمطى ورمى بقبعته جانبًا، وجلس في مقعد، وأشار إلى الزائرين أن يجلسا.

فتولى ماركيلوف صيغة التعارف بين الفتى وسولومين، فنهض ثانية وشدَّ يد نجدانوف مصافحًا، وانطلق ماركيلوف بعد ذلك يتكلم فيما جاء من أجله، فذكر رسالة فاسيلي الزعيم. وإذ ذاك أطلع نجدانوف الرسالة من جيبه وقدمها إلى سولومين.

وبينا كان هذا آخذًا في قراءتها، راح نجدانوف يراقبه ويرمقه بنظراته.

وكان مجلس سولومين قريبًا من النافذة، وكانت الشمس قد أرسلت أشعتها فوق وجهه المتصبب عَرَقًا وعلى شعره الجميل وقد علاه الغبار، حتى بدا متلألئًا كالذهب.

وكان أنفه يتحرك ويتقلص كلما تلا سطرًا من الرسالة، وشفتاه تلعبان كأنما تشكلان كل كلمة من كلماتها، وكان ممسكًا بها في كلتا يديه، وعندما أتم قراءتها ردها إلى نجدانوف، وعاد يُصغي إلى ماركيلوف ثانية، واستمر هذا يتكلم حتى تعب ومل وتراخت قواه.

فلما سكت عن الكلام انبرى سولومين يتكلم، وكان صوته الخشن الممتلئ بقوة الشباب وشدة الأسر يقع لذيذًا ساحرًا في أذن نجدانوف.

قال: «أخشى أن لا يكون حديثنا هنا غير صالح. فلماذا لا نذهب إلى دارك، وهو لا يبعد عن هذا المكان غير سبعة أميال. إنك جئت في مركبتك! أليس كذلك؟».

فأشار ماركيلوف بالإيجاب.

قال سولومين: «حسن جدًّا لا أخالك إلا موسعًا لي في كنف دارك. إنني كنت سأتم عملي بعد ساعة، وأكون طليق سراح، وسيتيسر لنا بعد ذلك أن نتحدث طويلًا ونعالج الموضوع من جميع نواحيه».

قال ذلك والتفت صوب نجدانوف وقال: «وأنت أيضًا. ألست طليق اليد من عملك اليوم؟».

فأجاب نجدانوف: «نعم إلى بعد غد».

قال: «هذا أمر حسن. ونحن إذَنْ مستطيعون المبيت الليلة عندك يا مستر ماركليوف. ألا يتيسر لنا ذلك؟».

فأجاب ماركيلوف: «بكل سرور».

قال سولومين: «عال. سأكون على أتم الاستعداد للسير معكما بعد لحظة، إنني ذاهب لأرتدي ثيابي».

فانبرى نجدانوف يسأله: «وكيف سير الأمور في مصنعك؟».

فلم ينظر سولومين ناحيته بل أجاب في عجلة: «سنتحدث مليًّا بعد برهة. ألا معذرة لحظة واحدة. سأعود بعد قليل. فقد نسيت شيئًا...».

وانصرف.

ولو لم يحدث هذا الرجل في نفس نجدانوف تأثيرًا كبيرًا، لظن أنه قد ولاه ظهره، وأعرض عنه، ولكن هذه الفكرة لم تخطر في ذهن نجدانوف، ولم تقع له.

وبعد ساعة كانت المركبة سائرة بهم الثلاثة، في اللحظة التي خرج العمال مندفعين من أبواب المصنع.

ولما بلغوا دار ماركيلوف، تناول شيئًا من العشاء على سبيل الأدب ومجاملة الضيوف.

وما كاد العشاء ينتهي حتى أشعلوا لفائف التبغ، وجلسوا إلى حديث طويل، ولم ير نجدانوف من خلال الجدال الذي طال مطاله بين الثلاثة شيئًا مما كان يتوقعه من سولومين.

رآه صامتًا قليل الكلام، بل لقد خُيِّل إلى نجدانوف من ندرة كلماته أنه رجل خُلق صموتًا أو عييًا محصورًا.

ولكنه كان مصغيًا جد الإصغاء إلى الحديث، فإذا اتفق له أن يقول رأيًا أو يصدع بحجة أو يعلن عن فكرة ما تكلم بإيجاز، وجد وقال قولًا حكيمًا. ولم يكن سولومين يعتقد أن الثورة الروسية قد

حان حينها ودنا أجلها وأزفت آزفتها، ولكنه لم يكن يريد أن يثبط الهمم دونها أو يغري الآخرين بترك العمل في سبيلها، بل ترك لهم السعي ولم يعترض الجهاد وكان يشرف عليها من بعيد، ولكنه مع ذلك كان رفيقًا لهم يمشي بجانبهم، وكان يعرف دعاة الثورة من أهل بطرسبرج ويوافقهم على آرائهم إلى حد محدود.

وكان هو نفسه من طبقة الشعب، وكان يدرك أن السواد الأعظم منهم غير مكترثين بالظلم المحيق بهم، وأن لا بد أولًا من إعدادهم للثورة وتمهيد الطريق أمامهم للنهوض والتمرد على الحكومة الجائرة.

ولذلك وقف في ناحية منعزلًا عن الجموع لا يشعر بأنه أسمى منهم ذهنًا، وإنما كرجل اعتيادي له آراء مستقلة متخلصة من رأي الجمهور، ولا يريد أن يحطم مستقبله ويهدم حياة آخرين معه بلا فائدة ودون جدوى.

أما أن يصغى إلى الحديث الذي يقال أمامه، فلا أذاة في ذلك ولا ضير عليه من الإصغاء.

وكان سولومين هذا أكبر أبناء رجل قسيس، وكان له خمس أخوات تزوجن جميعًا بقساوسة أو غيرهم من رجال الكنيسة.

وكان هو أيضًا معدًّا للكنيسة، ولكنه طرح تلك الأمنية جانبًا، ورضى أبوه منه بذلك ومضى يدرس الرياضيات، إذ كان يميل إلى دراسة الميكانيكا، فدخل مصنعًا للتمرين، وكان ذلك المصنع لرجل إنجليزي. وأحبه الرجل كما يحب الرجل ابنه وكفل له السفر إلى مانشستر، فأقام فيها عامين وأصاب علمًا واسعًا باللغة الإنجليزية، ولم يسقط على صاحب هذا المصنع في ولاية س... إلا منذ عهد قريب، فعهد ذلك التاجر إليه بإدارة محله، وكان سولومين شديد التدقيق مع عماله ومرؤوسيه، وتلك عادة اكتسبها من اختلاطه بالإنجليز، ولكنهم مع ذلك كانوا يحبونه ويعاملونه كواحد منهم.

وكان أبوه فخورًا به، وكان من عادته أن يتكلم عنه كرجل ثابت مثال الجد والاستقامة، ولكن كان يحزنه الحزن كله أن لا يرى منه إقبالًا على الزواج والميل إلى عيشة الأسرة.

وكانت الابتسامة طول مدة الحديث لا تفارق شفتيه، ولكن كانت تلك الابتسامة مفعمةً بالمعاني كصاحبها.

وكان حديثه مع نجدانوف وسلوكه وهيئته إذا تكلم غريبةً، إذ شعر بفؤاده يجتذب إليه وأحس بميل إليه وعطف عليه.

وفي خلال الحديث الذي دار بينهم انطلق نجدانوف في زوبعة من الألفاظ، فنهض سولومين من مجلسه، ومشى إلى النافذة القريبة من الفتى فأغلقها.

فنظر نجدانوف إليه نظرة حيرة وذهول، ولكنه أجاب: «إنني أخشى عليك أن تصيب من الهواء بردًا».

فبدأ نجدانوف يسأله عن أحوال المصنع، فقال سولومين: «يا صديقي العزيز، لقد أنشأت مدرسة، وأقمت مستشفى صغيرًا، ومع كل هذا تشاجر معي صاحب المصنع، ووثب عليّ كالدب**!**».

وفقد سولومين مرة في الحديث صوابه، وعلت حدته، فضرب المائدة بقبضة يده الحديدية، حتى اهتز كل شيء كان فوق تلك المائدة، وثقالة كانت بجانب الدواة تزن أربعين رطلًا.

ولبثوا يتحادثون حتى الرابعة صباحًا، وقد تولى ماركيلوف ونجدانوف التعب، بينما ظل سولومين كأنعش ما يكون روحًا.

فافترقوا وذهب كل إلى مضجعه على موعد بينهم أن يذهبوا الغداة إلى زيارة التاجر جولوشكن، الذي اشتهر بأنه مفهم حمية ووطنية...

وكان سولومين في شك من فائدة هذه الزيارة، ولكنه نزل على أمر صاحبيه، فرضي بالذهاب.

* * *

-17-

وكان الضيفان لا يزالان في فراشهما عندما قدم رسول من فالنتينا إلى شقيقها ماركيلوف يحمل إليه رسالة منها، وقد ذكرت مدام سبياجين في تلك الرسالة عدة أشياء صغيرة من شؤون البيت، وطلبت إليه فيها أن يرد إليها كتابًا كان قد استعاره، ثم ذيلت الكتاب بحاشية جاءت عرضًا، كأنما لم تكن تقصد إلى كتابتها، وإنما تذكرت ما فيها صدفة واتفاقًا، وكانت تلك الحاشية تحوي أفكه نبأ يسرها أن تخبره به –هذا ما قالت- وذلك أن ماريانا قد وقعت في حب المعلم نجدانوف، وأنه يبادلها ذلك الحب، ثم عقبت على ذلك بقولها إنه لم يكن ذلك حديث خرافة أو إشاعة واهية، بل إنها رأت ذلك بعينيها وسمعته بأذنيها.

فلما قرأ ماركيلوف تلك الحاشية، راح وجهه أشد ظلمة من حلكة الليل، ولكنه لم ينبس ببنت شفة، وأمر بأن يرد الكتاب إليها، ولما لمح نجدانوف يهبط السلم حياه التحية المعتادة، ولم ينس أن يعطيه مجموعة الرسائل التي وعده إياها، تلك الرسائل التي كان معجبًا بها أشد الإعجاب. على أنه لم يتمكث معه، بل انطلق يطوف بالمزرعة.

فعاد نجدانوف إلى حجرته، وراح يتصفح تلك الرسائل، فلمح من خلالها أن الكاتب كان يتكلم عن نفسه، وأن أكثر الرسائل حشوها الزهو والإعجاب بنشاطه الحاد، وقد ذكر في رسائله أنه في خلال الشهر الأخير طاف بإحدى عشرة ولاية –على الأقل!- وأقام بتسع مدائن ومرّ بتسع وعشرين قرية وخمس وخمسين حلة ونجعًا وسبعة مصانع، وأنه نام ست عشرة ليلة في مخازن القش، ولم يجد ليلة من الليالي مضجعًا له إلا في إسطبل للخيل ومرة أخرى رقد في سقيفة غنم!

وهلم من تلك السخافات والأوهام وأثار الخيلاء الفاسدة الباردة...

وعجب نجدانوف في أعماق نفسه، لا من غرور هذا الكاتب كيسلياكوف، بل من سذاجة ماركيلوف وبساطته، إذ راقت في عينه تلك الرسائل.

واجتمع الثلاثة على مائدة الشاي في قاعة الطعام، ولكنهم لم يجددوا حديث الليلة المنصرمة.

ولم يكن أحد منهم يجد في نفسه ميلًا إلى الكلام، ولكن كان سولومين هو الوحيد الذي جلس صامتًا هادئًا راضيًا عن صمته، ولكن نجدانوف وماركيلوف كانا يبدوان كأنما هاج في صدريهما هائج الحمية والتحمس.

فبعد أن تناولوا أقداح الشاي، انطلقوا إلى المدينة، ووقف ذلك الشيخ الوصيف الذي في خدمة ماركيلوف يتبعه بنظراته المحزونة النادمة المتحسرة.

وكان هذا التاجر جولوشكن ابن رجل غنيّ، كان يتجر بالعقاقير والعطور، ولكنه لم يزد على الثروة التي تركها له أبوه شيئًا؛ لأنه كان رجلًا شهوانيًّا مسترسلًا في لذة نفسه، قفرًا من أي مقدرة أو كفاءة عملية.

وهو رجل في الأربعين، بدين دميم الخلقة، له عينان صغيرتان أشبه بعيني الخنزير.

وكان يتكلم بعجلة، ويبلع ألفاظه، ويشير بيديه، ويقذف برجليه هنا وهناك، ويضج بالضحكات الثوارة من أقل شيء، وإن الإنسان ليخيل إليه إذ يراه أنه يشهد أمامه رجلًا غبيًّا أفسده الترف، مغرورًا بنفسه معجبًا بها.

وكان يظن نفسه من أهل التهذيب والرقي؛ لأنه كان يرتدي ثيابه على الطريقة الألمانية، ويفتح أبواب بيته لكل زائر وقادم، وإن لم يكن بيته آية النظافة والتأنق، وكان يغشى دور التمثيل ويختلف إلى الملاهي، وله محاسيب كثيرة من الممثلين والممثلات، وكان يتحدث معهم برطانة يقول عنها إنها اللغة الفرنسية، وهي ليست منها في شيء كثير.

وكان أكبر منازع نفسه ظمأه للشهرة وولعه بالظهور على أعين الشعب، وكان يصيح قائلًا: «دع اسم جولوشكن يرعد في العالم، ويملأ ما بين سمع الأرض وبصرها، وكما كان يومًا سوفروف، وبوتومكن، فلمَ لا يكون كذلك اسم كابتون جولوشكن؟!».

وكان ظمأه ذاك إلى الشهرة هو الذي دفع به إلى الانحياز إلى صف المعارضين والثوريين والعدميين، وكان يجاهر بأشد الآراء تطرفًا، ويقامر ويلعب الورق ويأكل في أفخم الفنادق، ويشرب الشمبانيا كأنما يرشف الماء القراح، ولم يقع يومًا في ورطة ولا أزمته أزمة، ولا تورط مرة في حياته، بل كان يقول: «لطالما رشوت رجال الحكومة، كلما رأيت ضرورة لذلك، فإذا الخروق قد رتقت، والأفواه قد كمّمت والآذان قد أصابها وقر فلا تسمع!».

وكان الرجل أرمل، ولكنه لم يرزق من زوجته التي قضت نحبها بولد أو بنين، وإنما جعل أولاد أخته يتشبثون به، ويطوفون حوله، وكان يسميهم مجموعة من الجهلاء البرابرة، ولا يكاد ينظر إليهم، أو يوليهم جناح الرحمة.

وكان يسكن دارًا فسيحة مبنية من الحجر، مهملة لا أثر فيها للنظافة والعناية. وكانت بعض حجراتها مكسوة برياش من الطراز الأجنبي، على حين ترى أخريات لا تكاد تحتوي شيئًا غير بضعة كراسٍ منقوشة ووسادة مغطاة بقماش أمريكيّ.

وكانت الصور معلقة في كل مكان، مختلفة الألوان.

وعلى الرغم من أن جولوشكن كان أعزب، لا يزال بيته غاصًّا بعديد العمال والأحقار والمسترزقة والمتكففين والذين يعيشون في أذيال الأغنياء والمترفين، ولم يكن يتلقاهم لقاءه ذاك كرمًا منه وحسن مثوى وجودًا وسخاء، وإنما رغبة منه في الظفر بالشهرة، وأن يكون وراءه أعوان يتمدحونه إذا دعت الحال إلى المديح. وكان يقول عنهم: «زبائني!» إذا أراد أن يذر الرماد في عيون سامعيه.

وقلما كان يقرأ، وإن كانت له حافظة قوية قديرة على التقاط كلمات المطلعين، والجمل التي تتعثر وتتساقط من أفواه الذين قرأوا كثيرًا وتبحروا في العلم وتوسعوا في الإطلاع.

ووجد نجدانوف وصاحباه هذا التاجر في حجرة المطالعة، وكان جالسًا جلسة الراحة، في ثوب طويل يعم بدنه، ولفافة تبغ مستطيلة بين شفتيه، متظاهرًا بأنه يقرأ في صحيفة سيارة.

فلما دخلوا عليه الحجرة، وثب واقفًا، واندفع نحوهم وقد راح لونه أرجوانيًّا، وصرخ على الخدم ليأتوا بشيء من المرطبات، وليسرعوا ما أمكنتهم السرعة، وطفق يسألهم الأسئلة ويضحك لغير ما سبب معلوم، وكل ذلك في نَفَس واحد.

وكان يعرف سولومين وماركيلوف فقط، فلما سمع أن نجدانوف من الطلبة، انفرطت منه ضحكة أخرى، وقام إليه فشد يده مرةً ثانيةً، وصاح بأعلى صوته:

«بديع. بديع للغاية!. ها نحن نجمع حولنا قوات كبيرة. إن العلم نور والجهل ظلمات بعضها فوق بعض. نعم إنني لم أتلق غير تعليم قليل ضئيل، ولكني أفهم الأمور وأدرك الأشياء، وهذا ما جعلني أترقى وأتقدم!».

ولاح لنجدانوف أن جولوشكن هذا رجل حييّ خجول كثير الارتباك، وفي الحق لقد كان كذلك. إذ جعل يقول لنفسه: «خذ حذرك يا سيد جولوشكن. وافهم ماذا تقول!».

وكانت تلك عادته كلما التقى بإنسان جديد لم يكن يعرفه.

ولكنه لم يلبث أن اطمأن وسكنت أعصابه، وطفق يتكلم بتلك العجلة وذلك الصوت المضطرب عن الزعيم فاسيلي نيقولوفيتش وعن طبعه ومزاجه الخاص، وعن ضرورة الاهتمام بالبروجندة –نشر الدعوة-، وكان قد تعلم كيف ينطق بتلك اللفظة على صحة. وإن كان يقطعها مقاطع عند النطق بها –وكان يقول إن الوقت قد حان، وأن الأوان قد آن.

ثم لم يتم كلماته، بل التفت إلى نجدانوف، ومضى يتكلم عن نفسه بذلك العجب الذي كتب به كيسيلياكوف رسائله التي كانت تروق في عين السيد ماركيلوف.

وكان يقول إنه أوقف ثروته لخدمة القضية ولصالح الشعب ونهضته، وإنه في الحقيقة يحتقر المال، ويسخر من الثروة، ولا يعبأ بالمادة!

وفي تلك اللحظة دخل أحد الخدم بالمرطبات.

فتنحنح جولوشكن، وخلّص حنجرته، وسألهم إذا كانوا يحبون أن يتناولوا شيئًا من تلك المرطبات، وكان هو أول من عمد إلى الأقداح صب في قدح منها شرابًا، واجترعه قبلهم مرة واحدة.

ومضى يشرب قدحًا وراء قدح وهو يقول: «تفضلوا أيها السادة تفضلوا. هذه أشربة فخمة».

ثم دار بعينه صوب نجدانوف، وأنشأ يسأله من أي البلاد قَدِم، وفي أي مكان هو مقيم، وكم من الزمن سيمكث.

فلما سمع أنه مقيم في دار سبياجين، صاح قائلًا: «إنني أعرف هذا السيد. لا شيء فيه ألبتة. خلو من أي ذكاء أو مقدرة».

وفي الحال مضى يشتم ويسب كل أصحاب الأموال والأراضي في الولاية؛ لأنهم في نظره خلو من الروح الوطنية؛ ولأنهم لا يدركون أيضًا صوالحهم.

وكانت عيناه لا تستقران على شيء، متلددتين متلفتتين هزازتين، لا تكاد تقفان عن الحركة، وعجب له نجدانوف وتحير، ولم يدرِ ما فائدة رجل كهذا في سبيل العمل الذي توفروا على تحقيقه!

وظل سولومين كعادته على صمته، وجلس ماركيلوف متجهمًا في أشد العبوسة، حتى لم يتمالك نجدانوف نفسه من سؤاله عن سبب حزنه وألمه.

فأجاب ماركليوف أن لا شيء يؤلمه، ولكن بتلك اللهجة التي يحاول بها الناس أن يقولوا أن لا ألم لديهم، وفي أفئدتهم كل الألم. وإنما يريدون أن يقولوا للسائل إنه ليس يعنيه أن يسأل أو يستفسر عن باعث حزنهم.

وانتقل نجدانوف من الشتائم التي أحالها إلى أصحاب الأرض والأموال، إلى تمدح الجيل الجديد، ثم عاد يسأل سولومين عن ذلك المجرم الشرير «صاحب المصنع الذي يشتغل فيه»، فلم يجبه سولومين إلّا بكلمات متقطعة.

وإذ ذاك صب في أقداحهم جميعًا شمبانيا، وانحنى إلى نجدانوف، فهمس له في أذنه: «اشرب نخب الجمهورية الروسية!».

وشرب هو كأسه جرعة واحدة.

وأما نجدانوف فرفع القدح إلى شفتيه، ثم أعاده دون أن يشرب منه شيئًا.

واجترع ماركيلوف كأسه حتى الثمالة، في غضب وعبوسة ووجوم.

ثم تولاه الجزع، وأخذه القلق فصاح: «ها نحن جلوس بكل برود نضيع الوقت عبثًا دون أن نعالج الموضوع الجديّ الذي بين أيدينا».

ثم ضرب المائدة بيده وصاح بشدة: «أيها السادة!».

وراح يتكلم...

ولكن في تلك اللحظة دخل الحجرة رجل نحيل مصدور مهزول، له عنق طويل، وفي ثياب التجار، وانحنّى للجمع، ثم دنا من جولوشكن ومضى يهمس له في أذنه.

فأجابه جولوشكن بعجلة: «بعد لحظة. بعد لحظة»، ثم التفت إليهم.

وقال: «أيها السادة. لا بد لي من أن أستميحكم معذرة، فقد نبأني في هذه اللحظة كاتبي فازيا بنبأ صغير يحتم عليّ تركك الآن. ولكني أرجو أيها السادة أن تتكرموا بالعودة لتناول طعام الغداء معي في الساعة الثالثة. وإذا ذاك نكون أحرارًا في خلوة طيبة للحديث».

فلم يدر نجدانوف ولا سولومين ماذا يقولان، ولكن ماركيلوف أجابه على الفور، بتلك الخشونة البادية في صوته ووجهه: «سنعود بلا ريب».

فقال جولوشكن في عجلة منحنيًا لماركيلوف: «شكرًا جزيلًا. وسأكتتب بألف روبل للقضية الوطنية على أي حال، فلا تكونوا في خوف من هذه الناحية».

قال هذا ولوّح بيده ثلاث مرات بإبهامه وخنصره، وأردف يقول: «ويجب أن تركنوا إليّ».

ومشى مع أضيافه إلى الباب وهو يصيح قائلًا: «سأنتظركم في الثالثة؟».

فلم يجب أحد منهم غير ماركيلوف إذ قال: «ليكن ذلك».

فلما مشوا في الطريق أوقفهم سولومين قائلًا: «إنني سأخذ مركبة من هنا يا صديقي، وأعود إلى المصنع رأسًا. إذ ماذا لدينا من الأعمال نؤديه حتى موعد الغداء! لا شيء غير مضيعة الزمن وغير الجري في الشوارع والتجوال في الطرق. وأخشى أن يكون صاحبنا ذاك التاجر الغني أشبه بقصة ذلك التيس الذي لا يصلح لشيء فلا يخرج لبنًا ولا هو يصلح للأكل!».

فأجاب ماركيلوف متجهمًا: «لا يزال لنا منه الصوف. ألم تسمع أنه وعدنا شيئًا من المال في سبيل الثورة؟ ألم يرق إذَنْ في عينك! ولكن يا لسوء الحظ ماذا نفعل وليس لنا حيلة في الاختيار والانتخاب؛ لأن الناس لا يمشون وراءنا ولا يجرون ليكونوا من صفوفنا».

فقال سولومين في هدوء: «لست متألمًا، ولا متعنتًا. وإنما ظننت أن ليس ثمة فائدة من وجودي معكما».

ثم تمهل ونظر إلى نجدانوف وابتسم قائلًا:

«ومع ذلك سأمكث معكما إذا كنتما تحبان ذلك. إن الموت نفسه ليحتمل ويطاق مع الأصحاب وصفوة الأصدقاء».

فرفع ماركيلوف رأسه وقال: «ماذا تقولان في الذهاب إلى المنتزه العمومي. فإن الجو بديع والسماء صافية. حيث نستطيع الجلوس ومشاهدة عامة الشعب».

فقال سولومين: «هلمّ بنا».

ومشوا يريدون ذلك المنتزه.

وكان ماركيلوف وسولومين يمشيان في الطليعة، وأما نجدانوف فظل في الساقة يمشي متثاقل الخطى.

* * *

ما أغرب تلك العوارض التي اصطلحت على فؤاد نجدانوف.

فلقد رأى في اليومين المنصرمين مشاعر جديدة، ووجوهًا لم يكن له بها عهد.

للمرة الأولى في حياته اتفق له أن اختلط بفتاة يكاد على الأرجح يكون قد أحبها.

وها هو قد حضر مبدأ نهضة لا بد له على الأرجح كذلك من تضحية كل حياته في سبيلها.

إذَنْ فهل شعر بشيء من السرور لذلك؟ وهل كان فرِحًا لذلك طروبًا؟

هل كان مترددًا، أم مضطربًا، أم خائفًا راعدًا؟ كلا...

بلا ريب!

وهل تراه شعر بتلك الهزة التي تهز القلب والروح معًا، بذلك التشوق إلى الوقوف في طليعة الصفوف، ذلك الحنين الذي يقع في القلب، للمشي في مقدمة الجيش والاستباق إلى الطليعة، عند اقتراب الموقعة، ودنو ساعة القتال.

كلا أيضًا...

وهل كان حقًّا يؤمن بتلك النهضة، ويدين بتلك القضية؟ وهل يعتقد في حبه؟

إذ ذاك تمتمت شفتاه بصوت غير مسموع: «لك الله أيها الخياليّ اللعين. أيها السفسطائي الممقوت الكريه!».

ولعمري ما سبب ذلك الألم. وباعث هذه الرغبة عن الكلام، إلا إذا أرسل كلماته في صياح وصراخ وهذيان، وما ذاك الصوت الذي يهتف به في أعماق نفسه ويريد إطفاءه وإغراقه بالصراخ والعويل والصيحات المتعالية؟

وماريانا... تلك الصديقة اللطيفة الوفية المخلصة، تلك الروح الطاهرة النقية الفياضة العاطفة، المفعمة حبًّا. تلك الفتاة المدهشة المحيرة اللب، ألا تحبه حقًّا وتهواه... وهذان المخلوقان اللذان أمامه ماركليوف وسولومين، واللذان لم يعرف عنهما غير القليل مما رأى، وإن كان يحس بفؤاده

يهوي إليهما ويجتذب نحوهما، ألم يكونا من خيرة الشعب الروسيّ ومن أبدع صور الحياة الروسية، أو ليست السعادة في نفسها أن يختلط بهما ويمتزج ويقترب منهما بالصداقة والود.

وإذا كان ذلك، فما سبب هذا الشعور الغامض الرهيب القلق الذي يقرض الفؤاد بأسنانه قرضًا.

لمَ عمركم هذا الحزن، وتلك الطلعة المكتئبة؟

وإذ ذاك عادت شفتاه تتمتمان: «إذا كنت أيها الفتى كما أنت خياليًّا محزونًا مريضًا في روحك ونفسك، فأي ثوريّ ستصبح، وأي فوضويّ ستكون، وأي وطني مجاهد ستروح غدًا؟ أنت خلقت لتكتب أشعارًا، وتسرح بك المخيلة، ولتهدئ وتراعي أفكارك السقيمة المعلولة وتعالج مشاعرك المضطربة المدخولة في نفسها، ولتتلهى بأوهامك النفسانية وخيالاتك وألوان هذيانك. ولكن إياك وأن تظن أوهامك تلك وقلق روحك، واهتياج أعصابك، ضربًا من ذلك الغضب النفساني، من ذلك الغضب الصادق الحقيقي، غضب رجل ذي عقائد ومبادئ عظيمة يريد لها تحقيقًا.

لك الله يا هاملت، أيها الأمير الدانماركيّ! كيف لعمرك تستطيع فرارًا من شبح روحك؟ كيف تستطيع أن تكف عن تقليد نفسك؟ والتلهي بانتقاص قدرك....!».

وفي تلك اللحظة بعينها. سمع صوتًا مألوفًا لديه يصيح به كأنما كان صدى أفكاره وهواجسه: «أليكسي. أليكسي. يا هاملت روسيا! أهذا أنت الذي أرى أمامي؟...».

وإذ ذاك رفع عينيه، ولشد ما كانت دهشته إذ رأى أمام عينه باكلين واقفًا قبالته!

وكان باكلين مرتديًا ثوبًا صيفيًّا بلا ربطة عنق، وقد وضع فوق رأسه قبعة كبيرة من القش حول طرفها شريط أزرق، وقد أرخاها قليلًا إلى لمته.

ومشى مسرعًا نحو نجدانوف، فلما بلغه أمسك بيده.

وأنشأ يقول: «أول كل شيء، ولو أننا في منتزه عمومي يجب في سبيل ذكرى الماضي أن تسمح لي بأن أعانقك وأقبلك واحد... اثنين... ثلاثة. وثانيًا يجب عليّ أن أخبرك بأنني إذا لم أكن عثرت بك اليوم عَرَضًا، فلا ريب في إنني كنت ملاقيك غدًا؛ لأنني أعرف أين تقيم، وقد جئت هذه البلدة خصيصًا لرؤيتك، وسأنبئك بعد الآن كيف جئت ولماذا قدمت. وثالثًا قدّمني إلى صديقيك هذين. قل لي باختصار من هما وقل لهما باختصار أيضًا من أنا. وبعد ذلك هلموا بنا نتنزه ونمتع أنفسنا!».

ففعل نجدانوف كما طلب صاحبه، فعرف الثلاثة ببعضهم بعضًا.

فلما أتم نجدانوف صاح باكلين: «بديع للغاية! والآن دعوني أبتعد بكم عن الزحام إلى مجلس قصيّ اعتدت أن أجلس فيه في ساعات تأملاتي وأستنشق الهواء وأنعم بمنظر الطبيعة. ومن ذلك المكان نستطيع أن نشاهد بيت حاكم الولاية، ونرى كشك الديدبان المزدوج وثلاثة عساكر من الشرطة، ولا نرى كلبًا واحدًا. ولا تدهشوا كثيرًا لكلماتي التي أحاول بها جهدي أن أضحككم وأسركم، فإنني في نظر إخواني ممثل الفكاهة الروسية. ولهذا السبب على ما أظن ترونني... أعرج!».

وسار بهم إلى ذلك «المجلس القصيّ» الذي أشار إليه في حديثه، وأمرهم بالجلوس بعد أن طرد سائلتين كانتا تحتلانه وأنشأ الجمع يتبادلون الآراء كما يقولون، وهو أمر ثقيل على النفس ولا سيما في مبدئه، ثم لا يكاد في الغالب ينتهي بفائدة تذكر.

وللحال صاح باكلين موجهًا خطابه إلى نجدانوف: «انتظر لحظة. يجب أولًا أن أخبرك عن سبب قدومي. أنت تعلم أنني اعتدت أن أنتقل بأختي من المدينة في كل صيف إلى أي مكان آخر غير ذلك البلد، ولما علمت أنك في هذه الولاية، تذكرت أن لي فيها قريبين عجيبين يسكنان في هذه البلدة بعينها، زوجًا وزوجته من الأقارب البعيدين، من ناحية أمي، وكانا منذ زمان بعيد يلحان علينا أن نحضر لزيارتهما، فقلت في نفسي ولمَ لا، فتلك بغيتي، ولذلك جئنا أنا وشقيقتي. والآن نبئني ماذا جئت تفعل الآن هنا؟ وأين ستتناول طعام الغداء؟».

فأجاب نجدانوف: «إننا سنتغدى في دار رجل يُدعى جولوشكن. تاجر من تجار هذه البلدة».

قال باكلين: «وفي أي وقت؟».

فأجاب: «في الثالثة».

فعاد باكلين يسأله قائلًا: «أستزورونه لأجل... لأجل...».

ولم يتم كلمته، بل نظر إلى سولومين إذ رآه يبتسم، ثم إلى ماركيلوف وقد لمحه جالسًا سابحًا في آلامه وهمومه.

وعاد يصيح بنجدانوف: «أليكسي، قل لهما، أو أشر إليهما ولو إشارة «ماسونية». ألا قل لهما إنني رجل من حزبكم، وإنه لا ينبغي أن يتكلفا أمامي ويتكتما».

فقال نجدانوف: «وجولوشكن أيضًا من حزبنا. فهل تعرفه؟».

فأجاب باكلين: «أما سؤال غريب! عرفني به يا أخي! كما عرفتني بهذين الصديقين. إنني لا أظن أن لديكم أسرارًا تريدون أن تتكلموا فيها. وجولوشكن رجل كريم، وسترون أنه سيسر إذ يرى

وجهًا جديدًا. نحن هنا في ولاية س... لا نعيش على الكلفة والرسميات!».

فزمجر ماركيلوف يقول ببرود: «صحيح. لقد لاحظت ذلك».

فهز باكلين رأسه وقال: «يلوح لي أنني المعنيّ بهذه النكتة، ولكن هل لي أن أقترح عليك أيها الصديق الجديد أن تطرح عنك هذه الأفكار الحزينة المعنتة التي تخنقك. وهي ولا ريب راجعة إلى مزاجك الصفراويّ... وعلى الأخص...».

ولكن ماركيلوف لم يدعه يتم جملته، بل قاطعه قائلًا بلهجة غضب: «وأنت يا سيدي. اسمح لي أن أقول لك بصفة إنذار إنني لا أحب في حياتي المزاح، وبالأخص في هذا اليوم، وماذا تعرف أنت عن مزاجي؟ من فضلك قل لي، إننا لم نتعارف منذ مدة طويلة حتى تتكلم هكذا عني!».

فصاح باكلين: «طيب. طيب. لا تغضب ولا «تفوَّر» دمك، صادق يا سيد. صادق. المسألة لا تحتاج إلى القسم والحْلفان. أنا مصدقك».

ثم التفتت إلى سولومين وقال: «وأنت يا سيدي، أتظن أنني كنت أقصد إلى أن أقول شيئًا يؤلم أحدًا أو أقذف بنكتة في غير محلها. إنني اقترحت فقط عليكم أن أذهب معكم إلى جولوشكن، وفضلًا عن ذلك أنا رجل غير مؤذ قط. ليس ذنبي أن يكون لماركيلوف هذه السحنة الصفراوية».

فهز سولومين إحدى كتفيه أولًا، ثم عاد فهز الأخرى. وكانت تلك عادته عندما لا يدري ماذا يقول.

وقال سولومين أخيرًا: «إنني لا أظنك أهنت أحدًا يا مستر باكلين، أو قصدت إلى ذلك وتعمدته عمدًا. وأما عن ذهابك إلى دار جولوشكن فلماذا لعمري لا تأتي!».

فأجاب باكلين: «وأنت ذاهب أيضًا إليه أليس كذلك؟».

فقال سولومين: «بلا ريب. لقد ضيعت جزءًا من اليوم، ولا بد من إضاعة بقيته».

فصاح باكلين: «إذَنْ هلموا بنا. وأنت يا نجدانوف أنت رجل متقدم مهذب، فهلمَّ امش في الطليعة».

فاستضحك نجدانوف وقَال: «إذَنْ هلموا بنا، ولكن حذار أن تعيد ما تقول من الفكاهات لئلا نظن أنك نفضت ما عندك».

فقال باكلين متهللًا وهو يمشي مستبقًا الجميع. يعرج في مشيته: «كلا. اطمئن. ولا يزال لديّ شيء يكفيك أنت وصاحبيك هذين».

ومشى سولومين واضعًا ذراعه في ذراع نجدانوف وهو يقول له: «يا له من رجل فكه مفراح! وإذا قدر لنا أن نبعث إلى سيبيريا لا قدر الله، فسنجد إنسانًا يسرنا ويضحكنا ونتلهى به على الأقل».

ومشى ماركيلوف صامتًا خلفهم.

وفي تلك اللحظة كان الخدم في دار جولوشكن يعدون المعدات لغداء أنيق «شيك!»، وكان جولوشكن وهو الرجل الغنيّ المهذب من الطبقة الراقية في الغرب قد استخدم طاهيًا فرنسيًّا كان قد طرد من أحد الأندية لقذارته، وقد أعدوا حساء سمك مدهن دسم ثقيل، وشيئًا من الفطائر السخنة ودجاجًا مشويًّا، ولكن أهم من كل ذلك، زجاجات من الشمبانيا موضوعة في الثلج.

وتلقى رب البيت الأضياف كعادته بالمراح والضوضاء والضحكات العالية. وقد سر من رؤية باكلين كما تنبأ هذا من قبل، ومضى يسألهم عنه قائلًا: «هل هو واحد منا بالتأكيد. لا أدري كيف أسأل سؤالًا كهذا؟!».

وأنشأ يحدثهم عما فعل في غيبتهم، وكيف زار حاكم الولاية «ذلك الشيخ القديم المتأخر الرجعيّ» —وتلك كانت كلماته-، وكيف أزهق ذلك الرجل روحه بالكلام عن ملجأ خيريّ يراد إنشاؤه.

وكان من الصعب أن يفهم الإنسان من تلك الحكاية كلها بغية جولوشكن من سردها. أزهوه بأنه زار الحاكم في قصره؟ أو مقدرته على سبه وشتمه أمام هؤلاء المفكرين المهذبين؟

وإذ ذاك قدمهم إلى رجل قال عنه إنه من «الصحاب» والدعاة إلى الثورة مثلهم، ولم يكن ذلك الرجل أحدًا غير صاحبنا الفتى الضاوي الطويل العنق، الذي دخل عليه في الصباح وهو فازيا كاتبه.

وانبرى جولوشكن يقول: «إنه قليل الكلام، ليس لديه الشيء الكثير يقوله، ولكنه موقف روحه وبدنه في سبيل وطنيته».

وانحنى فازيا إذ ذاك، واحمر وجهه خجلًا ورمش بعينيه، وضحك ضحكة لا يكاد الإنسان يتبين منها هل الرجل أحمق بليد الذهن أو ماكر خبيث شرير.

وصاح جولوشكن: «والآن أيها السادة هلموا بنا إلى المائدة».

وبدأوا بالسمك يأكلون منه أنواعًا كثيرة مملحة، على سبيل فتح «الشهية»، وما كادت صحاف الحساء «الشوربة» ترفع عن الخوان، حتى أمر جولوشكن الخدم بإحضار زجاجات الشمبانيا.

فلما جيء بها راح يصب في الأقداح منها شرابًا مثلجًا، وقد تجمد من كثرة بقائه بين ألواح الثلج.

ورفع هو قدحه إلى فمه وصاح: «لنشرب في سبيل... مشروعنا!».

قال ذلك، وغمز بإحدى عينيه نحو الخادم كأنما يريد بذلك أن يقول: «يجب أن يكون الإنسان حريصًا أمام الخدم».

وظل فازيا صامتًا، وقد جلس على حافة المقعد بذلة واستكانة لا تتفقان وهذه العقيدة السامية المهذبة التي أوقف عليها كما قال سيده جولوشكن روحه وجثمانه، وطفق يجرع الشراب مرة واحدة، بشراهة مدهشة.

وكان أكثرهم كلامًا جولوشكن وباكلين، ولكن نجدانوف كان في أعماق نفسه مستاء مشمئزًّا، واستمر ماركيلوف على غضبه وتجهم معارفه. وجلس سولومين يراقب الجمع وحركاتهم في هدوء ورفق.

وفاض مراح باكلين وفكاهته وطرب جولوشكن لنكاته وطرائف ألفاظه وحضور بديهته، ولم يكن لديه أي شك في أن هذا الأعرج القزم، وكان جالسًا بجانب نجدانوف، ظل بين آونة وأخرى يهمس في أذن الفتى أقسى النكات والأمازيح على حسابه، ولكنه ظن أنه رجل «مسكين بسيط» تحق رعايته، ويصح أن يكون هو أيضًا من «زبائنه!». ولعلّ هذا هو السبب الذي جعله يميل إليه ويسر به. ولو اتفق مجلس باكلين بجانبه لكان استطاع أن «يزقه» في صدره أو يضربه في «كتفه»، ولكن أما وقد بعد عن مجلسه، فقد بقي راضيًا قانعًا بالإطراق والتأمين على أمازيحه.

وكان مجلس ماركيلوف بين جولوشكن وبين نجدانوف، وكان في مكانه ذاك كالغمامة.

وجعل جولوشكن يضحك ضحكات تشنجية لكل كلمة يفوه بها باكلين، بل كان أيضًا يضحك «مقدمًا» ممسكًا جنبيه من شدة الضحك، ومظهرًا رباعياته العاجية البيضاء.

ورأى باكلين ماذا يريد الجلوس منه، فطفق يتهكم بكل شيء ويعبث بكل مخلوق محافظين وأحرارًا وموظفين ومحامين ومديرين وأرباب الأموال، ومجالس المديريات، وموسكو وسان بطرسبرج على السواء.

ومضى جولوشكن يؤمن على كلماته قائلًا: «نعم. نعم. هو ذلك تمامًا.. ولكي أضرب لكم مثلًا خذوا عمدة هذه البلدة. إنه حمار تام الحمارية! رجل مأفون لا صلاح له، فكلما قلت له شيئًا لا يفهمه ولا يدرك حرفًا واحدًا منه. أشبه بحاكم الولاية».

فقال باكلين: «إذَنْ هل حاكمكم أحمق أيضًا؟».

فأجاب جولوشكن: «قلت لك يا أخي حمار!».

فعاد باكلين يقول: «والشيء بالشيء يذكر، نبئني، وهل يتكلم بصوت خشن. أم من أنفه؟».

فلم يفهم جولوشكن السؤال، بل قال مندهشًا: «وماذا تعني بذلك؟».

فأجاب باكلين: «كيف؟ ألا تعلم؟ في روسيا ترى جميع كبار موظفينا الملكيين يتكلمون بأصوات خشنة جافة. أما كبار رجال الجيش، فمن أنوفهم. ولكن أهل المناصب العالية يجمعون بين الاثنين».

فرعد جولوشكن ضاحكًا حتى تساقطت دموعه على خديه وقال: «صحيح. صحيح. إنه رجل من رجال الجيش إذَنْ؛ لأنه من أنفه يتكلم!».

فراح باكلين يقول لنفسه عن جولوشكن: «يا له من ساذج أحمق!».

والتفت هذا إلى فازيا وقال: «اشرب يا فازيا».

فأجاب الكاتب: «ها أنا ذا أشرب يا سيدي».

وأفرغ قدحًا آخر في حلقه، وفعل جولوشكن مثله.

فهمس باكلين في أذن نجدانوف: «إنني مندهش كيف لا ينفجر من كل هذا الشرب!».

فأجابه نجدانوف: «لقد اعتاد ذلك».

ولكن لم يكن ذلك الكاتب وحده الذي شرب، بل بدأت الخمر تفعل فيهم جميعًا وبدأ نجدانوف وسولومين نفسه، بل وماركيلوف يشتركون في الحديث.

ولكن نجدانوف ظل أولًا يغالب نفسه متأففًا، كأنما أساءه أن يرضى لنفسه بالشراب، ويفسد عليه خلقه.

وجعل يقول إنه قد حان الحين الذي ينبغي فيه ترك الكلام واللعب بالألفاظ، وأنه قد آن أوان العمل؛ لأنهم قد بدأوا يستقرون على رأي، ويثبتون فوق ممهدات متينة، وكأنما نسي أنه يعارض ما قال،

ويناقض نفسه في ما ذهب إليه؛ إذ راح يسألهم أن ينبئوه ما هي البوادر التي ظهرت، حتى يركنوا إليها في نهضتهم، وعلى أي شيء يعتمدون في سبيل البدء بالثورة، ويقول لهم إنه لا شيء هناك يغريهم بالعمل، فإن المجتمع المهذب لا يعطف عليهم، والعامة لا تدرك غرضهم.

فلم يعارضه أحد في قوله؛ لا لأنه لم يكن في كلامه ما يعارض، ولكن لأن كل إنسان منهم كان مشغولًا بالكلام على هواه.

أما ماركيلوف، فجعل يتكلم كلامًا غير مفهوم بصوته الخشن الحاد الغاضب، ولم يتبين أحد منهم شيئًا مما كان يقول، ولكن كانت تسمع من حين إلى آخر لفظة «المدفعية» في وسط زوبعة حديثه. ولا ريب في أنه كان يتكلم عن عيوب المدفعية الروسية ومناقص نظامها، كعادته، ثم تكلم كذلك على الضباط، ثم على الألمان، ثم على الضباط الألمان.

وكان سولومين يقول إن هناك وسيلتين للصبر والانتظار، فالأولى الصبر دون أن يعمل الإنسان عملًا ما، والثانية الصبر ومدافعة الأمور إلى الأمام والتمهيد لها في آن واحد.

فصاح ماركيلوف في غضب: «لا نريد معتدلين».

فأجاب سولومين: «إن المعتدلين لا يزالون منذ زمن بعيد يشتغلون في صفوف أهل الطبقة العالية، ويجب أن نقصر سعينا على الطبقة السفلى».

فصرخ جولوشكن محتدًّا: «كلا. لا نريد ذلك. اللعنة لا نريد ذلك. يجب أن ننهي كل شيء بضربة واحدة. نعم بضربة يد واحدة!».

فقال سولومين: «وما الفائدة من التطرف! إن ذلك أشبه بالوثوب من النافذة».

فصاح جولوشكن: «وإني لواثب كذلك إذا استدعت الحال وثوبًا. نعم سأثب وسيثب معي فازيا كاتبي. ليس عليّ إلّا أن آمره بالوثوب فإذا هو واثب أليس كذلك يا فازيا؟ ألا تثب. هيه. ألا تثب؟».

فقذف الكاتب ما في قدحه في جوفه أولًا ثم أجاب: «إنني أتبعك إلى أي مكان تذهب إليه. إنني لا أجرؤ على مخالفتك».

فقال جولوشكن: «خير لك أن لا تجرأ وإلّا عملت من لحمك كفتة!».

وبعد ذلك تبلبلت الألسن.

وكما تكون من قطع الثلج الأولى وهي تهوي من السماء مائجة دائرة طائفة في الفضاء، مضت الكلمات والألفاظ تتطاير في حجرة جولوشكن، متنوعة مختلفة متعثرة بعضها ببعض، متساقطة ركامًا، ومهيلة كثيبًا، وقد تناولت التقدم والحكمة والأدب والضرائب والكنيسة وموضوع المرأة، والمحاكم والرياليزم والنيهليزم والكومونزم والإدارة والنظام.

وكان ذلك كل ما كان جولوشكن يريد إذ خُيِّل إليه أن هذا الحديث البابليّ الصخاب العاصف هو كل شيء يطلب منهم، فلم يلبث أن صاح بلهجة الفرح المنتصر «انظروا إلينا، نعم فليهرب الظَّلَمَة الجبابرة العاسفون من طريقنا، فإن الكابتون جولوشكن قادم إليكم».

وفي النهاية كان الكاتب فازيا قد سكر، وفعلت به الخمر فعلها، فمضى يضحك ويكلم «الطبق» الذي أمامه على المائدة. ثم لم يلبث أن نهض فجأة من مجلسه وصاح بوحشية وزئير: «ما هذا الكلام الفارغ يا جماعة!».

ونهض جولوشكن كذلك وهو يصيح: «سأضحي! أيضًا ألف روبل. نعم ألف روبل أخرى. استقضاها لي يا فازيا».

فأجاب فازيا: «ليكن ذلك».

وفي تلك اللحظة وثب باكلين من مقعده وكان في الدقائق الأخيرة قد شرب وألح على الأقداح كالكاتب فازيا، وكان شاحب اللون، يتصبب من وجهه العرق، فوقف يلوّح بذراعيه فوق رأسه، ولم يلبث أن صاح بأعلى صوته: «التضحية. التضحية. لقد دنستم هذه الكلمات المقدسة! أيتها التضحية. أيتها اللفظة العظيمة الرهيبة.

لا يستطيع الإنسان أن ينهض إلى سدتك. أو يأتمر بأوامر. وينزل على أحكامك. نعم. لا أحد منا هنا قمين بذلك. كلا. وإن كان هذا الأحمق. هذا الحقير. هذه الجعبة الملأى بالمال. يتباهى الآن بذكرك وترديدك على شفتيه، ويفتح بطنه فيخرج بضعة روبلات ويروح صائحًا «التضحية!» ويريد منا أن نشكره. وينتظر أن نصنع له إكليلًا من الغار. يا له من رجل حقير لعين!».

ويلوح لنا إنه إما أن يكون جولوشكن لم يسمع تلك الكلمات، وإما أن يكون قد عجز عن إدراك معانيها، أو لعله ظنها إحدى أمازيح باكلين وفكاهاته؛ لأنه صاح ثانية يقول: «نعم. ألف روبل. إن كابتون جولوشكن لا يقول كلمة ويتنازل عنها. إن كلمته لا تنزل الأرض».

وكان من عادة جولوشكن إذا تكلم عن نفسه استعمل صيغة الغائب، والشخص الثالث المفرد، كما يفعل الأطفال إذ يتكلمون عن انفسهم.

فلما انتهى من كلمته تلك، قذف بيده في جيبه وأخرج المال الذي ذكره، وألقاه أمامهم وهو يقول: «ها هو المبلغ. خذوه. أو قطّعوه أو مزقوه إربًا. وتذكروا كابتون!».

فالتقط نجدانوف الأوراق المالية وكانت مطروحة على المائدة، وقد لطخها ما سال من الخمر على الخوان.

ولما كان الوقت قد طال على جلوسهم. ولم يبق شيء يدعو إلى المكث، نهضوا جميعًا وتناولوا قبعاتهم وانصرفوا.

ولما خرجوا في الهواء، شعروا بالدُوَار، ولا سيما باكلين.

قال يجاهد نفسه للكلام: «وإلى أين الآن؟».

فأجابه سولومين: «لا أعلم وجهتكم، ولكني أعرف أنني عائد إلى منزلي».

فقال باكلين: «هل إلى المصنع تقصد؟».

فأجاب: «نعم».

فقال باكلين ثانية: «في هذا الوقت المتأخر من الليل. ومشيًا على القدم؟».

فأجاب سولومين: «ولمَ لا؟! إنني لا أظن هنا ذئابًا أو لصوصًا، ولا تزال ساقاي قويتين على حملي. إن المشي لطيف في الليل».

فقال باكلين: «ولكن لعنة الله. إن المكان يبعد أربعة أميال من هنا».

فأجاب سولومين ببرود: «لا يهمني وإن كانت أكثر من ذلك أميالًا. إلى الملتقى أيها السادة».

ووقف سولومين يربط أزرار سترته، ثم أرخى طرف قبعته إلى جبينه، وأشعل لفافة تبغ، وانطلق يمشي بخطوات واسعة.

فالتفت باكلين إلى نجدانوف وقال: «وأنت إلى أين ذاهب؟».

فأشار نجدانوف إلى ماركيلوف، وكان هذا واقفًا في مكانه لا يتحرك ويداه مشبكتان فوق صدره: «إنني ذاهب لأبيت عنده، فلدينا جياد ومركبة».

فصاح باكلين: «حسن جدًّا. إلى الملتقى. أنا سكران فلا تتألما مما أقول. إنني أعتقد أن ليس في أرض الله كلها امرأة هي خير من شقيقتي سناندوليا، وإن كانت حدباء. انظرا أحوال الدنيا. يا ما فيها من مدهشات. كان ينبغي أن يكون لها هذا الاسم، فهل تعرف من كانت القديسة سناندوليا في ما مضى من الزمان. كانت امرأة فاضلة، وكانت من عادتها أن تزور السجون وتضمد جراح المرضى من سكانها. ولكن إلى الملتقى. إلى الملتقى يا نجدانوف، أيها الرجل الذي تستحق الشفقة والرثاء لحالك. وأنت أيها الضابط... يا «بعبع!» يا متشائم يا كاره الدنيا. إلى الملتقى!».

ومشى منصرفًا يجرر ساقيه، ويعرج ويترنح ذات اليمين وذات الشمال، بينا مضى ماركيلوف وصاحبه يريدان المكان الذي تركا عنده المركبة والجياد.

فلما بلغاه أمرا بإعداد المركبة، ولم يكد يمضي نصف ساعة حتى كانت المركبة منحدرة بهم في الطريق العام إلى البيت.

* * *

وكانت السماء قد عمتها السحب، وترادفت عليها الغمائم، ولئن كان ثمة بصيص من الضياء يستطيع السائق على هَدْيه أن يجد طريقه، فلم يكن الرجلان يتبينان يمنة أو يسرة شبح بناء طاهر، إذا اختفى كل شيء في ثوب أسود عمّ الكون كله.

وكانت ليلة حالكة مقرورة يهب فيها الهواء زعازع مخيفة راعدة، يحمل في تضاعيفه رائحة المطر والقمح والحنطة التي كانت تغطي تلك الحقول الشاسعة.

فلما بلغا شجرة البلوط وكانت في الطريق مَعْلَمًا من معالمه يهتدي الركب به، انعطفت المركبة بهما في درب متعرج، وعندئذ أمسى الطريق شاقًّا، وخشيَ السائق أن يضل فمشت المركبة الهوينا.

فقال نجدانوف وكان صامتًا طول تلك المسافة: «أرجو أن لا نكون قد ضللنا الطريق».

فأجاب ماركيلوف: «لا أظن ذلك إذ لا تقع مصيبتان في يوم واحد!».

فقال نجدانوف: «وما هي المصيبة الأولى؟».

فأجاب ماركيلوف: «ضياع يوم كامل. أليس هذا شيئًا مذكورًا؟».

فقال نجدانوف: «نعم، بلا ريب، ثم صاحبنا جولوشكن ذاك، كان ينبغي لنا أن لا نشرب كل هذا المقدار، فإن رأسي يكاد يتحطم».

فأجاب ماركيلوف: «لم يكن بالي في جولوشكن، فإننا على الأقل أصبنا منه شيئًا من المال، ولهذا لم تكن زيارتنا له عبثًا».

فقال نجدانوف: «ولكنك بالتأكيد لست حقًّا متألمًا من أمازيح باكلين، أليس كذلك؟».

فأجاب ماركيلوف: «لست متألمًا ولا مسرورًا، لست أقصد إلى ذلك، فليست تلك المصيبة التي كنت أشير إليها».

فتحير نجدانوف وقال: «وما هي إذَنْ؟».

فلم يحر ماركليوف جوابًا، وإنما تزحزح قليلًا عن مجلسه، حتى بلغ ركنًا في المركبة ولم يستطع نجدانوف أن يتبين وجهه في الظلام، وإنما وقف شاربه يلوح في الحلكة كخط أسود طويل، ولكنه كان يشعر منذ الصباح أن في فؤاد ماركيلوف ألمًا شديدًا، وأنه كان يحسن أن يتركه وحده، ولا يلح عليه بالأسئلة.

فبدأ يقول بلهجة رهيبة: «ألا استمع لي يا سيد ماركيلوف، أحقًّا أنك تعلق أهمية كبرى على رسائل كيسلياكوف التي دفعت بها إليّ لأتصفحها، ألا اسمح لي أن أقول إنها كلام فارغ في فارغ».

فاستوى ماركيلوف في جلسته وقال بحدة: «أولًا إنني لا أوافقك على رأيك في تلك الرسائل؛ فإنني أجدها شيقة حافلة بكل ما يهم الإنسان معرفته، وثانيًا إن كيسلياكوف رجل مجتهد ودؤوب على العمل، وفوق ذلك يجد في ما يفعل، لا بالهازئ العابث الساخر، إنه «يعتقد» المبدأ ويؤمن بأحقية الثورة، وأما أنت يا أليكسي ديمترتش، فاسمح لي أن أقول إن عاطفتك باردة، ووجدانك فاتر، إنك لا تعتقد سداد القضية الوطنية!».

فقال نجدانوف في رفق: «وما الذي يبعثك على هذا الظن؟».

فأجاب ماركيلوف: «يسهل على الإنسان أن يتبين ذلك من كلماتك نفسها وألفاظك ومسلكك. ولنأخذ ما حدث اليوم مثلًا. فمن منا أعلن أمام الجميع أنه يعجز عن الاهتداء إلى الممهدات والمبادئ الأولية التي تجعلنا نعتمد عليها ونركن إلى العمل؟ لقد كنت أنت الذي قلت ذلك. ومن الذي طلب إلى الجمع أن يدله على تلك العوامل؟ لقد كنت أنت أيضًا. ولما وقف ذلك المهذار صديقك باكلين ورفع عينيه إلى السماء وقال إن ليس فينا ولا رجل واحد قدير على التضحية. من الذي صدق وأمن على كلماته وأطرق برأسه مشجعًا. محبذًا؟ ألم تكن أنت أيضًا! فقل عن نفسك ما شئت، وتصور في نفسك ما تحب أن تتصور. فهذا شيء من شؤونك. ولكني أعرف أناسًا قديرين على أن يتنازلوا عن كل ما في الحياة من جميل وعزيز، بل عن الحب نفسه، في سبيل تحقيق عقيدتهم والإخلاص إليها والاستمساك بها. ولكن أنت.... أنت لا تستطيع ذلك. بل عجزت عنه، ولا سيما اليوم على الأقل؟».

فقال نجدانوف في سكون: «اليوم! ولمَ عجزت عنه اليوم خاصةً؟».

فصاح ماركيلوف وقد نسي وجود السائق، وكان هذا من غير شك قد سمع كل ما دار بين الرجلين من الحديث، وإن لم يلفت إليهما وجهه: «من فضلك لا تدَّعِ ولا تغالط بحق السماء. أيها الخداع للفتيات. أيها العاشق مستبي العذارى!».

فقال نجدانوف «أخشى أن لا أكون قد أدركت ما تريد من كل هذا القول».

فاستضحك ماركيلوف ضحكة شريرة خبيثة الدخلة وقال: «لا تفهم. ها. ها. ها. لقد عرفت كل شيء يا سيدي العزيز. إنني أعلم من التي جعلت تطارحها الحب ليلة الأمس. من تلك التي استبيتها بنظراتك الجميلة وألفاظك المعسولة. إنني أعرف الفتاة التي أدخلتك حجرتها بعد العاشرة ليلًا!».

وفي تلك اللحظة، صاح السائق على سيده: «سيدي. ألا تفضل بإمساك أعنة الجياد، ريثما أنزل وأتفحص الطريق، إنني أخشى أن نكون قد ضللنا جادة السبيل.

يخيل إليّ أننا تعثرنا في غور هنا بعيد».

وكانت المركبة حقيقة قد جنحت ومالت إلى ناحية.

فأمسك ماركيلوف بالأعنة، واستمر على صياحه.

قال: «إنني لا ألومك يا أليكسي بتاتًا. إنك انتهزت الفرصة، وقد أصبت في ذلك. ولا عجب أن تكون قد خفّت حميتك اليوم لموضوعنا الوطني. وكما قلت من قبل، إنك في شغل الآن عن الشؤون بالوطنية بأمر آخر، وإحساس جديد. وفي الحق من كان يستطيع أن يتنبأ بما تهوى الفتاة وما يروق لقلبها وما يستطيع الرجل أن يحققه من رغباتها».

فأنشأ نجدانوف يتكلم فقال: «لقد أدركت الآن سبب غضبك، وقد فهمت من الذي تجسس ليلة أمس علينا، ولم يضيع وقتًا في إنبائك..».

فاستمر ماركيلوف على حدته، متظاهرًا بأنه لم يسمع ما قال نجدانوف، ومادًّا نفَسه في كل لفظة من ألفاظ عبارته: «إن هذه المسألة لا تتعلق على الكفاءة. ولا تدل على شيء من مفاتن الروح أو البدن. كلا. وإنما المسألة مسألة بخت! نعم. ولا يقع حسن البخت إلا... لأولاد الزنا!».

وقد فاه ماركيلوف بالكلمات الأخيرة فجأة وبعجلة، ثم وقف عن الكلام بغتة كأنما قد استحال قطعة من الحجر.

وشعر نجدانوف أنه قد اصفر في الظلام وعلته قشعريرة. وبعد لَأْيٍ جاهد نفسه وغالبها من الوثوب إلى ماركيلوف، وأخذه من عنقه.

وراح يتمتم لنفسه: «إن إهانة كهذه لا يغسلها إلا الدم!».

وللحال صاح السائق: «لقد اهتديت إلى الطريق. لقد كنت انعطفت يسرة عن خطأ، ولكن لا بأس، فسنكون في البيت بعد قليل».

ووثب إلى مجلسه من المركبة، وتناول الأعنة من ماركيلوف، وانطلقت المركبة.

ولم يلبث الجمع أن سمعوا نباح كلب، فصاح الحوذيّ بخيله: «لقد اقتربنا من بيتنا. فهيا انطلقن يا فتياتي الحسان».

وبدأت المصابيح تلوح عن بعد.

قال نجدانوف بعد صمت طويل: «بعد الإهانة التي رميتني بها، يجب أن تعلم أنني لن أبيت الليلة في بيتك، ولن أنام تحت سقفك. ولهذا يجب عليّ أن أسألك على كره مني أن تتكرم بإعارتي مركبتك عند بلوغنا البيت لتعود بي إلى المدينة، حيث أقضي ليلتي هذه، وغدًا أبعث إليك برسالتي أطلب إليك فيها منازلتي؛ حتى أغسل الإهانة التي لحقتني منك».

فلم يجب ماركيلوف بادئ بدء، ولكنه لم يلبث أن صاح في رنة حزن ولهجة ناعمة مفعمة يأسًا وألمًا وعذابًا: «أي نجدانوف.. نجدانوف. بحق السماء ادخل البيت لا لشيء سوى أن تدعني ألتمس إليك وأنا راكع على قدميّ أمامك أن تصفح عني. نجدانوف.. انسَ... نعم، انسَ ما كان من كلمتي الطائشة المجنونة الحمقاء. ويلي.

ويلي. ليت لي من يدرك ما في نفسي من عذاب، ويعلم أي رجل محزون مبتئس أكون الساعة».

قال ذلك وضرب صدره بقبضة يده، وأرسل أنة محزنة.

وعاد يقول: «نجدانوف، ألا كن كريمًا صفوحًا متغاضيًا عن الزلة. ألا هاتِ يدك. قل إنك قد عفوت عني».

فمد نجدانوف يده عن غير إرادة منه، فأمسك بها ماركيلوف وشدها شدًّا قويًّا حتى كاد نجدانوف يصرخ من الألم.

ووقفت المركبة بباب البيت.

وقال ماركيلوف وقد جلسا برهة في حجرة القراءة: «ألا استمع إليّ يا نجدانوف!».

وتمهل وكانت لهجته متوسلة عذبة تفيض حزنًا وألمًا واعتذارًا وتبين ذلك نجدانوف، وعجب أن يكون ذلك من هذا الرجل أمام مزاحمه الموفق في الحب، وعدوه الذي أهانه منذ ساعة وأراد أن يمزقه إربًا، ويثب إلى عنقه.

فتأثر نجدانوف وأخذته الرحمة به، وعاد ماركيلوف يقول: «ألا اسمع إليّ. لقد قلت لك منذ لحظات إنني رفضت هناء الحب وتنازلت عن كل شيء في سبيل خدمة مبادئي. كلا، لم يكن ذلك مني حقًّا لقد كنت مدعيًا كاذبًا فخورًا، لم يعرض عليّ يومًا الحب حتى أكون له رافضًا، ولم يقع مني على منال الذراع، حتى أنفضه عني وأتنازل عن هنائه وسعادته. لقد ولدت تعسًا مخيبًا سيئ الحظ، وسأظل كذلك بقية حياتي، وآخر دهري. ولعل ذلك خير لي وأبقى. أما أنت فإذا استطعت أن تجمع بين الاثنين، بين أن تحب وتروح محبوبًا، وبين السعي لتحقيق مبدئك وخدمة قضية بلادك. فأنت الموفق الناجح الحسن الطالع! إنني أغبطك وأنفس عليك، أما أنا، فلا أستطيع ذلك، أنت رجل سعيد، أنت رجل سعيد، أما أنا فعاجز لا أستطيع شيئًا!».

فاه ماركيلوف بتلك الكلمات في رفق ونعومة صوت، وقد وقف نجدانوف قبالته مصغيًا إليه في حلم وذهول، ولم يبد بالرجل السعيد ولا بالهنيء العيش. وإن سماه ماركيلوف السعيد الموفق!

واستطرد ماركيلوف في حديثه يقول: «لقد خُدعت في شبيبتي. نعم لقد كانت فتاة فتانة المحيا، ولكنها أطرحتني ومن تظنها آثرت عليّ... فتى ألمانيًّا، دون رتبة الملازم. أما ماريانا...!».

ووقف عن الكلام. وكانت تلك هي المرة الأولى التي نطق باسمها. وكأن النطق به يحرق شفتيه. ولكنه تمالك جأشه وعاد يقول: «ولكن ماريانا لم تخدعني. بل قالت لي ولم تكتمني ما في نفسها إنها لا تشعر لي بعاطفة. ولما لم تجد عندي ما تحفل به، أسلمت نفسها إليك. ولقد كانت حرة طليقة في ذلك».

فصاح به نجدانوف: «تمهل لحظة... ماذا تقول وماذا تعني بقولك «أسلمت نفسها إليك؟» إنني لا أعلم ماذا قالت لك أختك في كتابها ولكني أؤكد لك....».

فقاطعه ماركيلوف بقوله: «لست أقصد بذلك أنها أسلمت نفسها إليك بدنًا. بل أردت أن أقول إنها استسلمت إليك روحًا وفؤادًا...».

وبدا على وجه ماركيلوف أنه غضب من ذلك السؤال الذي وجهه إليه نجدانوف.

ومضى في حديثه يقول: «ولا أظن أنها كانت مستطيعة أن تفعل خيرًا مما فعلت. أما عن شقيقتي، فإنني لا ريب عندي في أنها لم تكن تود إيلامي، وإني أعلم أن هذا النبأ الذي أفضت إليّ به في رسالتها لا يهمها قط ولا تكترث به، ولكنها تكرهك وتبغض ماريانا كذلك، وهي لم تتجنَّ في كتابها عنكما ولا قالت كذبًا. ولكن دعنا منها!».

فقال نجدانوف لنفسه: «نعم. إنها تكرهنا ولا ريب».

واستطرد ماركيلوف في حديثه وهو في مكانه ذاك فقال: «لقد كانت خيبتي في الحب خيرًا لي وأجدى. نعم، لقد تحطمت الأغلال، وتكسرت القيود التي كانت تقيد فؤادي.. فلا يمنعني اليوم من أمري مانع، ولا يحول دوني حائل. ولست أعبأ بأن يكون جولوشكن حمارًا طويل الأذن، ولا أحفل بأن تكون رسائل كيسلياكوف حمقاء جوفاء لا شيء غير السخف فيها، ولكنه يقول إن كل شيء على الأهبة للثورة. فهل لا تعتقد ذلك أيضًا؟».

فلم يجب نجدانوف.

ومضى وهو يقول: «قد تكون مصيبًا فيما تعتقد، ولكنا إذا اصطبرنا وانتظرنا حتى نستعد بكل شيء ونرى كل شيء معدًّا مهيئًا، فلن تجدنا والله معتزمين بداية ولا خاطين الخطوة الأولى. ولو أننا وزنا النتائج قبل العمل، ووضعنا العواقب في كفة الميزان، فلا ريب في أننا سنجد بعضها سيئًا غير محمود الأثر. ولكني أضرب لك مثلًا، وهو أنه لما حرر آباؤنا الفلاحين الأجراء من أسار الرق الذي كانوا فيه، فهل تظنهم عجزوا عن التنبأ بأن طائفة من أصحاب الأموال المرابين المقرضين ستخرج إلى الميدان على أثر ذلك التحرير، أولئك المرابون الذين يبيعون الفلاح مقدارًا صغيرًا من الذرة، بستة روبلات، وفي مقابل ذلك يكرهون ذلك الفلاح المسكين على العمل في أرضهم بما يعدل هذه الستة روبلات، ثم ينالون منهم بعد ذلك ثمن تلك الذرة والفائدة المتكونة منها.. أعني أنهم يمتصون آخر نقطة من دم ذلك الفلاح المكدود المرهق المظلوم! ألا ترى إذَنْ رأيي، وهو أن أجدادنا الذين حرروا ذلك الفلاح لم يعجزوا عن رؤية تلك النتائج الوخيمة الشريرة الفاسدة، ولكنهم وزنوا تلك النتائج وتبينوا تلك العواقب السيئة، ولم تمنعهم هذه من العمل لتحرير الفلاحين من ذلك الرق! نعم. لقد أصابوا الحق، ولهذا قد أجمعت نيتي!».

فنظر نجدانوف إليه نظرة ذهول وحيرة، ولكن هذا أشاح بوجهه، ومضى ينظر في ناحية من الحجرة ويعض شفتيه ويأكل طرف شاربه.

ومضى يكرر كلمته الأخيرة: «نعم. لقد أجمعت نيتي، إني رجل عنيد، رجل صارم العزيمة».

وفي تلك اللحظة نهض من مجلسه، ومشى متعثرًا إلى حجرة نومه، ولم يلبث أن عاد يحمل في يده صورة صغيرة لماريانا موضوعة في إطار ذي زجاجة.

وقال بصوت حزين وثابت معًا: «ألا خذ هذه الصورة، لقد رسمتها بريشتي منذ زمن بعيد. إنني لست أجيد التصوير، ولست صَنَعًا في الرسم، ولكني أظن أن في هذه الصورة شيئًا كثيرًا من ملامحها. ألا خذها يا أليكسي... هذا تراث حبي، وإنني بإعطائك هذه الصورة متنازل عن جميع حقوقي، كلا إنني أعلم أنه لم يكن لي من حق حتى أتنازل عنه، ولكنك ولا ريب تدرك ماذا قصدت بكلمتي، أنني متقبل حبها لك وحبك لها... خذها يا أليكسي إنها فتاة خليقة بالحب!».

وسكت ماركيلوف عن الكلام، وكان صدره يصعد ويهبط بأنفاس حارة.

وعاد يقول: «خذها... إنك لست مغضبًا مني. أليس كذلك؟ ألا خذها إذَنْ فلا فائدة لها عندي... اليوم!».

وتناول نجدانوف الصورة، ولكن وثب في صدره إحساس غريب يرهقه ويؤلمه، فقد لاح له أنه لم يكن له حق في أن يتقبل تلك المنحة. وأنه لو كان ماركيلوف يعلم ما في فؤاده الساعة وما يخالج صدره لما سولت له نفسه إعطاءه تلك الصورة.

وقف في مكانه يحمل ذلك الإطار في يده، وهو لا يدري ماذا يصنع به ويقول لنفسه: «هذه حياة رجل بجملتها في يدي الآن».

وقد تجلت له تلك التضحية الكبرى التي بذلها هذا الرجل الذي أمامه.

ولكن لمَ لعمري تكون تلك التضحية له خاصة؟!

أيرد الصورة؟

كلا... ففي ذلك أكبر الإهانات لمانحها. ولكن بعد كل ذاك، ألم يكن هذا الوجه الذي يطل عليه من ذاك الإطار عزيزًا لديه جميلًا في نظره محبوبًا منه.

ألم يحبها؟

وجعل نجدانوف ينظر صوب ماركيلوف وهو متألم في فؤاده، شاعر بإحساس قلق، وجعل يقول لنفسه: أليس ماركيلوف الآن ناظرًا إليه، يحاول معرفة أفكاره وإدراك هواجس نفسه.

ولكن كان ماركيلوف واقفًا في ناحية يعض شفتيه وشاربه.

وجاء الوصيف الشيخ يحمل مصباحًا، فأجفل ماركيلوف من سكونه.

قال ماركيلوف: «يجب أن تأوي يا أليكسي إلى الفراش الآن، فإن الصباح أثوب إلى الرشد من الليل، وسترى الجياد غدًا معدة للذهاب بك. إلى الملتقى».

ثم التفت إلى الوصيف الشيخ، وألقى يده على كتفه وقال: «وعم مساء أنت أيضًا، أيها الشيخ، لا تكن مني غاضبًا».

وتولت الشيخ الدهشة، حتى كاد يسقط المصباح من يده، ورمق سيده بنظره، وكانت نظراته تلك غير ما اعتاد أن ينظر بها إلى مولاه من قبل. فقد ذهبت عنها دلائل الحزن والحسرة.

وآوى نجدانوف إلى مضجعه.

لقد كان محزونًا مهتاج الشعور، وكان رأسه مصدعًا من أثر الخمر التي شربها، وكانت في أذنه ضوضاء وأصوات مختلفة متضاربة والنجوم تتواثب أمام عينيه وهما مغمضتان، وكانت أشباح باكلين وجولوشكن وفازيا تتراقص أمامه، وشبح ماريانا يلوح له من بعيد كأنما من خشية أن يقترب منه.

ولاح له أن كل ما قال أو حدث منه في سحابة ذلك اليوم كان كاذبًا مغشوشًا وحماقة في جملتها وطيشًا، وأن العمل الذي ينبغي أن يفعله، ويجاهد في سبيله، لا يزال مجهولًا لا يعرف في أي مكان يجده، ولا يدري كيف السبيل إلى بلوغه، كامنًا مقفلًا عليه بالقفل والمفتاح، في أعماق غور سحيق!

وأحس رغبة في نفسه تصرخ به أن ينهض فيرى ماركيلوف ويصيح به: «خذ عطيتك. نعم ها هي. أردها إليك!».

ولم يلبث أن هتفت به هاتف يقول: «سوأتا، ما أشقى هذه الحياة!».

وبكر في اليوم التالي منصرفًا.

ووجد عند الباب ماركيلوف واقفًا في جمع من الفلاحين.

فلم يكلمه ماركيلوف إلا قليلًا، وودعه بلهجة باردة.

ومضت به المركبة مسرعة، وخُيِّل إلى نجدانوف أن السائق كان يرتقب أن يظفر منه بنفحة من النقود، لعلمه أن نجدانوف يقيم في بيت فخم أنيق.

وجلس نجدانوف غارقًا في هواجسه، ولم يكن منتبهًا إلى ما حوله من جمال الطبيعة، ولم يشعر بالمركبة وهي تمشي مخترقة حديقة دار سبياجين.

ولكنه لم يلبث أن تولته رعدة، إذ رأى المنزل أمام عينه، وشهد نافذة ماريانا.

فقال لنفسه وقد أحس حرارة في فؤاده مشعة في نواحيه: «نعم. لقد أصاب ماركيلوف. إنها فتاة خليقة بي وأنا.... أحبها!».

* * *

ونضا نجدانوف عنه أثوابه، وارتدى في عجلة ثيابًا غيرها، ومضى ليلقي درسه على الصبيّ كوليا.

وفي طريقه التقى فجأة بسبياجين في قاعة المائدة.

فانحنى له هذا بأدب بارد متكلف وتمتم بين أسنانه: «هل عدت؟»، ومشى منصرفًا إلى حجرة مكتبه.

وقد كان هذا السياسي الخطير قد أجمع أمره في ذهنه الوزاريّ على أن يشحن «هذا المعلم المتطرف» بمجرد انتهاء المدة التي اتفق معه على بقائها في داره إلى سان بطرسبرج، وأن يكون على مرصد منه يراقبه في خلال المدة الباقية. وكان يقول لنفسه: «إنه قد وقع في هذه المرة على اختيار سيئ. ولكن من يدري فلعله كان مصيبًا أسوأ منه وألعن».

أما فالنتينا فلم تكن عواطفها نحو الفتى سلبية إلى هذا الحد، وإنما أغضبها فقط أن يكون هذا المعلم «وهو لا يزال فتى صغيرًا» قد استخف بها، ولم يعبأ بحسنها.

ولم تكن ماريانا مخطئة؛ فقد كانت فالنتينا بعينها التي كانت تسترق السمع خلف الباب، إذ لم تكن تلك السيدة العظيمة تكبر نفسها عن مثل هذه الصغائر أو ارتكاب هذه الخسة.

ولئن لم تقل لماريانا كلمة واحدة عما رأت وسمعت في اليومين اللذين غابهما نجدانوف عن القصر، فقد أظهرت لها من أمور عدة غير الكلام أنها قد أدركت كل شيء بينهما وأنها إذا لم تكن حزنت لما رأت، ولم تسخر منها في أعماق قلبها، فلا تزال في الحق غضبى لما حصل كل الغضب.

وكان يتجلى في تقاطيع وجهها دليل سخرية جاهدت في إخفائها طيّ فؤادها. وكانت ترفع حاجبيها عبثًا وسخرية كلما تكلمت مع ماريانا أو نظرت إليها، وكانت عيناها العجيبتان تنظران نظرات الرثاء والأسف إلى تلك الفتاة «العنيدة» التي انتهت بعد «كل غرابة أطوارها، وشذوذ أخلاقها» بتقبيل طالب خامل لا شأن له في حجرة مظلمة.

لكِ الله يا ماريانا المسكينة! لقد ظلموك والله وقرفوك بما لم يكن؛ فإن شفتيك المتكبرتين المزهوتين لم تذوقا إلى اليوم طعم قبلات رجل!

ولم تكاشف فالنتينا زوجها بما رأت، بل قنعت بتوجيه كلمات قلائل خفية لماريانا في حضرة خالها، وكانت تشفعها بابتسامة ذات معنى.

وقد أسفت في نفسها للكتاب الذي أرسلته إلى أخيها، ولكن كان سرورها بما فعلت أشد من ذلك الأسف العظيم الذي كان سيكون في فؤادها، إذا لم تكن أرسلت الكتاب إلى ماركيلوف.

ولمح نجدانوف وجه ماريانا لمحًا وهم جلوس إلى الفطور في قاعة المائدة، فخيل إليه أن وجهها قد ازداد شحوبًا، وأن بدنها ازداد نحولًا وهزالًا.

ولم تكن متهللة المعارف في ذلك اليوم، ولم تكن مشرقة، ولكن النظرة النافذة التي نظرتها إليه عند دخوله الحجرة بلغت صميم فؤاده.

وجعلت فالنتينا تنظر إليه وتداوم النظر، كأنما تريد أن تفهمه أنها تهنئه على لقطته، وكأنما تقول له: «بديع. بديع أقصى غاية البداعة».

وكان وجهها ينم عما في نفسها، بينا كانت هي تجيل في وجهه البصر لتعرف إذا كان أخوها قد دفع بالكتاب إليه أم لم يدفع، وانتهى بها البحث في محياه إلى إنه لا بد من أن يكون نجدانوف قد قرأ رسالتها.

ولما سمع سبياجين بأن نجدانوف زار المصنع الذي يشتغل فيه سولومين ويدير دفة أعماله، مضى يسأله عدة أسئلة عن الرجل وأحواله، ولكنه لم يلبث أن اكتشف أن نجدانوف لم ير شيئًا من شؤون ذلك المصنع، فعاد إلى سكونه وجلال صمته، كأنما عتب على نفسه أن ظن أنه مستطيع أن يستمد من فتى غُفْل كهذا شيئًا من المعلومات القيمة.

ولما قامت ماريانا لتنصرف من الحجرة، احتالت حتى تمكنت من أن تهمس في أذن نجدانوف: «انتظرني عند المقعد الذي جلسنا فوقه في الحديقة، فسأكون هناك بعد قليل».

فقال لنفسه: «لقد أصبحت تألفني كماركيلوف إذ يألفني».

وتولاه إحساس فرح لذلك.

ولشد ما كان مؤلمًا له، لو أنها عادت إلى سكونها وابتعادها واحتشامها منه كما كانت تفعل من قبل. بل لقد كان ذلك محدثًا له الألم والحزن الشديدين، ولكنه لم يكن مؤمنًا في أعماق قلبه إذا كان يحبها أم لا.

لقد كانت عزيزة لديه، وكان بحاجة إليها قبل كل شيء. ذلك ما كان يعترف به من حنايا فؤاده.

ومضى نجدانوف إلى تلك السقيفة، فجلس فوق ذلك المقعد الذي ضربته ماريانا موعدًا، ومكث ينتظر.

لقد كان فؤاده في لهفة لرؤيتها والتحدث إليها.

ولم يلبث أن ارتجف فجأة إذ لاح له ثوب امرأة على مسافة بعيدة يدنو نحوه.

لقد كانت ماريانا.

ولم تكد تمضي بضع لحظات حتى أشرفت عليه، ومضت هنيهة، فإذا هي واقفة أمامه ووجهها المشرق مستهل بكلمة الترحيب، وعيناها تبرقان فرحًا ونضرة وسرورًا، وكان ثغرها مفترًا عن ابتسامة حلوة.

وأمسك هو باليد التي امتدت إليه ولم يستطع أن ينطق بكلمة واحدة.

وكانت هي أيضًا صامتة، وهي تلهث؛ إذ جاءت مسرعة الخطى تصعّد أنفاسها وهي لا تكاد تتمالكها، وبدا على محياها السرور إذ أتيح لها رؤيته.

وكانت البادئة بالحديث.

قالت «ألا نبئني وعجل بما اجتمعت نيتكم عليه».

فدهش نجدانوف وأخذته الحيرة.

قال: «أجمعنا نيتنا! أكنا عازمين على ذلك؟».

فقالت: «أنت تعلم ماذا أعني. أريد أن تنبئني بالأحاديث الْتي دارت بينكم والأشخاص الذين رأيتهم. وسولومين إن كنت لقيته. خبّرني عن كل شيء، ولكن انتظر هنيهة، دعنا نمشى بعيدًا؛ فإنني أعرف موضعًا ليس مكشوفًا كهذا».

وأخذت يده فمشت به ومضى هو معها طائعًا سلس القياد.

واقتادته إلى الموضع الذي قالت عنه، وجلسا على جذع شجرة أسقطتها العاصفة.

قالت: «والآن ابتدئ الحديث. إنني فرحة بعودتك فقد خيل إليّ أن اليومين الماضيين مستطيلان لا نهاية لهما. ألا تعلم أن فالنتينا هي التي كانت حقًّا تتسمع علينا».

فأجاب نجدانوف: «وقد كتبت إلى ماركيلوف عن ذلك».

فقالت: «أحقًّا ما تقول؟».

وسكتت لحظة عن الكلام، وقد توردت وجنتاها، لا عن خجل واستحياء، بل عن شعور أعمق من هذا وأدق.

ولكنها عادت تقول برفق وسكون: «إنها امرأة شريرة حقودة. لم يكن لها من حق لتفعل ذلك. ولكن هذا لا يهم. والآن اسرد أنباءك».

فشرع يتكلم، وظلت تستمع وهي مصغية إليه في صمت، مشيرة إليه بالتمهل، كلما رأته مسرعًا متعجلًا في الحديث.

وذهب في شعاب مترامية من القول وراح يشرح كل شيء وهو لا يشعر بنفسه. وللحال أحس بغتة يدًا لمست كتفه.

وقالت ماريانا: «أليكسي ماذا بك؟».

فأخذ تلك اليد الصغيرة القوية من فوق كتفه، وطبع عليها قبلة للمرة الأولى.

فضحكت ماريانا ضحكة ناعمة رقيقة، ودهشت لهذا الوحي الذي ألهمه تقبيل تلك اليد، ولكنها لم تلبث أن غرقت في أفكارها.

وانتبهت فجأة ومضت تسأله: «وكيف وجدت ماركيلوف؟» فقال: «ماركيلوف. إنه أشرف رجل رأيته وأبعد رجل في العالم عن الأثرة وحب الذات. إنه...».

ولكنه لم يتم كلمته، إذ كان يريد أن ينبئ ماريانا عن الصورة التي نزل ماركيلوف عنها له. ولكنه أمسك عن الكلام واستوى في مجلسه وقال: «إنه مثال الشرف».

وقالت ماريانا بعد تفكير: «وكيف رأيت سولومين؟».

فأجاب نجدانوف: «ليس سولومين بالرجل الوسيم المقسّم الوجه، ولكن له محيا تتجلى عليه البساطة والوفاء والإخلاص».

فسكتت ماريانا طويلًا، ثم قالت كأنما تحدث نفسها: «إن لك وجهًا كوجهه. وأنت مثله في الوفاء والنبل والإخلاص».

فتأثر نجدانوف، وأخذ يدها ثانية، ورفعها إلى شفتيه.

فقالت ضاحكة: «حسبك غَزَلًا وجسارة».

وكانت ماريانا تضحك كلما قبّل يدها.

وعادت تقول: «لقد فعلتُ فعلة خبيثة، ويجب عليّ أن أسْألك من أجلها الصفح عني».

قال: «وماذا فعلتِ؟».

فأجابت ماريانا مستحيية: «دخلت في غيابك حجرتك، فرأيت دفترًا يحتوي جملة من القصائد والأشعار على المائدة. ويجب أن أعترف لك أنني لم أستطع أن أغالب فضولي وتشوقي فقرأت ما فيه بجملته.. أتلك أشعارك؟».

إذ ذاك ارتعد نجدانوف، وتذكر أنه في الحق ترك الدفتر فوق المائدة نسيانًا منه.

قال: «نعم. تلك أشعاري. ولكن هل تعلمين يا ماريانا أن من أكبر دلائل حبي لك وثقتي بك أنني لا أكاد أشعر بالغضب من فعلتك تلك».

قالت حيرى مندهشة: «أتقول لا تكاد تشعر مني بغضب. عجبًا. إنك لفتى غريب. إنني فرحة إذ أسمعك تناديني «ماريانا» ولكني لا أستطيع أن أناديك «بنجدانوف»، إذَنْ فلأدعوك بهذا الاسم «أليكسي» إن من بين تلك القصائد قصيدة مطلعها «عندما أموت يا صاحبي تذكر....» أتلك قصيدتك أيضًا؟».

فأجاب: «نعم. ولكن أرجو أن لا تتكلمي عن أشعاري بعد الآن. نعم. أرجو أن لا تعذبيني بذلك...».

فهزت ماريانا رأسها.

قالت «إنها قصيدة حزينة جدًّا، إنني أرجو أن تكون كتبتها قبل أن نتحاب، إن أبياتها متينة عامرة غير عاثرة، وهذا رأيي فيها على قدر ما أفهم منها، إنني أرى فيك بوادر الأديب، ولكنك قد اخترت أمنية أنبل من الأدب وأعظم، وكان النظم أبدع شيء فعلت في ساعات فراغك».

فنظر نجدانوف إليها نظرة سريعة، وقال: «أترين ذلك! إنني معك في هذا الرأي، خير لي أن لا أكون شاعرًا أديبًا، وأن تتهدم علالتي في هذه، من أن أخيب في تلك الأمنية العظيمة».

فنهضت ماريانا من مجلسها، وأجابت: «نعم. إنك على حق يا عزيزي، إننا سننجح في مقصدنا، وسنجدي على نهضتنا، ولن تكون حياتنا مضيعة مفسدة، سنختلط بجماهير الشعب، فهل تعرف صناعة يدوية من الصناعات. لا؟.. لا ضير ولا بأس، فإننا سنجدّ ونكدح، إنني أعرف صناعة الطهي، وسأطهو الطعام إذا اضطرتني الحالة إلى ذلك وأغسل الثياب، وأخيط الملابس، وسترى ما سيكون مني، وسيكون لنا من ذلك السعادة، نعم السعادة الخالصة التي لا تشوبها شائبة».

ووقفت عن الكلام، وسرحت البصر فيما حولها، وأرسلت طرفها إلى الأمام ترى المجهول الذي لا نهاية له، وكان وجهها مشرقًا متوردًا.

فانحنى نجدانوف وتناولها من خصرها وراح يهمس لها في أذنها: «أواه. ماريانا، إنني رجل غير خليق بك».

فارتعشت وعمت الرعدة كل بدنها.

قالت: «لقد أزف الوقت، ويجب أن نعود أدراجنا إلى البيت وإلا رأينا فالنتينا متفقدة باحثة عنا. إنني لأظن الآن أنها تعتقد أنني قد فسدت وترديت عن فضيلتي.

إنها تراني الآن شاة سوداء في القطيع الأبيض!».

وفاهت ماريانا بالكلمات الأخيرة والفرح باد على محياها، حتى لم يتمالك نجدانوف من الضحك، وهو ينظر إليها ويردد هاتين الكلمتين: «شاة سوداء!».

واسترسلت ماريانا تقول «لقد آلمها وعذب فؤادها أنك لم تسقط ذليلًا عند قدميها، ولكني لا أحفل بذلك. إن غاية اهتمامي أنني لن أستطيع أن أمكث في هذا البيت بعد اليوم. يجب أن أعمد إلى الفرار».

فراح نجدانوف يسألها: «أتهربين؟».

فقالت: «نعم. إنك لن تمكث في القصر. أليس كذلك. إذَنْ فلنذهب معًا. يجب أن نشتغل معًا. إنك ستذهب معي. أليس كذلك؟».

فصاح نجدانوف وقد تهدج صوته منفرط التأثر: «إلى أبعد حدود العالم. إلى أبعد حدود العالم».

وخيل إليه في تلك اللحظة أنه يتقبل الذهاب معها إلى أي مكان تسوقه إليه بلا تردد أو نظرة إلى الوراء.

وأدركت ماريانا ما في نفسه، فتنهدت تنهيدة هادئة فرحة هانئة، وقالت: «إذَنْ هاك يدي أيها الحبيب، ولكن لا تلثمها، بل اشددها بيدك بقوة، كصاحب أو صديق. نعم. اشددها هكذا».

وانطلقا معًا عائدين إلى القصر مفكرين سعيدين مثلوجي الصدر، وكانت الحشائش الرقيقة التي انبسطت تحت أقدامهما ترحب بأرجلهما فوقها، والأغصان فوق رأسيهما تتمايل وتتثنى من فرح بهما، وأشعة الضياء تلعب بثيابهما وتنعكس على وجنتيهما.

فابتسما معًا للضياء المشرق حولهما ولزفيف الرياح فوق رأسيهما ولأفنان السرحات الصبيحة المتلألئة المشعة المتثنية، ولشبابهما الغض، ولبعضهما البعض!

* * *

-21-

وكان الفجر يدنو من الأرض في تلك الليلة التي كان فيها سولومين مع الصحاب في دار جولوشكن، إذ وقف بباب المصنع، بعد مسيرة خمسة أميال على القدم، في بهرة ليل مخيف هادئ النأمة...

فعرفه الحارس وأفسح له الطريق، فمشى في باحة المصنع، وفي أثره ثلاثة كلاب، تهز أذيالها وتتواثب على ساقيه فرحة به، عارفة له، حتى أوصلته إلى الجناح الذي كان يسكنه ورافقه ذلك الحارس كذلك، وكأنما سره أن رأى الزعيم قد عاد إلى مسكنه سالمًا...

قال ذلك الحارس: «كيف قدمت الليلة يا مستر سولومين؟ إننا كنا منتظرين قدومك غدًا».

فأجاب سولومين: «هذا حسن. إنني نعمت بلذة المشي ليلًا».

وكذلك كانت بين سولومين وعمال المصنع وصغاره صلة الصداقة وعلاقة الألفة والمحبة، فكانوا يحترمونه لمكانته فيهم وترأسه عليهم، ويعاملونه كرجل منهم في غير عمله وخارج دائرة نفوذه.

وكانوا يرون فيه رجلًا مطلعًا كثير العلم واسع الحافظة، فكانوا يقولون: «أي كلمات يفوه بها سولومين لا تلبث أن تروح مقدسة!

لأنه قد علم كل ما ينبغي للمرء أن يعلمه، وليس في العالم رجل إنجليزيّ واحد يستطيع أن يبز سولومين أو يتفوق عليه».

وفي الحق حدث يومًا أن زار رجل من الإنجليز المصنع الذي يشتغل فيه سولومين، فكلمه سولومين باللغة الإنجليزية على أعين العمال وأسماعهم. ولا ندري ماذا أخذ بذلك الرجل الزائر، حتى أبدى كل الإعجاب بسولومين؛ أرؤيته يتكلم بلغة قومه؟ أم سعة إطلاعه وروعة آرائه؟ ولكن الذي حدث إذ ذاك هو أن الزائر لمس بيده كتف سولومين وابتسم له، ودعاه إلى الذهاب معه إلى ليفربول، وهو يقول مخاطبًا العمال بروسية مهشمة: «رجلكم هذا رجل تمام».

فضحك العمال كثيرًا من تلك الكلمة، وقد أخذتهم العزة برئيسهم فصاحوا: «نعم. نعرف عنه ذلك. إنه رجلنا!».

وكان حقًّا رجلهم وواحدًا منهم.

وفي بكرة اليوم التالي، أيقظه بافيل من نومه وأعد له معدات الاستحمام، ورفع إليه عدة أنباء مختلفة، وسأله كذلك أسئلة كثيرة.

وتناولا الشاي معًا في عجلة، واشتمل سولومين بعد ذلك بسترة العمل وبسراويله، وانطلق إلى المصنع، وعادت حياته تدور كما كانت أشبه شيء بعجلة الآلات البخارية.

ولكن لم يلبث أن أخرجه من عمله حادث جديد.

وذلك أنه بعد ذلك الحادث بأيام خمسة، أقبلت مركبة من طراز «الفيتون» تجرها أربعة جياد مطهمة، وبجانب السائق وصيف في ثياب فخمة، فاقتاده بافيل إلى حجرات سولومين. فقدم الوصيف إليه رسالة من صاحب السعادة بوريس سبياجين، فلما فض تلك الرسالة تأرجت منها رائحة ذكية، لا من الروائح العطرية، ولكن من تلك الروائح الإنجليزية التي تعبق من الورق الصقيل الفخم الأنيق، وكانت الرسالة تحوي خطابًا من سبياجين نفسه وبخط يده، وكان يقول فيها إنه كان له الشرف بأن سمع بمواهب سولومين وإن لم يسعده الحظ برؤيته، وإنه يتجاسر على دعوته إلى زيارته في منزله؛ لأنه يود أن يستمد منه نصيحته القيمة الغالية في أمر يختص بمشروع عمليّ قد اعتزم القيام به، وقد بعث إليه بالمركبة آملًا أن يتفضل بقبول الدعوة، وأنه مع ذلك إذا لم يستطع الحضور في ذلك اليوم، لكثرة أشغاله، فليتفضل بتعيين اليوم الذي يتمكن فيه من تشريف منزله حتى تكون المركبة تحت تصرفه، ثم تلا ذلك الخاتمة المؤدبة اللطيفة التي تختم عادة

بها الرسائل، وفي ذيل الكتاب حاشية قال فيها سبياجين: «أتعشم أنك لن ترفض تناول العشاء معنا بكل بساطة، من غير الظهور على المائدة بالأثواب الرسمية!» وقد وضع تحت الكلمتين «بكل بساطة» سطرًا طويلًا عريضًا للفت نظر القارئ إليهما.

وفي الوقت عينه دفع الوصيف وهو في ارتباك وحيرة خطابًا آخر من نجدانوف، ولم يكن يحوي غير هذه الكلمات «بالله عليك تحضر. إنني بحاجة إليك شديدة. وقد يكون لقدومك فائدة كبيرة، لا للسيد سبياجين بالطبع».

فلم أتم سولومين قراءة رسالة سبياجين، مضى يقول لنفسه: «كيف أستطيع الذهاب إن لم يكن «بكل بساطة!» ليس لديّ أثواب رسمية في المصنع، فإنني رجل لم أخلق لها ولم تخلق هي لي. ولعمري علام الذهاب إلى ذلك القصر؟ وأي فائدة لي من ذلك؟ والله إنها ليست إلّا مضيعة للزمن!».

ولكنه لما قرأ خطاب نجدانوف، عرك رأسه، ومشى إلى النافذة مترددًا، لا يدري ماذا يفعل.

فقال الوصيف في رفق: «أي جواب أحمل لمولاي يا سيدي».

فوقف سولومين لحظة عند النافذة لا يجيب، ولكنه لم يلبث أن قال للوصيف: «إنني قادم معك. وإنما يجب أن تنتظر حتى أرتدي ثيابي».

فغادر الوصيف الحجرة بكل أدب، وبعث سولومين في طلب بافيل، فتحدثا معًا، ومضى إلى المصنع ثانية، ثم عاد فارتدى سترة طويلة عند الخصر، كان قد خاطها له حائك من أهل الريف، ووضع فوق رأسه قبعة مستطيلة، جعلت وجهه يبدو أشبه شيء بوجه خشبي.

واقتعد مجلسًا له في الفيتون، ولكنه لم يلبث أن تذكر أنه لم يأت بقفازتيه، فصرخ على بافيل أن يستحضرهما له، وللحال جاء ذلك الرجل له بقفازتين مغسولتين من مدة قليلة، بيضاوين ممتدتين عند أطراف الأنامل، أشبه شيء بأصابع من البسكويت!

فقذف سولومين بالقفازتين في جيبه، وأمر الوصيف بالسير.

وانطلقت به المركبة.

وبينا كان سولومين في طريقه إلى قصر سبياجين، كان هذا السيد الخطير جالسًا في قاعة الاستقبال، وقد وضع رسالة من الرسائل السياسية على ركبتيه، وبجانبه امرأته تحدثه ويحدثها عن سولومين.

وقد كاشفها بأنه قد كتب إليه لا لشيء سوى أن يخرجه من مصنع ذلك التاجر ويحتال عليه، حتى يعينه في خدمته لإدارة شؤون مصنعه بعد ما فسد واحتاج إلى النظام وحسن الرعاية.

ولم يكن يتصور ألبتة أن سولومين سيجسر على رفض دعوته، حتى ولا على تأجيل اللقاء إلى يوم آخر كاقتراحه.

وقالت فالنتينا مندهشة: «ولكن مصنعنا مصنع ورق، وذلك المصنع لنسيج القطن».

فأجاب زوجها: «المسألة واحدة يا عزيزتي؛ فإن الآلات تشتغل في المصنعين ولا فرق بينهما، وهو مهندس ميكانيكي يعرف كل ذلك».

قالت زوجته وهي تحاوره: «ولكن ماذا تقول إذا اكتشفنا أن سولومين هذا رجل أخصائي!».

فأجاب زوجها: «يا عزيزتي. ليس لدينا في روسيا ناس أخصائيون. ثم أنا قلت لك إنه ميكانيكي».

فابتسمت فالنتينا، وقالت: «احذر لنفسك يا عزيزي واتخذ الأناة مرشدًا لك. لقد كنت سيئ الحظ مرة في انتخاب فتى من الشباب. فاحذر أن تقع في ورطة أخرى».

فقال زوجها: «أتعنين بالأولى نجدانوف! إنني لا أظن أنني كنت مخطئًا كل الخطأ في اختياره؛ فإنه قام بالتدريس لكوليا خير قيام. ثم لا مؤاخذة إذا قلت لك إن الأمور لا تعيد نفسها».

فقالت فالنتينا: «أترى أنت هذا الرأي! إنني لست معك، بل إنني أرى أن الأمور أبدًا معيدة نفسها، ولا سيما من ناحية الفتيان والشباب».

فوضع سبياجين الرسالة التي كانت فوق ركبتيه على المائدة برفق، ونظر إليها وأجاب الفرنسية: «ماذا تعنين بقولك هذا؟».

فأجابته فالنتينا باللغة نفسها، وكانا يتكلمان معًا دائمًا بالفرنسية: «افتح عينيك تر كل شيء».

فقال سبياجين متنحنحًا: «أتعنين ذلك الفتى أيضًا؟».

فقالت: «نعم. أعنيه».

فوضع يده على جنبيه وقال: «وهل لديه هنا شيء جديد؟».

فكررت فالنتينا كلمتها الأولى: «افتح عينيك».

فقال: «أتقصدين ماريانا..هيه؟».

وكانت «هيه» هذه من أنفه. فلم تزد فالنتينا على قولها: «افتح عينيك. قلت لك».

فقطب سبياجين حاجبه وقال: «يجب أن نتكلم عن هذا الموضوع في فرصة أخرى. إنني أخشى أن يتضايق صاحبنا سولومين، فأنت تعلمين أنه لم يعتد الجلوس في المجتمع والاختلاط بأهله. إذَنْ فلنكن آية الرقة معه والتلطف، حتى يشعر بالطمأنينة والسكون إلينا. ولست بالطبع أعنيك بهذه الكلمات؛ لأنك أيتها العزيز تستطيعين أن تفتني أي مخلوق في العالم إذا شئت. لست بالطبع أقصدك. أنني إنما أعني الآخرين وفي مقدمتهم...».

وتوقف عن الكلام، وأشار إلى قبعة سوداء موضوعة فوق رف. وكانت تلك قبعة كولومتزف وكان قد حضر إلى القصر منذ الصباح.

وعاد يقول: «فهو كما تعلمين غضوب كثير الصياح شديد الاحتقار لطبقات الشعب، وقد استحال مشاغبًا كثير الشجار والهياج في الأيام الأخيرة. أليست أحواله هناك سائرة على ما يرام؟».

فأطرقت زوجته رأسها، وقد أدركت الغرض وقالت: «لا تخش شيئًا من ناحيته. فسأتولى ذلك بنفسي».

وجاء سولومين هادئًا ساكنًا، غير متحير ولا جازع أو خجل.

وما كاد يسمع سبياجين بنبأ حضوره حتى وثب من مكانه، وصاح بصوت يسمعه جميع أهل القصر: «دعوه يتفضل دون شك. دعوه يتفضل!».

ومشى إلى باب حجرة الاستقبال، ووقف يرتقب الضيف.

ولم يلبث أن أقبل سولومين، وتخطى عتبة الباب، حتى كاد يتعثر بسبياجين.

ومد هذا يديه معًا قائلًا بابتسامة وهزة لطيفة من رأسه: «ما أرق فؤادك إذ تقبلت الحضور. إنني لا أعرف كيف أشكرك».

واقتاد سولومين إلى ناحية فالنتينا زوجته.

وقال وقد وضع يده بلطف فوق ظهر سولومين، وهو يدفعه برفق نحوها: «اسمح لي أن أقدمك إلى زوجتي. عزيزتي هذا هو أبدع مهندس ومدير مصنع في ولايتنا هذه... فاسيلي... سولومين».

فنهضت فالنتينا من مجلسها، ورفعت إليه عينيها الساحرتين، وابتسمت ابتسامة عذبة كما تبتسم لصديق معروف لديها، ومدت إليه يدها وراحتها إلى أعلى ومرفقها في خصرها.

وترك سولومين للمرأة وزوجها أن يمثلا روايتهما تلك، وجلس في مكانه، عند أول دعوة منهما له بالجلوس.

وبدأ سبياجين يتلطف له ويتحبب ويتأدب ويتظرف، ويسأله إذا كان يشرب شيئًا أو يحب نوعًا من المرطبات.

ولكن سولومين أكد له أنه لا يريد شيئًا ألبتة، وأنه لم يشعر بأي تعب من «المشوار».

فقال سبياجين، وقد علا وجهه الخجل، كأنما غير مصدق أن الضيف سينزل إلى تلبية ذلك الرجاء: «إذَنْ أيصح لنا أن نذهب إلى المصنع؟».

فأجاب سولومين: «كما تحب. إنني مستعد للذهاب».

فقال سبياجين: «ما أطيب كرمك. هل نركب أم تؤثر أن نمشي على الأقدام؟».

فأجاب سولومين: «وهل المصنع منا بعيد؟».

فقال سبياجين: «على مسيرة نصف ميل».

قال سولومين: «إنها لا تستحق استحضار المركبة».

قال سبياجين: «حسن جدًّا. إيفان! عليّ بقبعتي وعصاي. هلم أسرع. وعليك بإعداد شيء لطعام الغداء أيها القزم. قبعتي أسرع!».

وكان سبياجين أكثر اضطرابًا من ضيفه، فعاد يصيح ثانية: «لماذا لم يأتوا إليّ بقبعتي»، واندفع وهو الموظف الخطير ورجل الحكومة العظيم يلتمس بنفسه القبعة عاريًا كالتلميذ الصغير الطائش.

وبينا كان سبياجين يحدث سولومين، وقفت فالنتينا تنظر إليه خلسة تحاول أن تكتشف هذا الشاب الجديد.

وكان جالسًا في مقعد كبير ساكنًا لا قلقًا ولا جازعًا، ويداه العاريتان على ركبتيه؛ لأنه لم يضع يديه في القفازتين. وهو في هدوء، وإن كان يبدو عليه شيء من الفضول، إذ مضى ينظر حوله يتفقد الرياش ويتطلع إلى الصور.

وجعلت فالنتينا تحدث نفسها قائلة: «إنني لا أستطيع أن أدرك أعماق هذا الرجل. إنه من العامة. نعم. من صميم العامة. ثم مع ذلك لا يبدو عليه أي أثر للتكلف أو التصنع، بل لا يزال على طبيعته!».

وفي الحق لقد كان سولومين كذلك. فلم يجلس متكلفًا الجلسة، أو ينظر متصنعًا النظرة، كأنما يريد أن يقول للناس: «انظر أي رجل فخم بديع أنا!»، ولكنه ظل جالسًا في مكانه كرجل صريح العواطف، سهل الطبيعة، متين الشعور، صافي الذهن.

وأرادت مدام سبياجين أن تقول له شيئًا وتطارحه الحديث، ولكن لشد ما دهشت إذ لم تعرف كيف تبتدئ وهي التي لم يعجزها شيء.

وإذ ذاك قالت لنفسها: «يا إلهي. إن هذا المهندس قد أهاج أعصابي!».

وجاهدت نفسها أخيرًا فراحت تقول له: «إن زوجي يجب أن يحفظ لك صنيعك المحمود؛ فقد كنت كريمًا إذ ضحيت ببضع ساعات من وقتك الثمين...».

فعاجلها سولومين بقوله: «ليس وقتي بالثمين إلى هذا الحد يا سيدتي، وفوق ذلك. لم يمض شيء على حضوري حتى الآن».

فجعلت تحدث نفسها بالفرنسية قائلة: «آه. لقد بدأ هذا الطائر يظهر خوافيه».

ولكن في تلك اللحظة ظهر زوجها عند الباب، وقبعته فوق رأسه، وعصاه في يده.

وقال بصوت غير متكلف ولا مضطرب: «هل أنت مستعد يا فاسيلي سولومين للذهاب؟».

فنهض سولومين، وحيا فالنتينا بانحناءة، ومضى منصرفًا خلف سبياجين.

ولم يلبث سبياجين أن صاح: «من هنا. من هنا».

كأنما كانا يمشيان في غابة كثيفة يتحسسان طريقهما في وسط العوسج المتعرج المنتشر، وكأنما كان سولومين يحتاج إلى دليل.

وعاد سبياجين يقول: «من هنا. خذ بالك. هنا فيه سلالم، هنا مصطبة عريضة. احترس!».

وما كادا يتخطيان عتبة الباب الخارجي، حتى التقيا بكولومتزف.

فنظر هذا شذرًا إلى سولومين وقال: «وإلى أين العزم؟ هل إلى المصنع انتويت ذهابًا؟».

ثم أكمل كلمته بالفرنسية فقال: «أهذا هو الشخص.... صاحبنا. الذي كنت تفتقده؟».

ففتح سبياجين عينيه، وهز رأسه على سبيله الإنذار، ثم قال: «نعم نحن ذاهبان إلى المصنع؛ لأنني أريد أن أدل هذا السيد -وهو مهندس ماهر- على عيوبي ومناقص عملي، فاسمح يا مستر كولومتزف بأن أقدمك إليه–حضرته مستر كولومتزف جارنا ومن أصحاب الأملاك، وهذا مستر سولومين!».

فأطرق كولومتزف رأسه مرتين بشكل متعجل، دون أن يلتفت ناحية سولومين. ولكن هذا نظر إليه، وللحال بدا في عينيه المغمضتين قليلًا بريق سوء وشر.

قال كولومتزف: «وهل تسمح لي بأن أذهب معكما؟ فأنت تعلم طواعيتي واستعدادي للمعرفة والتعليم».

فأجاب سبياجين: «بلا ريب، إذا أحببت».

ولكنهم لم يسيروا بضع خطوات في الطريق، حتى التقوا بقسيس في طريقه إلى داره، فترك كولومتزف رفيقيه ومضى إلى ذلك القسيس، فطلب إليه أن يباركه، ثم وضع يده على القسيس فضربها بشدة على سبيل الألفة، وغضب القسيس؛ لأنه لم يكن يتوقع ذلك من الرجل.

ومضوا في طريقهم.

وجعل كولومتزف ينظر إلى سولومين نظرات شريرة مهاجمة، وكان ولا ريب قد سمع طرفًا من أنباء سولومين، فأراد أن يظهر نفسه أمامه ويتمازح ويتفاكه على حسابه.

وبلغوا المصنع، فرأوا مديره رجلًا كبير اللحية، ذا أسنان صناعية، وكان هذا المدير معينًا بصفة مؤقتة، ولم يكن يدرك من العمل شيئًا، بل ظل على قوله: «هو ذلك. تمام. تمام يا أفندم!»، ويصعد الزفرات طول الوقت.

ومشوا يتفقدون المكان، وكان كثيرون من العمال يعرفون سولومين، فجعلوا ينحنون له بالتحية، وصاح مرة على أحد العمال قائلًا: «آه. جريجوري. أنت هنا!».

ولم يلبث سولومين أن تبين أن المصنع في حالة سيئة، وأن النفقات طرحت فيه بلا موجب، وصرفت عليه الأموال بلا ضرورة، ورأى أن الآلات البخارية من أحقر طراز، وأغلبها لم يكن ثمة حاجة إليه، ولم يجد لأهمها وأوجبها في المصنع من أثر.

وظل سبياجين متطلعًا إلى وجه سولومين يحاول أن يحذر رأيه، وجعل يسأله بعض أسئلة بحياء ليطمئن إذا كان الرجل قد رضي بالمكان أو سر من نظامه.

فقال سولومين: «النظام لا بأس به، ولكني في شك من الفائدة التي تعود عليك من هذا المصنع!».

وأدرك سبياجين بل وكولومتزف معه أن سولومين على خبرة عظيمة بكل شيء من شؤون المصنع، وأنه ظل يمشي في منافسه كأنه في دار له ألفها وسكن إليها، ووقف عند أداة بخارية، فوضع يده عليها بتلك الألفة والخبرة التي يضع راكب الخيل يده على شعر جواده.

ولم يتكلم سولومين إلا قليلًا، ولم يعر مدير المصنع ذا اللحية الكثة الطويلة أدنى التفات وانصرف ولم يقل شيئًا، ومشى سبياجين وكولومتزف في أثره.

وكان سبياجين في أشد حالات الاضطراب، حتى لم يأذن لأحد من رجال المصنع بأن يرافقه، ومشى يخبط الأرض بقدمه ويعض على نواجذه من الغضب.

والتفت صوب سولومين وقال: «إنني أرى من وجهك أنك لم تُسرَّ بالمصنع. بالتأكيد أنني عارف أنه ليس في حالة طيبة، ولم تعد عليَّ منه إلى الآن فائدة، ولكن ألا تتكرم بإبداء رأيك الخالص في العيوب الجوهرية التي تعيب المصنع وتسيء حالته، والوجوه التي تتيسر للإنسان في سبيل إصلاحه».

فأنشأ سولومين يتكلم، فقال: «ليست صناعة الورق حرفتي، ولكن أستطيع أن أقول لك كلمة واحدة. إنني في شك من استعداد أهل الطبقة النبيلة الأرستقراطية للمشاريع الصناعية!».

فانبرى كولومتزف يسأله قائلًا: «هل ترى أنها محقرة من شأنهم منزلتهم عن أوْجهم؟».

فابتسم سولومين ابتسامته المعتادة وقال: «كلا. كلا مطلقًا. أي تحقير من ناحيتها وأي تصغير من جرائها، ولو صح أنها كذلك، فلست مع ذلك أظن أن أهل الأرستقراطية يحفلون كثيرًا بذلك».

فقال كولومتزف: «ماذا تعني بذلك؟».

فاستطرد سولومين حديثه برفق فقال: «إنني لم أقصد بذلك إلا أن أقول إن النبلاء لم يعتادوا هذا النوع من العمل؛ إذ تعوزهم الخبرة بالتجارة، ولا بد لهم من التدريب الفني في سبيل إجادة هذا الضرب من الصناعة، والنبلاء وأهل الطبقة العالية لا يفهمون شيئًا من ذلك. وها نحن نراهم قد بدأوا ينشئون مصانع للأصواف والأقطان والورق في كل مكان، ولكنهم لا يلبثون أن يقعوا في أيدي التجار في النهاية. وهذه حالة يؤسف لها؛ لأن التجار شر على الفقراء والعمال والمساكين من أولئك، وأشد استغلالًا لمجهوداتهم. ولكن لا أرى حيلة لمعالجة ذلك».

فصاح كولومتزف قائلًا: «إن من يستمع إليك وأنت تفوه بهذه الكلمات يخيل إليه أن جميع الشؤون المالية أكثر من أن تدركها أذهان النبلاء».

فأجابه سولومين قائلًا: «كلا. بل بالعكس. إن النبلاء سادة في الماليات وكبار من يحل مسائلها، وليس ثمة من يضارعهم في إنشاء سكة حديدية، أو إقامة مصارف مالية، أو التحايل على التخلص من ضريبة من الضرائب، إنهم لا يلبثون أن يغتنوا وتطول ثرواتهم. وقد قلت ذلك منذ لحظة ولكن يخيل إليّ أنك تألمت من رأيي ذاك، على أنني عندما قلت ذلك، كنت أقصد أن أتكلم عن الصناعات المطردة النظامية؛ لأن إنشاء محلات عمومية للخاصة وحوانيت للبقول وإقراض الفلاحين حنطة أو نقودًا بفائدة مائة في المائة أو مائة وخمسين في المائة، كما يفعل الآن عدد عديد من نبلائنا وأهل الطبقة العالية لدينا، ليست من الشؤون المالية في شيء مطلقًا».

فخرس كولومتزف ولم يقل شيئًا؛ لأنه كان من جماعة الأغنياء الذين تنطبق عليهم كلمة سولومين في إقراض الفلاحين بفوائد فادحة لا تعقل، وكان أقسى من مد إلى رجل في الدنيا مالًا على أن يرد إليه عند الميسرة، وأخشن المقرضين فؤادًا، فلم يكن يسمح لأحد من الفلاحين بالدخول إلى حجرته المتأرجحة العاتقة بأنفاس الزهر. ولم يكن ليختلط بهم أو يباشر عملية القروض بنفسه، بل كان يقرضهم على يد وكيل أعماله.

وكان يغلي من الغضب وهو يستمع إلى كلمات سولومين، ولكنه تمالك جأشه قليلًا، على أن عضلات وجهه كانت تنم عما كان يتقد في فؤاده.

وبدأ سبياجين يقول: «ولكن اسمح لي يا مستر سولومين أن أقول إنه قد يصح ما قلته عن العصر الماضي، يوم كان للنبلاء ميزات خاصة وحقوق متنوعة، وكانوا هم في مرتبة غير مرتبتهم اليوم. ولكن في العصر الحاضر بعد أن أدخلنا كل هذا الإصلاح على الصناعة. لماذا لا يولي النبلاء وجوههم شطر هذا الضرب من المشاريع، ويقصرون عليه همهم ومواهبهم؟ ولماذا يعز على أذهانهم فهم ما لا يعجز التاجر البسيط الساذج الأميّ عن إدراك أسراره، فإنهم قد أصابوا قسطًا

ليس بالضئيل من التهذيب، بل يصح للإنسان أن يقول عنهم غير مبالغ ولا مغال إنهم رمز النور والعرفان في هذا العصر».

وقد أجاد سبياجين القول، وكانت بلاغته تلك قمينة أن تحدث في سان بطرسبرج، ولا سيما في مكتب إدارته أو في الدوائر العالية حركة كبرى، ولكنها مضت بلا أثر ولا أحدثت أي حركة في ذهن سولومين.

فأعاد سولومين قوله: «إن النبلاء لا يستطيعون مداركة هذه الشؤون ومسايرتها وتدبير مطالبها».

فكاد يصرخ كولومتزف في وجهه قائلًا: «ولكن لماذا يعجزون؟ لماذا؟ أريد أن أفهم لماذا».

فأجاب سولومين: «ذلك لأنه تغلب عليهم الروح البيروقراطية والولع بالنهي والأمر، وحب الاستبداد».

فضحك كولومتزف ضحكة شر وخبث وقال: «أتقول الروح البيروقراطية؟ إنني لا أظنك فاهمًا ما تقول يا مستر سولومين».

فظل سولومين يبتسم وقال: «وما الذي يحملك على هذا الظن يا مستر كولومتزف! إنني أؤكد لك أنني أفهم دائمًا ما أقول».

ولما سمع كولومتزف اسمه محرفًا مشوهًا مزيدًا فيه، ارتعش ورعد من شدة الغضب.

قال: «إذن تكرم بشرح ما قصدت إليه الآن؟».

فأجاب سولومين: «بكل سرور. إنني أظن أن كل رجل حكوميّ أجنبيّ عنا، وهو أبدًا كذلك. نعم، إن نبلاء هذه البلاد قد أصبحوا أجانب عنها غرباء فيها».

فضحك كولومتزف بأشد من قبل وصاح ثانية قائلًا: «ولكني يا سيدي العزيز لا أفهم في الحقيقة ما تعني».

فأجاب سولومين: «وذلك شر عليك. ربما تستطيع فهمًا إذا أجهدت ذهنك قليلًا».

فصاح كولومتزف محتدًّا: «سيدي!».

ولكن سبياجين تداخل بينهما، وصاح بعجلة: «أيها السيدان أيها السيدان. من فضلكما. من فضلكما. كولومتزف. أرجو إليك أن تهدئ نفسك، إنني أظن أن الغداء قد أعد لنا. هلما بنا. هلما بنا... هلما بنا».

وبعد ذلك بخمس دقائق، وقف كولومتزف في بهرة مخدع مدام سبياجين يصيح: «فالنتينا، إنني لا أدري ماذا يبغي زوجك من هذا! فقد أحضر إلينا من قبل فتى عدميًّا مخيفًا، وها هو قد جاءنا برجل آخر على مثاله، ولكن هذا القادم الجديد ألعن من الأول وشر منه وأشنع!».

فقالت فالنتينا مندهشة: «ولكن لماذا؟».

فأجاب كولومتزف: «إنه يدافع عن أشنع المبادئ، ويؤيد أشد الآراء خطرًا وويلًا. وماذا تقولين في أنه ظل يكلم زوجك ساعة كاملة دون أن تسول له نفسه ولو مرة واحدة، نعم، ولو مرة واحدة بأن يخاطبه قائلًا: يا صاحب السعادة! آه من الوقح الوَخْش الوبش البذيء...!».

* * *

وقبل الجلوس إلى مائدة الغداء بلحظة، دعا سبياجين زوجته إلى خلوة في حجرة المكتبة؛ إذ أراد أن يحادثها على انفراد، فقد رأى نفسه في مركز محرج وموقف خشن.

فلما احتوتهما الحجرة، طفق يشرح لها الحالة السيئة التي انتهى إليها المصنع، والإعجاب الذي شعر به من ناحية مواهب سولومين وكفاءته لتولي إدارته على الرغم من جفوة خلقه وصرامة أدبه، وأنه لذلك يرى أن يستمر هو وزوجته على التلطف له ومحايلته وإكرامه ما شاء لهما الكرم.

وجعل يكرر مرة أو مرتين «ما أشد لهفتي على الحصول عليه في مصنعي».

وأغضب سبياجين سقوط كولومتزف عليه في ذلك اليوم، ولذلك صاح غاضبًا: «لعنة الله عليه! وفي ذمة الشيطان هو! إنه يتصور العدميين ودعاة الثورة في كل مكان، ويأبى إلا أن يشاتمهم ويصارحهم العداء، ويزهق أرواحهم، ولكن له أن يفعل ذلك في بيته لا في منزلي أنا. إنه لا يستطيع أن يمسك لسانه عن الكلام!».

فردت عليه زوجته بأنه يسرها أن تتلطف له وتتأدب، ولكن يلوح لها أن الضيف ليس بحاجة إلى التلطف منها والتأدب؛ لأنه لا يحفل منها بذلك ولا يهتم، لا عن غلظة منه وخشونة، وإنما استخفافًا منه وتظاهرًا بالاستهانة، وذلك غير مستبعد على رجل من عامة الشعب.

فقال لها سبياجين بلهجة المتوسل: «ترفقي به وتلطفي معه على كل حال».

فوعدته فالنتينا أن تفعل كما يريد، وكذلك بَرّت بما وعدت.

فبدأت أولًا بالاختلاء وكولومتزف. وقد ظل ما دار بينهما من الحديث سرًّا خفيًّا لم يعرفه أحد، وكل ما كان منه بعد ذلك أنه جاء إلى المائدة وعليه مظهر رجل أجمع نيته على أن يظل محاذرًا مطيعًا صامتًا مهما كلفه ذلك من ثمن.

وقد جعله هذا الاستسلام حزينًا مقطبًا واجمًا مهيبًا في كل حركة من حركاته، وعرّفت فالنتينا سولومين إلى كل إنسان، ولكنه لم يحتفل بأحد ممن تعرف إليهم احتفاله بالنظر إلى ماريانا والإصغاء إلى كلماتها.

وأجلسته مدام سبياجين أيضًا بجانبها على المائدة، وجلس كولومتزف عن يسارها، فلما نشر «فوطته» ابتسم لها وأطال في وجهه وسحنته كأنما يريد أن يقول:

«والآن لنبدأ بتمثيل هذه الرواية المنزلية».

وجلس سبياجين في الناحية المقابلة، وهو في أشد الاضطراب والجزع.

واتخذت فالنتينا ما يجب من التدابير، حتى لا يكون مجلس نجدانوف بجانب ماريانا كالعادة، بل بين العجوز زهروفنا وبين سبياجين.

ووجدت ماريانا عند ابتداء الطعام بين كولومتزف والصبي كوليا.

وكان الطعام أفخم ما يكون، طعامًا «رسميًّا»، وقد وضعت قائمة الأطعمة أمام كل آكل في صحفته.

وما كاد الخدم يرفعون صحاف الحساء، حتى أنشأ سبياجين يدور بالحديث إلى وجهة المصنع وأحواله، ثم إلى الصناعات الروسية عامة.

وطفق سولومين يجيب كعادته أجوبة موجزة.

وما كاد يبدأ أحاديثه، حتى راحت ماريانا تحدق فيه بصرها مستمعة إليه.

وأما كولومتزف، وكان جالسًا بجانبها يتلطف لها، ويصب في أذنيها عدة ألفاظ على سبيل المجاملة، إذ نبئ من قبل أن لا يبدأ مناقشة أو يدخل في جدل أو شجار.

ولكن ماريانا لم تسمع إلى كلماته، ولم تعره التفاتها.

وتبين هو أن بينه وبين تلك الفتاة هاوية سحيقة لا يستطيع اجتيازها.

وأما صديقنا نجدانوف، فقد وقع بينه وبين رب البيت جفوة شديدة، بل ازداد الشقاق بين الرجلين، فقد كان نجدانوف في نظر سبياجين قطعة من الأثاث لا أكثر ولا أقل، وتخيل مجلسه فراغًا لا يشغله أحد، متصورًا أنه ليس موجودًا في الحجرة معهم، وقد ظهر ذلك الشعور وتجلى عندما بدأ نجدانوف يتبادل والعجوز حنة زهروفنا بعض الملاحظات، إذ دار سبياجين بعينه في دهشة وذهول، كأنما عجب لهذا الصوت من أي النواحي صدر.

وبعد أن تناول القوم السمك انبرت فالنتينا، وكانت قد حشدت كل مفاتن جمالها وكرمها لامتلاك فؤاد سولومين، فقالت لزوجها باللغة الإنجليزية أنها قد لاحظت أن ضيفهما لم يشرب نبيذًا، وربما

يؤثر عليه شيئًا من الجعة -البيرة-، فلم يكن من سبياجين إلا أن صاح على الخدم أن يأتوا بالجعة على الفور.

فالتفت سولومين إذ ذاك ناحية فالنتينا وقال: «قد لا تعلمين يا سيدتي أنني قضيت في إنجلترا أكثر من عامين وأجيد معرفة الإنجليزية. إنني إنما ذكرت ذلك الآن لكي تكوني على بصيرة، فلعلك تحبين مرة من المرات أن تكلمي زوجك عن شيء خصوصي بينكما».

فضحكت فالنتينا وأكدت له أن لا ضرورة مطلقًا إلى هذا التحذير؛ لأنه لن يسمع عن نفسه غير الخير والمديح.

ولكنها في أعماق نفسها عدت عمل سولومين غريبًا، وإن لم يكن يخلو أيضًا من شيء من اللطف والأدب.

وإذ ذاك لم يطق كولومتزف صبرًا على السكوت، فبدأ يتكلم.

قال يخاطب سولومين: «إذَنْ حضرتك كنت في إنجلترا، وقد درست أخلاق القوم هناك بلا شك، وخبرت آدابهم وعاداتهم، فهل تظنها حقيقة بالاقتداء خليقة بأن نحذو حذوها؟».

فأجاب سولومين: «بعضها يصح الاقتداء به، وبقيتها لا خير فيه».

فقال كولومتزف وهو يتظاهر بأنه لا يرى الإشارات التي كان سبياجين يشيرها إليه: «جواب مختصر، ولكن غير واضح. لقد كنت تتكلم في هذا الصباح عن طبقة النبلاء في هذه البلاد. إنك ولا شك استطعت في المدة التي مكثتها في بلاد الإنجليز أن تدرس أخلاق نبلائهم وأصحاب الأراضي عندهم. أليس كذلك؟».

فأجاب سولومين: «لم يُتَح لي ذلك، فقد كنت في دائرة بعيدة عن دائرتهم. ولكني كوّنت لي آراء خاصة عن أولئك النبلاء».

فقال كولومتزف: «حسن جدًّا. وهل تظن أنه يستحيل أن يكون لدينا نبلاء على شاكلتهم أم ينبغي أن لا يكون لدينا طبقة نبيلة على الإطلاق؟».

فأجاب سولومين: «أولًا إنني أظن ذلك مستحيلًا، وثانيًا لا أرى فائدة ما في أن يكون من بين طبقاتنا نبلاء وأشراف».

فعاد كولومتزف يسأله بصوت أقل خشونة من قبل، متابعة لرغبة سبياجين، إذ كان قد تحفز في مجلسه: «ولكن نبئني ما الذي يحملك على هذا الرأي؟».

فأجاب سولومين: «ذلك لأنه لا تمضي عشرون عامًا أو ثلاثون، حتى يختفي من هذه البلاد كل أثر للنبلاء وأصحاب الأراضي».

فعاد كولومتزف يقول: «وما السبب؟».

قال سولومين: «ذلك لأنه في بحر هذا الزمن تكون الأراضي كلها قد انتقلت إلى أيدي أفراد عصامين لا يمتازون بنبل المحتد، والدم وعراقة الأصل».

قال كولومتزف: «أتعني بذلك التجار؟».

فأجاب سولومين: «نعم. التجار على الأرجح».

فابتسم كولومتزف ابتسامة رجل متنازل لمن هو دونه وقال: «لعلك تتذكر أنك قلت الآن غير ما أدليت به منذ ساعة من الآراء عن المصانع».

قال سولومين: «بل إنما أقول هو الحقيقة التامة!».

فقال كولومتزف: «ولا ريب في أن ذلك سيسرك. أليس كذلك؟».

فأجاب سولومين: «لا يسرني ذلك ألبتة. وقد قلت لك قبل الآن إن عامة الشعب لن تروح أحسن حالًا من وراء هذا التغيير إذا وقع».

فرفع كولومتزف يده قليلًا: «إذَنْ تصور أي ألم وشجن سيحدث للشعب من ذلك!».

فصاح سبياجين بأعلى صوته: «يا مستر فاسيلي سولومين. لقد أحضر لك الخادم الجعة. تفضل اشرب».

ثم خفض من صوته، وقال همسًا يخاطب كولومتزف: «سيميون، عزيزي، مش كدا أمال! ترفق قليلًا وهدئ روعك».

ولكن مثل كولومتزف لم يكن ليأبه بهذا الإنذار، أو يعبأ بتلك النصيحة.

إذ عاد يقول ملتفتًا نحو سولومين: «إنني أرى من خلال حديثك أنك لست راضيًا أيضًا عن طائفة التجار، ولكنهم كما تعلم نشأوا من عامة الشعب، ووثبوا من بهرة الجماهير».

فقال سولومين ببرود: «لا أنكر ذلك».

فعاد كولومتزف يقول: «لقد كنت أظن أنك تعتقد أن كل ما يخرج من الشعب أو يختص بالشعب عندك فوق كل نقد».

فأجاب سولومين: «لم يكن ذلك اعتقادي ألبتة. إنك مخطئ كل الخطأ. فإن هذا الشعب ليعاب بعدة أمور، ويُنقد من وجوه متعددة. وإن لم يكن الذنب في جميع الأحوال ذنبهم، وليست جريرة كل منقصة واقعة عليهم. إن تاجرنا الروسي رجل يستخدم كل شيء لفائدته الخاصة، ولهذا يستثمر رأس ماله لهذا الغرض، فهو يظن دائمًا أن الشعب يريد أن يتفوق عليه ويغشه ويمكر عليه. كما يفعل هو معهم، حذوك النعل بالنعل، ولكن الشعب...».

فقال كولومتزف يعاجله مقاطعًا: «نعم. تفضل. قل. ماذا عن الشعب تود أن تقول؟».

فاستطرد سولومين في حديثه يقول: «ولكن الشعب نائم!».

قال كولومتزف: «وهل تود أنت أن توقظه من سباته؟».

فأجاب سولومين: «عمل غير مذموم لو أنني فعلته».

فضج كولومتزف صارخًا: «... آها... آها... إذن هذا ما أردت...».

وهنا صاح سبياجين بلهجة الآمر: «سيدي. سيدي».

وقد شعر أن الوقت قد حان لإيقاف هذا الجدل عند حده، وكذلك فعل.

فرفع يده اليمني بإشارة خفيفة، مبقيًا مرفقه مرتكزًا على المائدة. وانطلق في حديثه طويل مسهب بليغ، فمدح المحافظين أولًا، وأثنى على الأحرار ثانيًا، مؤثرًا هؤلاء على أولئك؛ لأنه يعد نفسه من حزبهم وفي صفوفهم الأولى. وتكلم عن الشعب فأحسن وأجاد، وذكرهم بالخير وأثنى عليهم، ولكنه لفت الأنظار إلى بعض مناقص أخلاقهم وأبان عن إيمانه التام بحسن نية الحكومة، ولكنه جعل يتساءل عن حيرة غير معتقد أن الموظفين جميعًا يؤدون وينفذون رغباتها الحسنة ونواياها البديعة النافعة، واعترف للأدب بأهميته وسلطانه. وإن صرح بأنه يخشى أن يروح الأدب خطرًا مؤذيًا إذا لم يعالج بمنتهى الحكمة والحذر. ثم عاج على حضارة الغرب، فشرح آماله الكبار في النتائج

الحسنة التي ستعود على بلاده من وراء الاقتداء به، واحتذاء حذوه، ولكنه لم ينكر قلقه وشكه في صلاح ذلك وفائدته. ثم أحال الكلام على الشرق، فتنهد أولًا وزفر، ولم يلبث أن حمت حميته وارتفع تحمسه، وختم الحديث بأن سأل من حوله أن يشربوا نخب الثالوث المقدس لديه وهو الدين والزراعة والصناعة!».

فأردف كولومتزف على تلك الكلمات: «نعم. تحت سلطان الحكومة».

فأصلح سبياجين كلمته وقال: «تحت حكومة عاقلة رشيدة خيّرة محسنة».

وشرب الثلاثة ذلك النخب في سكون وصمت.

وجعل نجدانوف وهو ذلك الفراغ الذي ظن سبياجين أنه لا يشغل حيزًا، يتمتم في خلال الحديث كلمات استياء وتذمر ومعارضة، ولكنه لم يرد أن يحدث هو أيضًا ضجة أو حوارًا شديدًا. فسكن ولم يتكلم. وانتهى الغداء... على خير!

وقامت فالنتينا إلى القهوة فقدمت -وهي تبتسم ابتسامة ليس في العالم أفتن منها- فنجانًا إلى سولومين، فشربه، ولم يكد يضع الفنجان، حتى تلفت يريد قبعته، وإذ ذاك أمسكه سبياجين من ذراعه، ومشى به إلى حجرة مكتبته.

وهناك بدأ بتقديم سيجارة طويلة من أفخم أنواع التبغ إليه، ثم انتهى بأن عرض عليه الدخول في خدمة مصنعه بأبدع الشروط وأعظم الاتفاقات، ومضى يقول:

«وستكون في المصنع السيد المطلق. وإني أؤكد لك ذلك».

فتقبل سولومين السيجارة، ولم يتقبل الوظيفة!

وتمسك برفضه، وأصر على إبائه، ولم يستمع لمحاولات سبياجين وتوسلاته وشفائعه ومشجعاته.

فلما أنهك سباجين الإقناع، وأتعبه التحايل، قال: «أرجوك يا عزيزي سولومين أن لا تقول كلا مرة واحدة. إنما قل على الأقل أنك ستفكر في المشروع إلى الغد».

فكان جواب سولومين: «العبارة واحدة إذ لن أتقبل ما عرضته عليّ».

فعاد سبياجين يتضرع قائلًا: «ألا قل إنك ستفكر فيه إلى الغد يا عزيزي سولومين. فهذا لا يضيرك ولا يؤلمك. ولا يكلفك شيئًا».

فوافق سولومين، وخرج من الحجرة، ورجع يبحث عن قبعته.

ولكن نجدانوف لم يكن أتيح له أن يكلم سولومين كلمة واحدة، فدنا منه وهمس له في عجلة: «بحق السماء لا تنصرف الآن. وإلا حرمتنا حديثًا لا بد منه».

فترك سولومين قبعته، ولم يتقدم نحوها.

وقال سبياجين متوسلًا ثانية: «هلا تكرمت بالمبيت الليلة عندنا؟».

فأجاب سولومين: «كما تحب».

وأثارت النظرة التي رمقته بها الفتاة ماريانا وهو واقف عند النافذة عاصفة من الآراء في ذهنه.

* * *

ولم تكن ماريانا قد سمعت بسولومين، ولم تكن تخيلته كحقيقته إذ رأته، فقد خطر لها لأول وهلة أنه شخص غير محدود، معروف الخلق، سليب من الشخصية.

وقد رأت قبله كثيرين من الشباب مثله نحوفة بدن، ومتانة عضل، ولكنها ما كادت تجلس متطلعة إليه، مراقبة حركاته، حتى استهواها حديثه إلى الإصغاء. ولم تلبث أن سكن فؤادها إليه، وأوحى مظهرها إلى روحها الطمأنينة والثقة والإيمان به.

فقد تبينت منه رجلًا ساكنًا هادئًا، لا بالدميم ولا بالثقيل الظل، لا يكذب ولا يماري، ولا يدعي ما ليس فيه، ولا يزهو ولا يطول على الناس فخورًا، بل لَيستطيع الإنسان أن يستند إليه ويركن، كما يركن إلى جدار من الحجر متين البناء.

وخيل إلى ماريانا أن هذا الإحساس لم يقع منه في نفسها وحدها، بل في نفوس الحضور كلهم.

ولم تحتفل ماريانا بتلك الأحاديث التي كان سولومين يحدثهم بها؛ إذا لم تكن تهتم بما يقول عن المصانع والتجار، ولكن اللهجة التي كان يتكلم بها والطريقة التي كان يتلفت بها حوله ويرسل ابتسامته تطوف بوجوه السامعين، وقعتا عندها افتن موقع، وبعثت في فؤادها أشد السرور.

فناجت نفسها تقول عنه: «رجل صريح متهجم في الوجه.. على الأقل».

والحقيقة الذائعة التي يعرفها الناس جميعًا -وإن لم يسهل عليهم فهمها- أن الروس أكذب من مشى على وجه الأرض، ولكن ليس شيء في العالم هو آخذ بمجامع قلوبهم وأبعثهم على احترامه وإكباره من الصدق وقول الحق؛ فهم أشد الناس إجلالًا له واشتراكًا في العاطفة مع قائله.

ولاح سولومين في عينيْ ماريانا كأنما قد حفت به هالة كهالة القمر.

وقد بادلت نجدانوف على المائدة عدة نظرات عن سولومين ورنوات، وفي النهاية لم تلبث أن رأت نفسها وهي لا تدري قد راحت تقارن بين الرجلين وتوازن بينهما، وخرجت من تلك المقارنة بتفضيل سولومين على فتاها.

وفي الحق لا ننكر أن نجدانوف كان أوسم وجهًا وأنضر محيا من سولومين، وكان وجهه يبعث الناس على النظر إليه بأشد مما يجتذبهم وجه سولومين. ولكنه مع ذلك كان ينم عنْ وجدانات مضطربة ومشاعر متضاربة متألمة مختلطة متدافعة، ويشف عن ارتباك وحيرة وغضب وقلق

وتراخ، بل وطائف من اليأس كأنما كان يقتعد مرجلًا مفعمًا بقطع متقدة مضطرمة من الفحم. وكان يحاول أن يتكلم في خلال الطعام، ولكن لم يفعل وجعل يضحك ضحكات تشنجية.

أما سولومين فقد بدا عليه أثر ضعيف من الملل، ولكنه كان مع ذلك جالسًا في منتهى الراحة والسكون، كأنه في داره، مستقلًّا عما يجري حوله، غير مقيد بالمجلس وأهله.

وإذ ذاك جعلت ماريانا تقول لنفسها: «ينبغي أن نستنصح هذا الرجل؛ فإنه والحق يقال قدير على أن يهدينا إلى الصواب، ويصل بنا إلى ثنية الحق».

ولذلك كانت هي التي أرسلت نجدانوف إلى سولومين بعد الغداء، ليستبقيه للمبيت في تلك الليلة في دار سبياجين.

ومضى المساء متباطئًا متثاقل الخطى.

وأبطأ العشاء لحسن الحظ في تلك الليلة، ولم يكن بقي غير وقت قليل حتى يأوي الجميع إلى المضاجع.

وظل كولومتزف غضوبًا صامتًا ولم يقل شيئًا.

فقالت فالنتينا تخاطبه متضاحكة:

«ماذا جرى لك. هل ضاع منك شيء؟».

فأجاب كولومتزف: «نعم. ضاع. فهل تعلمين حكاية ذلك الضابط الذي كان في فرقة الحرس القيصري كيف كان في أشد الحزن والألم لأن جنوده أضاعوا «فردة» من جورب من جواربه، وبات يصرخ بأعلى صوته «ابحثوا لي عن فردة جوربي!». ذلك مثلي اليوم، فإنني أريد أن أصيح «ابحثوا لي عن كلمة «سيدي!» فإن هذه لفظة قد ضاعت. وبضياعها فقدنا كل أثر لاحترام المقامات، وحفظ الألقاب وإكبار المراكز العظيمة وأهلها!».

فأجابته فالنتينا بإنها لا ترضى لنفسها أن تساعده في البحث عن تلك «الضالة» المفقودة.

ولقد أكثرت فالنتينا في تلك الليلة من التظرف لسولومين والتحبب له والدنو منه، وإظهار كل وسائل الكرم وحسن المثوى، ولكن خيبتها في «بلفه» أيأستها.

وقد مشت منصرفة إلى وجهها، فلما اقتربت من كولومتزف، همست تقول له بصوت منخفض بالفرنسية: «يا إلهي، لقد أنهكني التعب من صلابة هذا الرجل!».

فأجابها في مثل صوتها: «أنتِ التي أردت لنفسكِ هذا التعب مع مخلوق كهذا».

وفي النهاية بعد المصافحات بالأيدي والكلمات المؤدبة والمتلطفة، وقد بدأ الجلوس يملون من الأحاديث وتعتريهم السآمة افترق الأضياف وأهل الدار.

وكان سولومين قد أفردت له أبدع حجرات الطابق الثاني، حجرة فخمة قد اجتمعت فيها كل أدوات الزينة على الطراز الإنجليزي، وحمام فخم بجانبها.

ولكنه لم يذهب إليها رأسًا، بل انصرف إلى حجرة نجدانوف.

فبدأ الفتى يشكره لقبوله البقاء تلك الليلة في الدار قائلًا: «إنني أعلم أن هذه تضحية منك».

فأجاب سولومين بعجلة: «ليست تضحية ألبتة. فلم تكن هناك حاجة إلى تضحية ما، وفضلًا عن ذلك لم أكن أستطيع رفض سؤلك».

قال نجدانوف: «ولماذا؟».

فأجاب سولومين: «لأنني قد مِلت بكليتي إليك».

فدهش نجدانوف، وسر في آن واحد، بينا شد سولومين يده مصافحًا.

ثم جلس سولومين في مقعد وأشعل سيجارًا، وأسند مرفقيه خلف المقعد وبدأ الكلام.

قال: «والآن ماذا تريد أن تحدثني به».

فجلس نجدانوف أيضًا قبالة سولومين، ولكنه لم يشعل لفافة من التبغ، وأنشأ يقول: «إذَنْ تريد أن تعرف ما الخبر. إنني أريد أن أنبئك أنني أود الهروب من هذا المكان».

فأجاب سولومين: «أتريد أن تفارق هذا البيت؟ إنني لا أرى شيئًا يحول بينك وبين نيتك».

فقال نجدانوف: «لا تقل أفارقه، بل إني أقول أريد الفرار منه!».

فأجاب سولومين: «ولماذا. هل يريدون أن يمنعوك الذهاب، أم لعلك قبضت شيئًا من راتبك سلفًا؟ إذا كان الأمر كذلك، فما عليك إلا أن تلفظ الكلمة فتراني عند ظنك بي».

فقال نجدانوف: «أخشى أن لا تكون قد أدركت ما أرمي إليه يا عزيزي سولومين، إنني قلت أريد الفرار من هذا المكان لا مفارقته؛ لأنني لا أريد الذهاب وحدي».

فرفع سولومين رأسه.

قال: «ومع من تريد إذَنْ فرارًا؟».

فأجاب نجدانوف: «مع الفتاة التي رأيتها اليوم هنا».

قال سولومين في دهشة: «مع تلك الفتاة. في الحق إن لها وجهًا جميلًا. وهل تحبان بعضكما بعضًا، أم أجمعتما النية فقط على الذهاب معًا؛ لأنكما لا تحبان في هذا القصر مقامًا؟».

قال نجدانوف: «بل لأننا نحب بعضنا بعضًا».

قال سولومين: «آه. وهل هي ذات قربى لأهل هذا البيت؟».

فأجاب نجدانوف: «نعم. ولكنها تدين بمبادئنا وتشاركنا في العقيدة الوطنية التي نؤمن بها، وهي متأهبة لأي تضحية».

فابتسم سولومين.

قال: «وأنت يا نجدانوف، أمتأهب أنت أيضًا؟».

فقطب نجدانوف حاجبه قليلًا وأجاب: «ولِمَ هذا السؤال؟ سترى بعينك إذ يحين الوقت وتأزف الآزفة».

قال سولومين: «لست في شك من ناحيتك يا نجدانوف، ولكني سألتك فقط لأنني لا أرى غيرك أحدًا متأهبًا».

قال نجدانوف: «وماركيلوف؟ ماذا تقول فيه؟».

فأجاب سولومين: «آه. نعم وماركليوف كذلك، ولكنه كما تعلم وُلِد متأهبًا!».

وفي تلك اللحظة دق الباب دقًّا خفيفًا، ولم يتمهل الطارق حتى يفتح الباب له، بل دخل في عجلة. وكان الطارق ماريانا. ومشت مسرعة نحو سولومين.

وبدأت الكلام قائلة: «إنني واثقة أنك لست في دهشة مطلقًا لرؤيتي الآن في هذه الساعة من الليل، فإنه —وهنا أشارت نحو نجدانوف -ولا ريب قد أنبأك بكل شيء.

ألا أمدد إليّ يدك، وأعتقد أن الفتاة الواقفة أمامك مخلصة شريفة صادقة».

فقال سولومين بصوت رهيب: «إنني واثق من ذلك مؤمن به».

وكان قد نهض من مقعده، عند ظهور ماريانا أمامه.

ومضى سولومين يقول لها: «لقد رأيتك على المائدة، وقد راعني منك صراحة عينيك وصدق نظراتك، وقد نفض إليّ نجدانوف خير نيتكما، ولكن هل لي أن أسأل لما تريدين فرارًا؟!».

فأجابت ماريانا: «يا له من سؤال! السبب ذلك الإحساس العظيم الذي خضع له لبي، ودان له فؤادي. لا تدهش ولا تعجب فإن نجدانوف لم يكتمني شيئًا. إنني أعلم أن ذلك العمل العظيم قد أوشك أن يبتدئ. فهل تريد لمثلي أن تبقى في هذا البيت، حيث كل شيء قد طبع بطابع الكذب وسيم بميسم الخداع والغش؟

أتريد أن أرى من أحبهم في خطر وويل وعاصفة كبرى ثم أمكث أنا ساكنة؟».

فأوقفها سولومين بهزة من يده وقال: «هدئي من روعك. ألا تفضلي بالجلوس. وأنت يا نجدانوف اجلس كذلك. دعونا نجلس جميعًا وأصغيا إليّ. إذا لم يكن لديكما من باعث آخر على الفرار من هذا القصر غير الباعث الذي ذكرتماه، فإنني أقول لكما أنه لا حاجة بكما إلى الفرار الآن. فإن العمل العظيم لن يبدأ بهذه السرعة التي تتوهمانها، بل لا بد من الحزم طويلًا ومداراة الأمور وموازنتها، واختبار الفرص والحوادث، إذ لا خير علم الله من الوثوب إلى النهر دفعة واحدة، والانغماس في الثورة وشيكًا غير متمهلين».

وجلست ماريانا، ونشرت معطفها على كتفيها.

قالت ماريانا: «ولكن لا أحتمل المُقَام بعد الآن في هذا البيت. إنني أرى كل فرد من أهله يهينني ويقدح في عرضي. حتى تلك العجوز زهروفنا سمعتها اليوم تقول للصبي كوليا ملمحة عن قصة أبي أن الشجرة الخبيثة لا تخرج ثمرًا طيبًا، وقد دهش الطفل لذلك القول، وسألها عن المعنى، ثم دعني لا أسرد ما نالني على يد فالنتينا ميهالوفنا».

فأوقفها سولومين عن الاسترسال في حديثها مرةً أخرى، ولكن في هذه المرة بابتسامة لطيفة.

وشعرت ماريانا بأنه كان يضحك منها قليلًا، ولكنها لم تجد في تلك الابتسامة ما يؤلم إحساسها.

قال سولومين: «ولكن يا سيدتي العزيزة لا أعرف من تكون العجوز حنة زهروفنا ولا الشجرة الخبيثة التي تقولين عنها. أتقول امرأة حمقاء طائشة كلمات طائشة مثلها مجنونة خرقاء وتقولين إنك لا تستطيعين احتمالها، وإذا كنت من مثل هذا تتألمين، فكيف إذَنْ تريدين أن تعيشي في هذه الحياة وتسلكي سبيلك في هذا العالم. إن هذه الدنيا مكتظة بالحمقى، مؤلفة من المجانين الطائشين. ليست حجتك التي تحتجين بها في سبيل الفرار من هذا المكان قوية معقولة متينة المتانة الكافية والإقناع. فهل لديك باعث آخر؟».

فتداخل إذ ذاك نجدانوف في الحديث فقال بصوت أجوف: «إنني مقتنع بأن مستر سبياجين سيطردني غدًا من بيته من تلقاء نفسه، إذ لا بد من أنه نبئ عني وعرف قصة حبي؛ لأنه يعاملني الآن بمنتهي الاحتقار».

فالتفت سولومين نحو نجدانوف وقال:

«إذا كان الأمر كذلك، فلماذا إذَنْ تريد الفرار».

فلم يدر نجدانوف بماذا يجيب.

قال متلعثمًا: «ولكني قلت لك من قبل...».

ولم يستطع أن يتمم كلمته.

فعاجلته ماريانا تقول: «لأنه قال لك إنه سيهرب معي».

فنظر سولومين إليها، وهز رأسه عن ابتسام ورضى.

قال: «إذا كان الأمر كذلك حقًّا يا سيدتي العزيزة، فإنني أعيد قولي عليكما وهو أنكما إذا كنتما قد أجمعتما النية على الفرار من هذا القصر، اعتقادًا منكما أن الثورة على وشك أن تثور...».

فقاطعته ماريانا قائلة: «هذا ما دعوناك إلى البقاء الليلة في هذا البيت لأجله. فقد أردنا أن نعرف حقيقة الحال اليوم، ونلم بأسرار الموقف الحاضر».

فاسترسل سولومين في حديثه فقال:

«وإذا كان هذا ما يحملكما على الذهاب، فإنني أقول لكما مرةً أخرى إنه يحسن بكما التريث قليلًا والبقاء هنا مدة أخرى، ولكن إذا كنتما تريدان الفرار، لأنكما تحبان بعضكما بعضًا ولا سبيل إلى ارتباطكما واتحادكما إلا بهذه الوسيلة، فإذ ذاك...».

قالت ماريانا تستعجله إتمام كلمته: «إذ ذاك ماذا يكون الحال؟».

قال: «إذ ذاك ينبغي لي أن أبدأ بتهنئتكما، وإن احتاجت الحالة أن أقدم إليكما من المساعدة ما في مكنتي. واسمحي لي يا سيدتي أن أقول إنني ملت بكليتي إليكما من أول نظرة، وإنني أحبكما الآن كما أحب أخًا وأختًا».

فنهض العاشقان مسرعين، ووقف كل منهما عن أحد جانبيه، وأخذا يديه، فصافحاه مصافحة حارة.

قالت ماريانا متوسلة ضارعة: «ولكن كل ما نسألك إياه أن تنبئنا ماذا نصنع، ولنفرض أن الثورة لا تزال بعيدة عنا على الطريق، إلا ينبغي التمهيد لها، والتوطئة لقدومها، أليس ثمة من عمل تمهيدي ينبغي القيام به، عمل لا يؤاتينا إنفاذه إذا بقينا في هذا البيت، ولا يتيسر لنا عمله، في هذا الجو المختنق بالحماقة والسخف والبلادة والطيش. إننا نحب أن نذهب معًا إلى بهرة المجتمع ونفتح صدرينا إلى الجماهير، ولكن دُلّنا على الطريق، واهدنا النجدْين وأبنْ لنا عن المحجة. قل لنا أين نذهب وإلى أي مكان نولي وجهينا؟ ألا أرسلنا إلى أي مكان تريد. ابعث بنا إلى أي شأن تحب. ألستَ فاعلًا ذلك؟».

قال سولومين: «وإلى أين السير بكما؟».

قالت ماريانا: «إلى الشعب. إلى أي مكان لعمري يذهب الإنسان إذا لم يكن في غمار الجماهير، وأوساط الشعب؟!».

فقال نجدانوف إذ ذَاك لنفسه وقد ذكر كلمة باكلين: «نعمْ إلى الغابة الكثيفة!».

فأجال سولومين نظره في ماريانا وقال: «أتريدين أن تعرفي الشعب؟».

فأجابت الفتاة: «نعم. ولكن لست أريد أن أعرف الشعب مجرد المعرفة، ولكني أريد أن نعمل لأجل ذلك الشعب المسكين، نريد أن نكدح لأجله ونكد».

فأجاب سولومين: «حسن ما قلت. إذَنْ ستعرفين هذا الشعب. إنني أعدك ذلك. وسأمهد لكما الفرصة التي تريدان. وأنت يا نجدانوف أمتأهب أنت للفرار من أجلها ومن أجلهم؟».

قال نجدانوف بعجلة: «بلا ريب. أنا على أتم الأهَبة».

وإذ ذاك عادت إلى ذاكرته كلمة أخرى من كلمات باكلين القزم الفكه «عجلة الموت!»، فقال كأنما يحدث نفسه: «ها هي عجلة الموت قادمة ترعد وتصرخ. يا لتلك المركبة العظيمة الرائعة المخيفة. إنني لأستمع الآن إلى صوت عجلاتها المتحدرة الصارخة».

وعاد سولومين يقول: «حسن جدًّا. ومتى عولتما على الذهاب؟».

فقالت ماريانا: «غدًا إذا كان الذهاب غدًا ميسورًا».

وقال سولومين: «وإلى أين إذَنْ؟».

فهمس نجدانوف قائلًا: «صه. إنني لأسمع وقع أقدام في الردهة...».

فساد السكون بينهم لحظة.

قال سولومين معيدًا سؤاله، خافضًا في هذه المرة صوته: «إلى أين عولتما على الذهاب؟».

فأجابت ماريانا: «لا ندري!».

فنظر سولومين إلى نجدانوف، ولكن هذا هز رأسه، ولم يقل شيئًا.

وقال سولومين بعد لحظة: «ماذا أقول لكما يا طفليّ إلا أن تجيئا إليّ في المصنع، ولا أنكر أن المكان ليس بالجميل ولا بالأنيق، ولكنه مكانُ خفض ودعة وأمان على الأقل. إنني سأخبئكما عندي إذ لديّ حجرة أستطيع التنازل عنها ولا يعثر أحد في العالم بمكانكما، ولن يهتدي إلى مكمنكما، وإذا أقمتما في ذلك المخبأ فلن يدل أحد عليكما من يبحث عنكما وينقب. ولست أخفي عليكما أن المصنع مكتظ بالناس مزدحم بالعمال. ولكن تلك إحدى حسناته ومزية من مزاياه، إذ حيث ترى الزحمة يسهل الاختباء، فهل تأتيان. أتأتيان حقًّا؟».

فصاح نجدانوف قائلًا: «لا ندري كيف نجزيك شكرًا»، بينا كانت ماريانا قد بوغتت بفكرة السكنى في المصنع، ولكنها لم تلبث أن أردفت على كلمة نجدانوف قائلة:

«بلا ريب، بلا ريب. ما أطيب فؤادك. ولكنك بلا شك لن تدعنا نقيم في المصنع طويلًا. بل سترسلنا في بعث من البعوث. أليس كذلك؟».

فأجاب سولومين: «هذا يتعلق بكما وحدكما، فإذا أردتما أن تتزوجا فإننا مستطيعون أن ندبر لذلك التدابير في المصنع، فإن لي قريبًا بجوار الناحية ابن عم لي من القساوسة، وهو أخلص الناس لي وأصدقهم فؤادًا وودًّا، وسيقوم لكما بصيغة الزواج والإكليل عن طيب خاطر».

فابتسمت ماريانا لنفسها بينا شدّ نجدانوف ثانية يد سولومين مصافحًا شاكرًا.

ومضى نجدانوف يسأل صديقه سولومين بعد فترة سكون: «ولكن نبئني، ألا تظن صاحب المصنع الذي تشتغل فيه سيتألم لذلك ويغضب. وهلّا يؤلمك من أجل هذا ويغضبك».

فرنا سولومين إليه بطرف عينه وقال:

«لا تحفل بهذا، ولا تسألني عن أمري، ولا تقلق عليّ، فإن ذلك لا ضرورة له ولا أهمية. وما دامت الأحوال في المصنع سائرة على ما يرام، فليس شيء ثمة مؤلمًا لصاحب المصنع، ولا هو بمحتفل بغير ذلك. فلا تخشيا إذَنْ أقل ألم أو تعب من هذه الجهة، ولا تجزعا أيضًا، ولا تكونا في خوف من العمال داخل المصنع. وإنما نبئاني في أي وقت أنتظر قدومكما».

فتبادل العاشقان النظرات.

ولم يلبث أن قال نجدانوف: «بعد غد في بكرة الصبح أو في اليوم التالي له. فنحن لا نستطيع صبرًا على البقاء هنا، إذ ربما سيطردونني غدًا».

فقال سولومين وهو ينهض من مجلسه: «إذَنْ سأرتقب حضوركما في كل صباح، ولن أترك المصنع سحابة هذا الأسبوع، وسأتخذ كل وسيلة للحيطة والحذر».

وانصرف ومشت في أثره ماريانا، وهي تقول: «إلى الملتقى أيها الصديق. إلى الملتقى حتى نلتقي مرةً أخرى وشكرًا جزيلًا».

قال: «إلى الملتقى. وعِمَا مساء».

وأردفت هي على قولها: «إلى الملتقى يا نجدانوف إلى الغد».

وانصرفت مسرعة.

وظل سولومين واقفًا أمام نجدانوف برهة لدى الباب وهما في صمت.

وبدأ سولومين يتكلم فقال: «أي نجدانوف».

ولكنه أمسك عن القول.

ثم عاد يقول ثانية: «أي نجدانوف! ألا حدثني عن هذا الفتاة. نبئني بكل شيء عنها. ماذا كانت حياتها؟ وما ماضيها؟ وما أسلوب عيشها قبل اليوم؟ ومن تكون ولمَ هي هنا؟؟».

فنبأه نجدانوف بإيجاز عما يعرفه عنها.

فقال سولومين أخيرًا: «نجدانوف... ينبغي أن تحشد كل عنايتك بها، فإن وقع شيء لا قدر الله، فإنك ستروح المليم الأثيم. إلى الملتقى!».

ومضى منصرفًا.

ووقف نجدانوف جامدًا في مكانه، ثم انكفأ إلى فراشه، وهو يبكي ألمًا وسرورًا في آن واحد.

ولما دخلت ماريانا حجرتها وجدت رسالة على المائدة.

وفضت الغلاف فإذا هي تقرأ الكلمات الآتية:

«إنني لأرثي لحالك. إنك مودية بمستقبلك. ألا تدبري فيما انتويت، وفكري فيما أنت صانعة. ألا تصوري إلى أي هاوية سحيقة أنت متدافعة مرتطمة وأنت مغمضة العين. ولمن ولماذا....؟ تدبري!».

«ف...» واشتمت أنفاس عطر ذكي في الحجرة، فتبين لها إن فالنتينا كانت انصرفت منذ هنيهة.

فتناولت ماريانا قلمًا، وكتبت في ذيل رسالتها: «لا حاجة بك إلى الرثاء لحالي، فإن الله وحده يعلم أينا أولى بالرثاء وأحق بالشفقة والرحمة، ولكني أعلم من نفسي ما لا تعلمين، وأعرف أنني لا أرضى لنفسي أن أكون في مكانك، ولو أوتيت مُلْك الأرض جميعًا».

ووضعت الرسالة على المائدة دون أن يخامرها أي شك في أنها ستقع في يد فالنتينا.

وفي صبيحة اليوم التالي، بعد أن رأى سولومين نجدانوف ورفض بتاتًا قبول العمل في مصنع سبياجين انطلق عائدًا إلى محل عمله.

وكان مشغول الفكر طول الطريق تسمح به المخيلة في شعاب بعيدة من التفكير، ولم تكن تلك عادته، بل أندر ما كان يقع له، وكانت هزة المركبة وهي سائرة في طريقها قد أرسلت طائف الإغفاء إلى عينيه.

وكان تفكيره ولا ريب حول ماريانا ونجدانوف.

وخيل إليه أنه لو كان هو الذي وقع في شراك الحب، لكان له شأن غير شأن نجدانوف، وحالة غير حالته، ورأى خلاف رأيه.

ولكنه لم يلبث أن ناجى نفسه قائلًا:

«ولكن هذا الأمر لم يقع لي يومًا، ولهذا لا أستطيع أن أدرك أي مظهر سيكون لي إذا أنا أحببت».

وإذ ذاك عادت إلى ذهنه ذكرى فتاة إيرلندية رآها مرة في حانوت خلف طاولة الحساب، فذكر شعرها الفاحم العجيب وعينيها الزرقاوين وأهدابها الكثيفة، وذكر كيف أنها نظرت إليه نظرة حزينة رانية، وكيف أنه جعل يمشي أمام نافذة الحانوت ذهابًا وجيئة برهة طويلة، وهو في أشد الاضطراب، يسائل نفسه هل يتاح له معرفتها والجلوس بجانبها، وكان يومذاك في لندن، وقد أرسله صاحب المصنع ليظفر له بعدة مشتريات كان المصنع بحاجة إليها، ولقد اشتدت لاعجته منذ مرأى تلك الفتاة، حتى لقد همّ بأن يرد المال الذي أخذه من صاحب المصنع لشراء تلك الصفقات في البريد، ويمكث في لندن لا يبرحها.

ولكنه مع ذلك لم يلبث أن تمالك عاطفته، وتغلب على اضطرابه وبوادر الحب في فؤاده، فعاد إلى صاحب المصنع، ولم يتمكث.

وكانت تلك الفتاة الأيرلندية أجمل من ماريانا، ولكن كان لماريانا تلك النظرات الحزينة الرانية بعينها، ثم لا تنس أن ماريانا كانت روسية، أي من بنات جنسه!

فلما بلغت به خواطره إلى كل هذا، راح يقول لنفسه: «يا ألله! ماذا جرى لي؟ أتراني اليوم أصبحت أفكر وأنشغل بعرائس غيري من الناس؟».

وإذ ذاك هز ياقة سترته، كأنما أراد بذلك أن يهز كل تلك الخواطر التي لا لزوم لها في ذهنه، حتى تسقط عن مخيلته.

وفي تلك اللحظة كانت المركبة قد وصلت المصنع!

* * *

وتألم سبياجين أشد الألم من رفض سولومين، وعدها إهانة كبرى له، حتى مضى يتنقصه ويقول إنه وإن لم يكن بالرجل الخداع لا يزال يتخذ مظهر العالم الأستاذ الذي لا يضارعه أحد في براعته وسعة علمه.

وجعل كذلك يحدث نفسه قائلًا: «كل هؤلاء الروس لا يلبثون أن يصبحوا ثقلاء لا يطيقهم أحد. إذ يخيل إليهم أنهم ملكوا ناصية العلم، وأنهم توفروا على معرفة أمر من الأمور، والله لقد أصاب كولومتزف في الحقيقة، ولم يخطئ الرأي».

واشتد إذا ذاك غضبه على نجدانوف ومقته.

فأخبر ابنه كوليا أن لا يتلقى دروسًا من معلمه في ذلك اليوم، وأنه ينبغي له أن يحاول بعد اليوم أن يكون أكثر استقلالًا بنفسه وانفرادًا بدروسه.

ولكنه لم يطرد المعلم كما توقع هذا وارتقب، وإنما ظل على تجاهله له واستنكاره ونسيان وجوده في منزله.

ولكن فالنتينا لم تكن تتجاهل ماريانا، وقد وقع بينهما مشهد رهيب مخيف، إذ وجدا بعضهما بعضًا على حين غرة قبل موعد العشاء بساعتين في خلوة لا ثالث بينهما في قاعة الجلوس.

وقد أحست كل منهما أن الساعة الرهيبة للمعركة قد حانت، وأن موعد القتال بينهما قد آن أوانه، وبوحي الغريزة دنت كل منهما نحو الأخرى.

وكانت فالنتينا تبتسم ابتسامة خفيفة.

أما ماريانا فقد ضمت شفتيها بعضهما إلى بعض ضمًّا محكمًا.

وكانت المرأتان شاحبتي اللون.

وظلت ماريانا محدقة البصر في ذلك الوجه المبتسم الذي أمامها.

وكانت فالنتينا أول من بدأت الحديث، قالت بصوت هادئ ساكن لا اضطراب في نبراته: «أي ماريانا، يلوح لي أننا قد بدأنا نتراسل ونتكاتب، وأن هذا التكاتب ليلوح لي غريبًا في غير موضعه

ونحن نعيش تحت سقف واحد، وأنت تعلمين كراهيتي للأمور الغريبة واجتوائي الشؤون التي في غير موضعها».

قالت ماريانا: «ولكني لم أكن البادئة بالكتابة».

فأجابت فالنتينا «هذا صحيح. وأنا الملومة في ذلك، ولكني لم أكن أرى وسيلة أخرى أعمد إليها لأجل أن أثير في فؤادك شعورًا... بالله، ماذا أقول؟ وكيف القول؟

شعورًا...».

فعاجلتها ماريانا قائلة: «لكِ أن تتكلمي بكل صراحة يا فالنتينا، فلا تخشي من أنني سأتألم مما تقولين».

قالت فالنتينا: «إذَنْ، لقد أردت أن أثير في فؤادك شعورًا... لأقلها إذَنْ... شعورًا بالواجب وآداب اللياقة!».

وأمسكت فالنتينا عن الكلام، ولم يكن يسمع في الحجرة غير دقات أناملها فوق مسند مقعدها.

قالت ماريانا: «ومن أي وجهة رأيتني قد أخللت بتلك الآداب؟».

فهزت المرأة كتفيها وأجابت بالفرنسية أولًا: «عزيزتي، أنتِ لستِ طفلةً».

ثم استرسلت بالروسية تقول: «أظنكِ تعرفين ماذا أعني. أكنتِ متصورة أن سلوككِ هذا سيظل مكتومًا خفيًّا عني، أو عن حنة زهروفنا وعن أهل البيت جميعًا؟

على أنني لا بد لي من أن أقول إنكِ لستِ التي تحتفل كثيرًا بالتكتم، فقد مثلت روايتكِ «على عينك يا تاجر»، وقمتِ بعملكِ في رائعة النهار على أسماع الناس وأبصارهم. ولم يبق أحد لم يعرف فعلتكِ غير خالكِ سبياجين، ولكنه في شغل بشؤون أهم من هذا وأخطر وأعظم. أما غيره، فكل الناس يعلم!».

فاشتد شحوب ماريانا.

قالت: «لا بد من أن أسألكِ أن تزيدي شرحًا وبيانًا. ما الذي يؤلمكِ من ناحيتي؟».

فقالت فالنتينا متمتمة لنفسها بالفرنسية:

«يا لها من وقحة!».

ولكنها تمالكت جأشها وعادت تقول:

«أتريدين أن تعرفي باعث تألمي منك يا ماريانا؟ إذَنْ يجب أن أقول لكِ إنني لا أتحمل رؤيتكِ في خلوات وأحاديث طويلة مع فتى دونكِ في منشأكِ وأصلكِ وتربيتكِ ومكانكِ في المجتمع. أتقولين إنني متألمة. كلا. إن هذه الكلمة ليست الصحيحة، ولا تعبر عما يخالجني حقًّا من الإحساس. إنني إذا أردتِ الحق مروعة مشمئزة مستنكفة من سلوكك في الأيام الأخيرة، وتلك الزورات تحت جنح الظلام، والتسللات في سكون إلى حجرة ذلك الفتى، وفي أي مكان تحدث تلك الخلوات. تحت سقف بيتي! ولعلكِ لا ترين في ذلك ما يسوء أو يعيب، وأن لا شأن لي في ذلك ولا حق في التداخل، وأنه ينبغي لي الصمت والاعتصام بالسكوت. ولكني إذا أخلدت إلى السكون فكأنما أريد أن أسدل على سلوككِ المعيب ستارًا، واضرب عليه حجابًا. ولكني كامرأة شريفة، نعم يا آنسة لقد كنت طوال حياتي امرأة شريفة وأنا اليوم كذلك وسأظلها آخر الدهر، لا أستطيع أن أحتمل رؤية هذه الأمور منكِ ولا يقشعر مني البدن».

قالت ذلك وتراخت في مقعدها، كأنما قد أنهك قواها الغضب والاشمئزاز.

فابتسمت ماريانا للمرة الأولى، وابتدأت تجيب على تلك النفثة الحارة.

قالت: «إنني لا أنكر عليكِ شرفك ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا... وإنني أجدّ فيما أقول صادقة غير كاذبة ولا مدعية. ولكن لا ضرورة لغضبكِ هذا وحدتكِ؛ فإنني لم أجلب على بيتك عارًا، ولم أرمِه بشين. نعم، إن الشاب الذي لمَّحت عنه، نعم، لا أنكر أنني قد وقعت بلا ريب في حبه».

قالت فالنتينا متسائلة: «أتحبين نجدانوف؟».

فأجابت: «نعم، أحبه».

فتحفزت مدام سبياجين في مجلسها وصاحت: «ولكن يا ماريانا! ليس هو إلا طالب علم ليس غير، بلا أصل ولا منشأ ولا أسرة ولا أهل، وهو أيضًا أصغر منك سنًّا».

قالت ذلك بسرور لا تستطيع كتمانه.

ثم استطردت في حديثها قائلة: «فأي خير من وراء حب كهذا؟ وأي جدوى. وأي مفتنة ترين فيه؟ وأي شيء يعجب؟ إنه صبيّ فارغ الذهن لا أكثر ولا أقل».

فأجابت ماريانا متهكمة: «ولكن لم يكن هذا رأيكِ فيه دائمًا يا فالنتينا».

فقالت هذه: «بحق السماء دعيني أنا خارج هذا الموضوع، ومن فضلك لا أريد مداعبة ولا تهكمًا. إن هذا الأمر يتعلق بكِ أنتِ وبمستقبلكِ. ألا فكري قليلًا وتدبري.

أيليق هذا الفتى لكِ زوجًا!».

فأجابت ماريانا: «يجب أن أعترف لك بأنني لم أنظر إلى الموضوع من هذه الوجهة».

فصاحت السيدة قائلة: «ماذا أسمع! وماذا تقولين! وماذا أستنتج من كل ذلك، لنفرض أنك طاوعت وحي فؤادكِ، فإنك ولا ريب ستنتهين بالزواج به اليوم أو غدًا».

قالت ماريانا: «لا أعرف ولم أفكر في ذلك».

فأجابت فالنتينا: «أتقولين أنك لم تفكري في ذلك! إنك مجنونة ولا ريب».

فأشاحت ماريانا بوجهها وقالت «دعنا ننهي هذا الحديث، فإنه غير مفض إلى نتيجة؛ إذ لن تفهم إحدانا الأخرى مطلقًا».

فأجفلت فالنتينا في مجلسها.

وصاحت بماريانا تقول: «كلا. لا أستطيع أن أترك هذا الحديث. ولا أريد أن أختمه. فإنه أمر خطير لا ينبغي السكوت عليه. إنني مسؤولة عنكِ أمام...».

وكانت فالنتينا تريد أن تقول: «أمام الله»، ولكنها ترددت، وقالت: «أمام العالم بأسره. لا أستطيع السكوت إذ أسمع منكِ هذه الكلمات المجنونة المبعدة في صميم الجنون. وإنني لأتساءل كيف لا أستطيع أن أفهمكِ. ألا نبئيني من فضلكِ كيف يكون ذلك؟ يا أَلله من شباب هذا العصر وزهوه وكبره الذي لا يطاق! ألا اعلمي أنني على نقيض ما قلت أفهمكِ أتم الفهم. إنني أراكِ اليوم تحت تأثير عدوى هذه المبادئ الجديدة التي لا يكون منها لكِ غير الخسار وتضييع المستقبل، وأخشى أنا إذا تمهلت ولم آخذكِ باللائمة من الآن أن يفوت الأوان ويسبق السيف العذل».

قالت ماريانا: «قد يكون ذلك. ولكن ثقي أنني إذا هلكت ووقعت في أشد نكبات الأرض، فلن أمد إليك أنملة واحدة متوسلة لإنقاذي».

فقالت فالنتينا: «هذا كبر وزهو مرةً أخرى. يا للعنة على هذا الكبر المخيف المقيت. ولكن استمعي إليّ يا ماريانا. أصغي إليّ. إنني لست من الشيخوخة وتقدم السن والحماقة وبلادة الذهن بحيث أعجز عن فهمكِ. لقد كنت أنا أيضًا أعد قبل اليوم فتاة جمهورية لا تقل في حميتها ووطنيتها عنكِ. ألا اعلمي أنني لا أريد أن أدعي أنني أحسست يومًا نحوكِ إحساس الأمومة الرؤوم، ومثلكِ بلا ريب لا يشكو ذلك ولا يتألم منه، ولكني كنت أبدًا أشعر كما أشعر الآن أن عليّ واجبات ينبغي تأديتها نحوك وفروضًا يجب التمسك بها، وقد سعيت أبدًا واجتهدت في القيام بها، ولعل الشاب الذي كنت أفكر أنا وسبياجين في تقديمه إليكِ لنعمة الزواج به لا يتفق معكِ في المبادئ، وليست له عين عقائدكِ ونظرياتكِ. ولكنا كنا متأهبين لبذل كل تضحية في سبيل إنجاح ذلك الزواج على أنني كنت في أعمق أعماق روحي...».

فنظرت ماريانا إليها وإلى عينيها الغريبتين، وشفتيها المصبوغتين بالمساحيق صبغة خفيفة ناعمة، ويديها البيضاوين، وأناملها المزدانة بالخواتيم وهي تضغط بها خصر ثوبها الحريريّ.

ثم قالت فجأة: «أتكلمينني عن الخطيب الذي اخترته لي! أتسمين ذلك الصديق الذي لا لقب له هذا الجاهل الخشن الطبع الفظ الملقب مستر كولومتزف خطيبًا؟».

فأزاحت فالنتينا أناملها من خصرها وقالت: «نعم يا ماريانا. إنني أتكلم عن ذلك الفتى المهذب السامي النفس الفاتن البديع مستر كولومتزف، الذي يكفل الهناء للفتاة التي تتزوج به، والذي لا ترفضه إلا الفتاة المجنونة المذهوبة اللب المضيعة الطائشة. نعم. المجنونة الطائشة».

فقالت ماريانا: «ما حيلتي يا زوجة خالي! يظهر أنني مجنونة».

فأجابت فالنتينا: «ألديك ما تتألمين منه وترينه منقصة فيه وعيبًا كبيرًا؟».

قالت مارينا: «لا شيء يؤلمني ألبتة منه، إنني أحتقره فقط».

فهزت فالنتينا رأسها قلقة نافدة الصبر وتراخت في مقعدها ثانية...

قالت: «لندعه جانبًا، ولنعدْ إلى موضوعنا. إذَنْ أنت تحبين مستر نجدانوف؟».

قالت ماريانا: «نعم».

فعادت فالنتينا تقول: «وتنوين الاستمرار على الاختلاء به والتحدث إليه؟».

قال ماريانا: «نعم».

فقالت فالنتينا: «ولكن لنفرض أنني أمنع ذلك بتاتًا».

فأجابت ماريانا: «لن أستمع إليك»، وإذ ذاك صاحت فالنتينا مغضبة تقول: «ماذا أسمع؟! إنكِ لن تستمعي إليّ. أتقول ذلك فتاة لم تشهد مني غير الرعاية، ولم تر مني غير الشفقة والحنان! فتاة ربيتها في بيتي. وكفلتها وأدبتها.. تقول ذلك... تقول ذلك...».

فأوقفتها ماريانا وقالت: «فتاة هي ابنة رجل ركبه العار، وحط عليه الشين والمذلة. ألا استمري. استمري. فليس بيننا كلفة ولا احتشام. تفضلي استرسلي في شرحكِ دون أن يمنعكِ الحياء...».

فقالت فالنتينا: «ليس مثلي من يقول لكِ ذلك يا آنسة، وعلى كل حال ليس هذا بالشيء الذي يفتخر به، إنما أريد أن أقول: فتاة تعيش في هذا البيت على نفقتي».

فأجابت ماريانا: «لا تقذفي بهذه الشتيمة في وجهي يا فالنتينا، فلو أنك استخدمت مربية لولدك كوليا، لكلفكِ ذلك أكثر مما تنفقين على طعامي، ألست ألقنه دروسًا في الفرنسية؟».

فرفعت فالنتينا يدها وهي تحمل منديلًا حريرًا عَبقًا متأرجًا، وحاولت أن تتكلم، ولكن ماريانا استرسلت في حديثها، وقد فاضت عاطفتها واحتدم غضبها.

قالت: «لقد كنت مصيبة في قولكِ الحق ألف مرة، لو أنكِ بدلًا من تعداد مآثركِ عليّ ومكرماتكِ وصنائعكِ وأياديكِ ودلائل تضحيتكِ قلت «الفتاة التي أحببتها»، ولكنك من الصدق والإخلاص بحيث لا تستطيعين الكذب في ذلك. لقد كنت أبدًا لي كارهة باغضة حاقدة عليّ. وأنت الآن في هذه اللحظة مسرورة في أعماق قلبك فرحة مثلجة الصدر لأنني قد بدأت أحقق نبوءاتكِ السيئة عني وآراءكِ الملعونة في خلقي، وإنني سأركب العار وأسوق بنفسي إلى الفضيحة والشنار. وإنما ليس يؤلمك من كل ذلك إلا أن بعض هذا العار سيلحق ببيتك النبيل المفعم فضيلة وتقى وعفافًا ومحبة».

فقالت فالنتينا بصوت منخفض: «إنكِ تهينينني. تفضلي بالخروج من الحجرة».

ولكن ماريانا لم تكن تستطيع إذ ذاك تمالك جأشها وفيض نفثات صدرها، فقالت: «لقد ذكرت لي الساعة أن كل أهل بيتكِ وخدم داركِ يعرفون قصة مسلكي، والكل منها مشفق مروع مشمئز. ولكن أترينني أسألكم شيئًا أو أسأل أهل بيتكم. أم تظنينني أعبأ بآرائهم في سلوكي، أو أحتفل بحسن ظنهم بي وجميل كلماتهم، أتحسبين أكل خبزكِ حلوًا سائغًا لا مرارة فيه! والله إنني لأؤثر على أطايب طعامكم الفقر المدقع والفاقة الأليمة. إن بيني وبين بيتكم هوة سحيقة وغورًا بعيدًا لا يُجتاز ولا يُعبر. إنكِ امرأة ذكية حادة الذهن، فهلا تشعرين بذلك أيضًا. وإذا كنت تبغضينني فماذا ترتقبين مني! لسنا بحاجة إلى الشرح والإسهاب فإن ذلك بيّن لك ظاهر».

فصاحت فالنتينا بها وهي تضرب الأرض بقدمها الرقيقة الصغيرة: «أخرجي من الحجرة. اخرجي قلت لكِ».

فمشت ماريانا خطوات قلائل نحو الباب.

قالت وقد وقفت: «سأغني عنك في الحال ألم وقوفي في حضرتكِ. ولكن ألا تعلمين ماذا قلت الساعة بالفرنسية. إنني امرأة شريفة وقد كنت كذلك وسأظلها آخر الحياة. ولكني واثقة بأنني أشرف منكِ وأخلص وأنقى... إلى الملتقى!».

وانصرفت مسرعة.

ونهضت فالنتينا بقفزة من مجلسها، فقد أرادت أن تصرخ وتصيح على أهل البيت وتبكي وتعول، ولكنها لم تدر علام الصياح إذا هي صاحت، ولم تسعفها الدموع، ولم تلبِّ نداءها العبرات.

فروّحت عن نفسها بمنديلها، ولكن الرائحة المتأرجحة منه زادت في اضطراب أعصابها.

لقد أحست الذلة ووقع الإهانة، وكانت تدرك أن فيما سمعته في تلك اللحظة ظل الحقيقة، وأثرًا من الصدق، ولكن كيف سولت لمخلوق في العالم نفسه أن يؤلمها هكذا ويظلمها ويصرخ في وجهها. وإذ ذاك حدثت نفسها قائلة: «أحقًّا تراني امرأة سيئة شريرة إلى هذا الحد». ومضت تنظر نفسها في مرآة معلقة أمامها بين نافذتين، فتراءى لها وجه جميل فاتن وعينان ساحرتان عجيبتان ناعمتان كالقطيفة.

فراحت تقول لنفسها: «أنا... أنا امرأة سيئة ولي هاتان العينان!».

وفي تلك اللحظة دخل عليها زوجها، فعادت تدفن وجهها في أضعاف منديلها.

فسألها زوجة بلهفة واضطراب: «ماذا جرى لكِ؟ ما الخبر يا فاليا؟». وكان هو الذي اخترع هذا التصغير لتدليل زوجته، ولكنه لم يكن يسمح لنفسه أن يستعمله إلا في خلوته معها، ولا سيما في مدة إقامتهما في الريف.

فأجابته في بادئ الأمر أن لا شيء هناك ولا خطب، ولكنها دارت في مقعدها، وأشاحت عنه وجهها في حركة فاتنة مؤثرة، ثم ألقت ذراعيها حول كتفيه، وأخفت وجهها في فتحة صداره وأنشأت تنبئه بكل ما جرى.

وحاولت بلا تكلف ولا مدارة ولا نفاق أن تبرئ ماريانا من الذنب، محيلة فعلتها إلى نزوة الشباب ومزاجها الحاد ونقص تربيتها الأولى.

وظل سبياجين يصغي إلى حديثها مترفقًا متلطفًا، وإن كان وجهه ينم عن الألم ومضى يدعوها بالملاك، ويلثمها في جبينها ويقول لها إنه قد علم الآن أي سبيل سيتخذ بصفته رب البيت. وانصرف يمشي مشية الرجل النشيط الخطير العليم بأنه لا بد من أن يؤدي واجبًا محتومًا عليه وإن كان مؤلمًا له ثقيلًا على فؤاده...

ولما انتهى العشاء كان نجدانوف جالسًا في حجرته يكتب الرسالة الآتية إلى صديقه سيلين:

«صديقي العزيز، أكتب إليك في لحظة خطيرة محرجة من حياتي. لقد طُردت من هذا البيت. وإنني عما قليل مغادره، ولكني ما كنت لأضطرب أو أحفل بالرحيل لو أنني كنت مغادرًا البيت وحدي. بل الفتاة التي كتبت إليك عنها ذاهبة معي. فنحن متدانيان متفقان لما بين حياتنا من تشابه ووحدة ووحشة، ولما بيننا من عقائد متبادلة، وآراء متماثلة، وآمال وعلالات متحدة، وفوق كل هذا لما بيننا من الحب المتبادل. نعم نحن اليوم حبيبان، وإني لأعلم من نفسي اليوم أنني ما كنت مجربًا عاطفة الحب في صورة أخرى غير التي أحب بها الآن. ولكني أكذب إذا أنا قلت إنني لا أشعر من هذا الحب بالمخاوف وأحس فؤادي يوحي إليّ نبوءات سيئة. فإن كل شيء أمامنا الآن مغلف في ظلمة حالكة. ونحن هاويان اليوم في تلك الظلمة. ولست بحاجة إلى إنبائك بباعث خروجنا من البيت وما انتويناه من العمل بعد الخروج، فنحن لا نبغي طِلَاب السعادة ولا نخرج لارتياد نجعة الهناء، بل نحن نريد أن نزج بنفسينا في الصراع جنبًا لجنب متساندين متكاتفين، ونحن نرى مطلبنا بيّنًا واضحًا، ولكن الطريق إليه لا تزال مجهولة لا نعرفها.

«إن ماريانا أعجب من رأيت إخلاصًا وصدقًا ووفاء، فإذا نحن قدر علينا أن نهلك أو نتحكم في نوء العاصفة، فلن ألوم نفسي على أنني فتنتها واجتذبتها؛ إذ ليس لديها في سبيل للحياة اليوم غير هذا السبيل. ولكن سيلين. سيلين! إنني محزون. إنني تَعِس في أعماق نفسي منكوب مبتئس: إن الشكوك تمزق صدري وتتنازع ذهني، لا من ناحية إحساسي نحوها ولا ريب، ولكن.. لا أعرف. وقد انتهى الأمر وما لي على الرجوع يدان، فأمدد يا صديقي يدك على بعد النوى، واسأل لنا الصبر والسكينة والمقدرة على تضحية النفس والحب. نعم الحب قبل كل شيء. وأنتم يا معاشر الروس، أنتم الذين لا نعرفكم والذين نجهل أسماءكم وإن كنا نحبكم بكل مادة الحب، وقوى الحياة فينا ونعزكم بدمائنا وحشاشة روحنا، ألا تقبلونا في صفوفكم واعطفوا علينا، وترفقوا بنا وعلّمونا ماذا نرتقب منكم... إلى الملتقى. يا سيلين. إلى الملتقى!».

فبعد أن أتم نجدانوف كتابة هذه الرسالة، انطلق إلى القرية.

وفي اليوم التالي، وقد أوشك الفجر أن ينبثق، كان نجدانوف واقفًا عن كثب من حديقة دار سبياجين، حيث كانت عجلة في ارتقابهما لتسير بهما إلى المصنع.

ولم يكد نجدانوف ينتظر، حتى ارتعد ورجف إذ سمع صرير قفل في باب الحديقة، وللحال لمح في الغسق شبح فتاة متلفعة بشال وتحت ذراعها جعبة صغيرة وهي تدنو ناحيته.

فوثب نجدانوف صوبها.

وهمس يقول: «ماريانا!».

وسمع من تحت الشال صوتًا ناعمًا رقيقًا يقول: «نعمْ. أنا!».

فقال نجدانوف: «هلمي بنا. من هنا» وأمسك بذراعها العارية التي تحمل الجعبة.

فارتعشت ماريانا كأنما من رعدة البرد.

واقتادها هو إلى العجلة وأيقظ الفلاح السائق.

ومضت بالعاشقين العجلة، وقد نشر نجدانوف معطفه لماريانا لتجلس فوقه، وغطى قدميها ببساط صغير، وألقى يده حول خصرها، فرفعت هي الشال حتى يعلو كتفيها، والتفتت إليه بوجهها المبتسم وقالت: «ما أجمل نسائم هذا الفجر الصبيح يا أليكسي!».

وارتعشت مرةً أخرى من البرد.

قالت بلهجة فرح وسرور: «ما أشد برد هذا الصباح! ولكن الحرية يا أليكسي... الحرية!».

* * *

وما كاد سولومين يسمع بنبأ حضورهما، حتى وثبت إلى استقبال العجلة.

ووقف يعين ماريانا على النزول منها في صمت، دون تحية ولا ترحيب.

ومشى بهما إلى الطابق الثاني في المسكن، وفتح بابًا، فدخل الثلاثة حجرة صغيرة نظيفة ذات نافذتين.

وإذ ذاك قال سولومين بابتسامته الدائمة:

«إنني لشديد الفرح بقدومكما. هذه حجرة وبجانبها حجرة مثلها وليست بديعة الرواء تسر الناظرين، ولكن لا ضير ولا بأس، فالإنسان يستطيع أن يعيش هنا ولا خوف عليه من العيون والإرصاد. وتحت هاتين النافذتين حديقة صغيرة. والمكان ساكن هادئ. والآن كيف أنتِ يا سيدتي العزيزة؟ وكيف أنت يا نجدانوف؟».

وصافحهما بيده وظلَّا هما واقفين جامدين في مكانهما، ينظران إلى ما حولهما بذهول، دون أن يضعا جعبهما وأمتعتهما على أديم الحجرة.

قال سولومين: «والآن لماذا لم تضعا الأمتعة جانبًا؟ ألديكما متاع كبير الحجم؟».

فرفعت ماريانا حزمة ثيابها وقالت: «لا أملك غير هذه».

وقال نجدانوف: «لقد جئت معي بحقيبة وجعبة وتركتهما في العجلة وها أنا ذاهب لاستحضارهما».

فصاح سولومين وقد فتح الباب: «كلا. لا تتعب نفسك. بافيل ألا أسرع بإحضار الأمتعة من العجلة».

فأجاب بافيل من أقصى السلم: «حاضر!».

والتفت سولومين إلى ماريانا وقد خلعت عنها «الشال»، وكانت تهم بفك إزرار معطفها ثم قال: «هل مضى كل شيء بسهولة دون أي ألم؟».

قالت ماريانا: «نعم بكل سهولة. إذ لم يلمحنا ولا مخلوق. وقد تركت رسالة لمدام سبياجين. على أنني لم أحضر كل ثيابي؛ لأنك يا عزيزي سولومين قلت إنك ستبعث بنا......».

وهمت ماريانا بأن تقول: «إلى الاندساس في غمار الشعب»، ولكنها ترددت واسترسلت تقول: «لأنها ليست بذات فائدة لي الآن، ولكن لديّ من المال ما يكفي لشراء ما أحتاج إليه من الثياب».

فأجاب سولومين: «سننظر في ذلك بعد الآن».

ودخل إذ ذاك بافيل يحمل الأمتعة.

قال سولومين: «إنني أوصيكما خيرًا بأعز أصدقائي في هذا المصنع، فاعتمدا عليه كل الاعتماد واركنا إليه ركونكما إليّ... بافيل! هل كلمت تاتيانا عن ساموور الشاي؟».

فأجاب بافيل: «سيكون هنا بعد قليل، والقشطة وكل شيء».

قال سولومين: «تاتيانا هذه زوجة بافيل وهي مثله في إخلاصه، ويُركن إليها كما يركن إليه. وستقوم تاتيانا على خدمتكِ يا سيدتي العزيزة إلى أن تعتادي أنتِ كل شيء تحتاجين إليه».

فرمت ماريانا معطفها فوق وسادة مغطاة بالجلد ملقاة في زاوية من الحجرة، وقالت تخاطب سولومين: «من فضلك ادعني ماريانا؛ فإنني لا أريد أن تدعوني سيدة، ولست بحاجة إلى خدم ووصائف. فإنني لم أهرب من حياتي تلك لكي يُسعَى عليّ بما أريد ويطاف، لا تنظر إلى ثوبي فلست أملك غيره ولكن ينبغي أن أغيره الآن».

وكان ثوبها آية البساطة، وإن كان من صنع خياطة من سان بطرسبرج، وكان ملائمًا مع خصرها متناسبًا وقوامها.

قال سولومين: «ليكن ما تريدين. فلست تجدين هنا خادمًا، وإنما عونًا لك على الطراز الأمريكي. ولكن يجب أن يقدم لكِ قدح من الشاي، على أن الوقت مبكر الآن وأنت متعبة، وكذلك نجدانوف. وينبغي لي أن أذهب الآن إلى المصنع، ثم أعود. وإذا احتجتِ إلى شيء ما، فسلي بافيل أو تاتيانا يحضره لكما».

فمدت ماريانا بعجلة كلتا يديها له مصافحة شاكرة.

قالت: «كيف نستطيع أن نوفيك حق الشكر؟».

ونظرت إليه نظرة كلها فيض عاطفة وتقدير للصنيع.

فلاطف سولومين إحدى يديها وقال: «لو قلت إنني لم أصنع شيئًا يستحق الشكر لما كنت في ذلك صادقًا، فخير لي إذَنْ أن أقول أن شكركِ لي يبعث في نفسي أشد السرور، إذَنْ «خالصين!» طاب صباحكما وأنت يا بافيل هلم بنا».

فتناول نجدانوف راحتيها، ووضعهما فوق صدره.

قال: «إنني سعيد يا ماريانا، إذ أبدأ هذه الحياة الجديدة بجانبكِ نعم ستكونين لي الكوكب الذي أولج وأسير على هديه. ستكونين قمري وكوكبي وعوني ودليلي...».

فأجابت ماريانا: «لك الله يا عزيزي. لك الله يا أليكسي. نحن بادئان حياة جديدة. فما أجمل هذه الحجرة الصغيرة الخجلة المنزوية وما أخفها بجانب تلك القصور الكريهة المقيتة. ولكن مهلًا. مهلًا. يجب أولًا أن نغتسل وننظف الحجرة وننسقها قليلًا. سأذهب إلى حجرتي الأخرى وأنت... انتظر هنا. لن أغيب أكثر من دقيقة».

وذهبت ماريانا إلى الحجرة الأخرى، وأغلقت الباب ولم تكد تمضي دقيقة أخرى حتى فتحته قليلًا، وقالت وهي مخرجة رأسها من بين مصراعيه: «ألا ترى سولومين رقيقًا لطيفًا يا ألكيسي؟!».

ثم أقفلت الباب ثانية، وأدارت المفتاح في القفل.

ومضى نجدانوف إلى النافذة، وجعل يطل على الحديقة.

ولم تلفت أنظاره منها إلا شجرة تفاح عجوز كبيرة.

فهز نفسه قليلًا، وتمطى وفتح الحقيبة، ولكنه لم يخرج منها شيئًا.

لقد كان سابحًا في لجة من التفكير.

وعادت بعد قليل ماريانا بوجه مشرق منتعش من أثر الابتراد والاستحمام، تبين فيه أمارات التهليل والفرح، وجاءت على أثرها تاتيانا زوجة بافيل بأقداح الشاي والبسكويت والقشطة.

وكانت تاتيانا امرأة ممتلئة البدن، غزيرة الفروع، طويلة الذوائب، لطيفة المحيا، نظيفة اليدين، وإن كانتا كبيرتين.

وانحنت تاتيانا باحترام وحيتهما بلهجة ثابتة رزينة، ومضت في عملها ترتب الأقداح والأواني.

فدنت ماريانا منها قائلة: «دعيني أساعدك يا تاتيانا، وإنما أعطيني أولًا فوطة».

فأجابت المرأة. «لا تتعبي نفسك يا آنسة، قد اعتدنا نحن هذا العمل، وقد أمرني مستر سولومين بأن أقضى لكما كل شيء، وإذا احتجتِ يا سيدتي إلى شيء، فأخبرينا تجديه مهيئًا مجهزًا إذ يسرنا أن نؤدي لكِ أي خدمة».

فأجابت ماريانا: «من فضلك يا تاتيانا لا تناديني يا آنسة. نعم إنني ألوح في أثواب السيدات، ولكني...».

ولم تستطع أن تتم كلمتها؛ إذ أزعجتها نظرات تاتيانا إليها.

قالت الخادمة: «إذَنْ من أنتِ إن لم تكوني من السيدات؟».

فأجابت الفتاة: «إذا كنتِ حقًّا تريدين أن تعلمي. فإنني أقول لكِ الحق وهو إنني سيدة مولدًا ونشأة، ولكني أريد أن أتخلص من كل ذلك. أريد أن أصبح ككل نساء العالم».

فقالت تاتيانا: «آه. لقد أدركت غرضكِ! تريدين أن تَخَشْوْشَني كما تفعل الكثيرات في هذه الأيام».

فأجابت ماريانا متسائلة: «ماذا قلت يا تاتيانا. أخشوشن؟».

قالت هذه: «نعم. هذه كلمة وثبت في هذا العصر، واشتهرت، فمعنى الإخشوشان الاقتداء بالعامة والتشبه بأفراد الشعب».

فدارت ماريانا بعينها إلى نجدانوف، وقالت: «ألم تسمع يا عزيزي أليكسي أنا وأنت قد أصبحنا مخشوشنين!».

فقالت تاتيانا وهي تغسل الأواني وتنظر إلى ماريانا ونجدانوف معًا: «أهو زوجكِ أم أخوكِ؟».

فأجابت ماريانا: «لا زوجي هو ولا أخي».

فرفعت تاتيانا رأسها وقالت: «إذَنْ أنتما تعيشان معًا بكل حرية. هذا أيضًا يحدث كثيرًا في هذا الأيام. وحيث تجدان بركة الله تستطيعان أن تعيشا سعيدين في دعة وسلام».

قالت ماريانا: «ما أرق الكلمات التي تقولين يا تاتيانا: «نعيش معًا بكل حرية» إن هذا التعبير جميل في عيني يروق لي. إنني أريد أن أرجوكِ في أمر يا تاتيانا. أريد أن أصنع أو أبتاع ثوبًا كثوبكِ هذا أو أبسط منه مظهرًا. ثم أريد أيضًا نعلين ومنديلًا وجوارب كهذه التي تلبسين. فإن لدي بعض النقود».

فأجابت تاتيانا: «هذا أمر بسيط يا آنسة... كلا. كلا. لا تغضبي. لن أدعوكِ يا آنسة إذا كنتِ لا تحبين هذا النداء. إذَنْ كيف أدعوكِ».

قالت ماريانا: «ناديني ماريانا. والآن ألا تريدين أن تتناولي معنا قدحًا من الشاي؟».

فأجابت تاتيانا: «نعم. هذه المرة فقط، ولو أن زوجي بافيل سيؤنبني بعدها».

وجلست تاتيانا ترتشف قدحها.

وأشعلت ماريانا لفافة تبغ، وبدأت تدخن، فنظرت تاتيانا إليها وقالت: «ألا معذرة يا ماريانا إذا قلت لكِ إنك إذا كنت حقًّا تريدين أن تخشوشني، فينبغي لك أن تطرحي هذه اللفائف، فإنك إذا دخنتِ أمام الناس، فلا يلبثون أن يعلموا أنك سيدة!».

فقذفت ماريانا باللفافة من النافذة وأجابت: «لن أدخن بعد اليوم. فمن أسهل الأمور الامتناع عن التدخين، وإذا كانت نساء الشعب لا يدخنّ، فأولى بي أن لا أفعل مطلقًا».

وفي تلك اللحظة سُمِع سولومين عند الباب وهو يصيح: «هل أدخل؟».

فقالت ماريانا بلهفة: «تفضل! تفضل».

فدخل سولومين وهو يقول: «معذرة، فتلك عادة إنجليزية اعتدتها، وكيف الحال الآن؟ ألم ينازعك الحنين إلى الوطن بعد؛ ها أنا ذا أراكما تشربان الشاي مع تاتيانا. وتسمعان إلى حديثها، إنها امرأة عاقلة ذات إحساس. إن صاحب المصنع قادم اليوم. هذه «بلوى»، وسيمكث لتناول طعام الغداء. ولكن ما الحيلة! إنه السيد في هذا المكان».

فقال نجدانوف: «وأي رجل هو؟».

فأجاب سولومين: «إنه ليس بالرجل السيئ. إنه من أهل الجيل الجديد ومثال الأدب، وهو آية التلطف معي؛ لأنه يعتقد أنني ضروري له لا يستغني عني، وقد جئت الآن لأقول لكما لعلكما لا

تتمكنان من رؤيتي اليوم، وسيقدم لكما طعام الغداء هنا. ومن فضلكما لا تظهرا في فناء المصنع. وهل تظنين يا ماريانا أن مستر سبياجين سيبحث عنكما ويبث العيون والإرصاد؟».

فأجابت ماريانا: «لا أظن ذلك».

وقال نجدانوف: «ولكني أظنهم فاعلين».

قال سولومين: «هذا لا يهم على الحالتين. إذ ينبغي لكما الاحتراس أولًا، ثم بعد أن تمضي مدة من الزمن، لكِ أن تفعلي ما تشاءين».

قال نجدانوف: «ولكن هناك شيء واحد. يجب أن يعرف ماركيلوف أين مقري».

قال سولومين: «ولماذا؟».

فأجاب نجدانوف: «في سبيل القضية الوطنية يجب أن يعرف أين أقيم، إذ لا خطر من ذلك ولا ضير».

قال سولومين: «ليكن ذلك. سأبعث إليه بافيل يخبره».

وانصرف سولومين بعد أن ودعهم، ومشت تاتيانا منصرفة في أثره...

وظل العاشقان معًا في خلوة.

بدآ أولًا يشدان يديهما معًا، ثم تقدمت ماريانا متلببة تعينه على تنسيق حجرته، فمضت تفك الحقيبة والجعبة، وأبت أن يساعدها على عملها، قائلة إنها تريد أن تعتاد العمل وحدها دون عون أحد، ونشرت ثيابه على الحائط بعد أن دقت مسامير في الجدار بفرشة من فُرَش الشَّعر؛ لأنها لم تجد أداة أخرى تستخدمها في دقّها.

ولم تلبث أن صاحت فجأة: «ما هذا. يا ألله! هذا مسدس. وهل مُعَمر، وهل من حاجة إليه؟».

فأجاب نجدانوف: «كلا. إنه فارغ، ولكن الأفضل أن تدفعيه إليّ. أتريدين أن تعلمي لماذا أقتنيه؟ كيف يستطيع الإنسان أن يستغني عن مسدس كهذا في مهنة كمهنتنا التي نريد أن نسلك فيها؟!».

فضحكت، واستمرت على عملها، منسقة الأمتعة مرتبة منظمة، واضعة كل شيء في المكان اللائق به، حتى انتهت في أبحاثها إلى دفتر الأشعار، فرفعته قليلًا، قالت ملتفتة إلى نجدانوف: «سنقرأه معًا في ساعة فراغنا، أليس كذلك؟!».

فصاح نجدانوف منفجرًا: «هاته. سأحرقه وأدع النار تأكله. فهو لا يصلح لشيء غير ذلك».

فقالت: «ولماذا إذَنْ جئت به معك؟ كلا. ما كنت لأدعك تحرقه. ولئن كنا أبدًا نسمع المؤلفين والشعراء مهددين منذرين الناس بأنهم سيحرقون مؤلفاتهم وقصائدهم ودواوين أشعارهم، فلا نرى أحدًا منهم تطاوعه نفسه يومًا أن ينفذ ما يقول، وسأضع الدفتر في حجرتي».

وكانت نجدانوف يهم بالاحتجاج، ولكن ماريانا كانت قد أفلتت إلى حجرتها بالدفتر، وعادت من غيره.

وجاءت تجلس بجانبه، ولكنها لم تلبث أن نهضت ثانية قائلة: «إنك لم تدخل حجرتي إلى الآن. فهل تحب أن تراها؟ إنها لطيفة كحجرتك تعال انظر».

فنهض نجدانوف، ومشى في أثرها.

وكانت حجرتها أصغر من حجرته، ولكن تنسيقها كان أبدع وألطف، إذ رأى في ناحية بعض الأزهار في آنية وسريرًا حديديًّا في ناحية أخرى.

وقالت ماريانا: «ألا ترى أن سولومين آية اللطف ورقة الجانب، ولكن لا ينبغي أن يدللنا كل هذا التدليل، فتفسد طبائعنا وتنعم أرواحنا. إذ لست أتصور أن سيكون لنا دائمًا حجرات كهذه. أتعلم ماذا

يجول في خاطري؟ إنني أظن أننا إذا استطعنا أن نحصل على عمَل واحد نتناوله، فذلك خير وأبقى. حتى لا نضطر إلى الفراق والابتعاد بعضنا عن بعض. ولكني أخشى أن لا يكون ذلك أمرًا سهلًا مواتيًا، وإنما يجب أن نفكر في ذلك. إنك لن تعود إلى سان بطرسبرج، أليس كذلك؟».

فأجاب نجدانوف: «وماذا أفعل فيها؟ هل أعدّ محاضرات في الجامعة أو ألقي دروسًا؟ لا فائدة لي من ذلك الآن».

قالت ماريانا: «يجب أن تسأل سولومين مشورته. فهو أعرف منا بوجوه العمل».

وعادا إلى الحجرة الأولى، وجلسا جنبًا إلى جنب، وأنشآ يتمدحان سولومين وتاتيانا وبافيل.

قالت ماريانا: «يلوح لي أننا معًا نشعر الآن بشيء من القلق أشبه شيء بعروسين جديدين في سفرة شهر العسل، فإن شعورهما كشعورنا الآن. إنهما يحسان السعادة، ولكن لا يزال في طيّ تلك السعادة شيء من القلق».

فابتسم نجدانوف ابتسامة متكلفة، ونهضت ماريانا من مقعدها ووقفت أمامه.

وقالت: «أنت تعلم يا حبيبي أليكسي أن اللحظة التي تقول لي فيها كرجل صادق شريف، وسأعتقد ما تقول لأنني أعرفك صادقًا شريفًا. نعم في اللحظة التي تقول فيها إنك تحبني ذلك الحب... نعم، ذلك الحب الذي يهب أحد الحبيبين حق السيطرة على الآخر، في اللحظة التي تجيئني وتقول لي ذلك، ألا اعلم أنني سأكون يومذاك ملكًا لك. وأهبك نفسي تصنع بها ما تشاء!».

فتوردت وجنة نجدانوف، وأشاح بوجهه قليلًا وأجاب: «عندما أقول لك ذلك...».

فقاطعته ماريانا قائلة: «نعم. في ذلك اليوم الذي تقول ذلك، ولكنك لا تقوله الآن.. إنك رجل شريف يا نجدانوف. حسبنا الآن حديثًا عن هذا. ولنتكلم في شؤون جدية أخرى».

قال نجدانوف: «ولكني أحبكِ جد الحب يا ماريانا».

فقالت: «إنني لا أشك في حبك وسأنتظر. ولكن تمهل. إنني لم أتم بعد تنسيق مائدتك. ما هذا الشيء الملفف... هذه مادة صلبة».

فوثب نجدانوف من مكانه صائحًا: «لا تلمسي هذا يا ماريانا دعيه جانبًا من فضلك».

فنظرت إليه ماريانا عن ذهول ودهشة وقالت: «أسر هذا ولغز؟! ألديك أسرار تخفيها؟».

فتلعثم نجدانوف قائلًا: «نعم... نعم...». وأمسك عن الكلام، ولكنه قال على سبيل الشرح والتفسير: «هذه صورة!».

وقد خرجت هذه الكلمة من فمه وهو لا يشعر، فقد كانت تلك اللفة الصغيرة التي في يد ماريانا صورتها هي التي أخذها نجدانوف من ماركيلوف.

قالت مضطربة: «أصورة هذه. صورة امرأة؟».

ومدت إليه يدها بالرزمة، فلم يتناولها بيد متينة، ولذلك سقطت مفتوحة.

فصاحت ماريانا عجبًا ودهشة:

«ما هذا الذي أرى؟... هذه صورتي! أظن أن لي الحق في رؤية صورتي الشخصية».

وأخذت الصورة من يد نجدانوف.

قالت: «أأنت الذي رسمتها؟».

فأجاب نجدانوف: «كلا. لم أكن أنا الذي رسمتها».

قالت: «من إذَنْ. هل ماركيلوف؟».

فأجاب: «نعم. لقد حذِرت حقًّا».

فعادت تسأله: «وكيف وقعت في حوزتك».

قال: «هو الذي أعطانيها».

فقالت: «ومتى؟».

وانطلق نجدانوف يشرح لها قصة الصورة، وجعلت هي في أثناء ذلك تنظر إلى الصورة، وخطر لهما خاطر واحد بعينه وهو أنه لو كان ماركيلوف في الحجرة معهما في تلك اللحظة لكان له الحق في استرداد صورته... ولكن الألفاظ لم تسعفهما، فظلت هذه الفكرة منبعثة في خاطريهما بلا ألفاظ. وكان كل منهما يعرف ما في خاطر الآخر.

فلفت ماريانا الصورة برفق وسكون، ووضعتها فوق المائدة.

وتمتمت تقول: «ما أطيب فؤاد ذلك الرجل. إنني لأعْجب أين هو الآن؟».

فقال نجدانوف: «في بيته ولا ريب، ولا بد لي أن أذهب غدًا أو بعد غد للقائه؛ لأني بحاجة إلى بضعة كتب ورسائل لديه، فقد وعدنيها ونسي أن يبر بوعده قبل رحيلي من بيته».

قالت ماريانا: «وهل تظن يا أليكسي إنه عندما أعطاك هذه الصورة أسلَم إليك كل شيء، وتنازل عن كل ذكرى في فؤاده؟».

فأجاب نجدانوف: «أظن ذلك».

فقالت ماريانا: «وهل تظنك واجده في بيته؟».

فقال: «بلا ريب».

وفي تلك اللحظة دخلت تاتيانا عليهما بالطعام.

وجلسا إلى المائدة، بينا اقتعدت تاتيانا النافذة ووجنتها مسندة إلى راحة يدها.

قالت ماريانا تخاطبها: «إنني أريد أن تبتاعي لي شيئًا من الصوف الخشن المتين؛ لأنني أود أن أخيط بعض جوارب بسيطة لا جميلة ولا مزينة».

فوعدتها تاتيانا أن تهيئ لها كل ما أرادت، وانتظرت حتى رفعت الصحاف والأواني عن المائدة، وانطلقت من الحجرة بخطى ثابتة هادئة.

وإذ ذاك التفتت ماريانا إلى نجدانوف، وقالت دون أن ترتقب جوابًا: «والآن ماذا نفعل؟ وحيث إن عملنا لن يبدأ قبل الغد، فدعنا نقضي هذا المساء في الأدب. فهل تحب ذلك؟ هل تود أن نقرأ ديوان شعرك؟ إنني سأكون منتقدة شديدة اللهجة وإنني أعدك ذلك».

ولم يوافق نجدانوف إلّا بعد مدة طويلة، ولكنه استسلم أخيرًا، وراح يقرأ جهير الصوت شيئًا من أشعاره.

وكانت ماريانا تقاطعه؛ لتسأله وتدقق البحث معه فيما كان يتلو عليها من القصيد.

وجاء ذكر قصيدة لشاعر روسي، وكانت تلك محزنة مبكية؛ لأنه ذكر فيه موته والعبرات التي تسفح لأجله يوم رحيله عن الحياة.

فقال نجدانوف إنه لا يكتب شعرًا كذاك إليهما حزينًا؛ لأنه لم يكن يتوقع أن يبكي أحد على قبره؛ لأنه إذا مضى عن الحياة فلا دموع عليه ولا عبرات.

فقالت ماريانا برفق: «بل ستكون هناك عبرات سخينة إذا أنا عشت بعدك».

ورفعت عينيها إلى السقف، وراحت تسأله همسًا كأنما تحدث نفسها.

قالت: «وكيف رسم صورتي تلك؟ أمن الذاكرة رسم؟».

فالتفت نجدانوف إليها بسرعة وأجاب: «نعم من الذاكرة».

فاندهشت ماريانا من جوابه، إذ كانت تظن أنها إنما كانت تناجي نفسها بالسؤال مناجاة.

قالت مسترسلة في نجواها: «إنها والله لعجيبة من العجائب. لأنه لا يستطيع التصوير ألبتة. ولكن فيمَ كنت أتكلم؟ آه، عن الشعر. إذا كان هناك شاعر، فليكن الإنسان فيم ينظم أشبه بالشاعر بوشكن».

قال نجدانوف: «ولا يجب على الإنسان أن يكتب أشعارًا كأشعاري هذه. أليس كذلك؟».

فأجابت ماريانا: «إن أشعارًا كهذه تسر الأصدقاء ويطرب لها الصحاب لا لأنها جميلة، ولكن لأنك أنت الجميل، وهي مثلك في ذلك».

فابتسم نجدانوف وقال: «لقد دفنت شعري بهذا الرأي ودفنتني معه!».

فصفقت ماريانا بيديها وقالت له: «إنه شديد لعوب بالكلم». ولم تلبث أن قالت إنها متعبة، وإنها تريد أن تأوي إلى فراشها.

قالت وهي تهز جدائل شعرها بهزة رأسها: «وعلى فكرة، ألا تعلم أن لدي مائة وثلاثين روبلًا. فكم معك أنت؟».

قال: «ثمانية وتسعون».

قالت: «يا ألله! نحن إذَنْ غنيان. نعم إن هذا لهو الغنى العريض لقوم يريدون التقشف. ولكن ما علينا. طاب مساؤك. طاب مساؤك. إلى الغد!».

وانصرفت.

وجلس نجدانوف فوق المتكأ، وغطى وجهه بيديه.

ولكنه لم يلبث أن نهض من مجلسه مسرعًا، وذهب إلى باب حجرتها ودقه.

قالت ماريانا من داخل الحجرة: «من هذا؟».

فصاح نجدانوف: «كلا. يا ماريانا. ليس إلى الغد. ليس إلى الغد. لا أستطيع. لا أستطيع».

فأجابت هي برفق وعذوبة صوت:

«بل إلى الغد!».

وفي بكرة اليوم التالي عاد نجدانوف يدق باب ماريانا.

قال وقد تبيت صوته: «ألا تستطيعين أن تظهري دقيقة واحدة».

فأجابت من داخل الحجرة: «حالًا».

وفي الحال خرجت، ولكنها لم تلبث أن صرخت صرخة فزع ودهشة، إذ لم تعرف نجدانوف لأول وهلة، فقد خلع عنه تلك الثياب التي كان يلبسه وغيرّ بزته، وارتدى ثوب الروس الباعة الفقراء.

وصاحت ماريانا: «يا إله السماء! ما أقبح هذه البزة التي تتراءى بها؟».

وعدت فهبطت في أحضانه، ولوحت بذراعيها فوق كتفيه وهي تقبله قبلات سريعة.

قالت: «ولكن كيف ارتديت هذه الثياب؟ إنك تلوح في هذا الثوب أشبه بتاجر أو خادم مرفوض. فلم هذه السترة الطويلة؟ ولماذا لم تلبث ثوب فلاح فقط؟».

قال؟ «أتسألين لماذا؟» وفي الحق فقد كان يلوح في تلك الثياب أشبه شيء ببائع السمك، وتبين هو ذلك بنفسه، وكان متألمًا متحيرًا منه في أعماق قلبه، وكان قلقًا في تلك البزة معكر النفس.

وعاد يقول: «لأنني إذا ارتديت زي الفلاحين سهل على الناس معرفتي، وقد قال لي ذلك بافيل، وإنني في هذه الثياب ألوح كأنني قد ولدت بها».

فقالت ماريانا بلهفة وتشوق: «أمزمع أنت البدء بالعمل في الحال؟».

قال: «نعم. سأحاول. وإن كنت حقًّا لا أدري...».

فقاطعته ماريانا قائلة: «إنك موفور الحظ».

فاستمر نجدانوف يقول: «إن بافيل هذا مخلوق عجيب، فإنه ليتغلغل في أعماق الإنسان ويكشف خبايا فؤاده في لحظة واحدة، ثم لا يلبث أن يغلق وجهه كأنه لم يعرف شيئًا وهو يعمل للقضية أيضًا، ويجاهد في سبيل أمته، ومع ذلك ترينه يضحك من نفسه لذلك ويعبث ويسخر. وقد أحضر لي الكتب من ماركيلوف وهو يعرف منذ عهد طويل، وأما في سبيل سولومين فإنك ترينه يخترق لهيب النيران مضحيًا نفسه من أجله».

قالت ماريانا: «وكذلك تاتيانا زوجته، فلماذا ليت شعري يضحي هؤلاء القوم أنفسهم من أجله، ويخلصون إليه كل هذا الإخلاص؟».

فلم يحر نجدانوف جوابًا.

وكانت ماريانا تتلفت حولها قلقة جازعة ثم قالت: «عجبًا. ماذا حدث لتاتيانا، فقد وعدتني أن تعود سريعًا؟».

وفي تلك اللحظة دخلت تانيانا تحمل رزمة في يدها وهي تقول: «ها أنا قد جئت».

وكانت قد سمعت كلمة ماريانا من خلف الباب».

قالت: «لا تزال هناك فسحة من الوقت. انظري ماذا جئت به لأجلكِ».

فطارت ماريانا في لهفة نحوها وهي تقول: «هل أحضرتِ ما طلبت؟».

فأجابت تاتيانا وهي تلاطف بيدها الجعبة: «كل شيء هنا. في هذه الرزمة. وليس عليكِ إلا أن ترتدي هذه الثياب، وتخرجي لتدهشي العالم بأسره».

قالت ماريانا متعجلة متلهفة: «هلمي أشهد الثوب. أريني. أريني».

ومشت بها إلى حجرتها.

ولما رأى نجدانوف نفسه وحيدًا، راح يمشي في الحجرة ذهابًا وجيئة وهو ينظر إلى زيه الجديد في المرآة ويهز رأسه.

ثم تناول عدة رسالات وكتب صغيرة، فألقاها في جيبه، ومضى يقلد لغة التجار وباعة الحوانيت في لهجاتهم.

ولم يلبث أن قال لنفسه: «أظن هذه اللهجة تشبه رطانتهم، وعلى أي حال لا حاجة إلى التمثيل؛ فإن بزتي مقنعة الإقناع المطلوب».

وإذ ذاك دخل سولومين.

فلما رآه على تلك الحال صاح دهشة:

«لك الله. أهكذا اشتملت ببردة الحرب، ولكن معذرة أيها الصديق. فإن الإنسان لا يستطيع أن يُشعر نفسه الاحترام لك وأنت في هذه البزة».

فقال نجدانوف: «أرجو منك ذلك. لقد كنت أريد أن أطلب إليك رفع الكلفة منذ عهد طويل».

فأجاب سولومين: «إن الوقت لم يحن بعد، ولو أنك تريد أن تعالج اعتياد ذلك الآن. ولكن يحسن بك أن لا تخرج إلى الطريق الآن؛ فإن صاحب المصنع لا يزال هنا وهو الآن نائم في فراشه».

فقال نجدانوف: «سأخرج بعد قليل، إذ أريد أن أستكشف جوار هذه الناحية. إلى أن تأتي أوامر جديدة».

فقال سولومين: «عظيم جدًّا. ولكني أريد أن أقول لك كلمة يا أليكسي. هل تأذن لي أن أدعوك بهذا الاسم؟!».

فأجاب نجدانوف بابتسامة «بالتأكيد... إن كنت تحب».

قال سولومين: «كلا. لا حاجة إلى ذلك. ألا أصغ إليّ، إن النصيحة أغلى ثمنًا من المال. إنني أعلم أن لديك رسائل وكتبًا في الحث على الثورة، فوزعها في أي مكان تشاء إلا في هذا المصنع قبل كل شيء».

قال نجدانوف: «ولماذا!».

فأجاب سولومين: «أولًا لأن ذلك خطر عليك، وثانيًا لأنني وعدت صاحب المصنع أن لا أفعل شيئًا من ذلك هنا. وأنت تعلم أن المكان مكانه، وقد قام الرجل ببعض الإصلاح، إذ أنشأ مدرسة وغير ذلك، وقد لا يكون من عملك إلا الشر والضر، على أنني لا أتدخل في ما تعمل مطلقًا، ولكني أطلب إليك أن لا تحتك ألبتة بعمالي».

فقال نجدانوف بابتسامة تهكم: «الحذر مفيد».

فابتسم سولومين ابتسامته المعتادة وأجاب: «صحيح. يا عزيزي أليكسي، إن الحذر لا يزال أبدًا مفيدًا مجديًا. ولكن ماذا أرى. وأين نحن؟».

وقد فاه بهذه الكلمات الأخيرة إذ لمح ماريانا، وقد وقفت بالباب وهي في ثوب غسل عدة مرات، وقد وضعت منديلًا أحمر فوق شعرها، وآخر أصفر فوق كتفيها، وقد وقفت تاتيانا خلفها مبتسمة ابتسامة رضى وسرور وسذاجة.

ولاحت لنجدانوف أبهى طلعة، وأنضر محيا، وأجمل بزة من نجدانوف في ثيابه تلك.

قالت ماريانا بلهجة المتوسل: «يا عزيزي سولومين، لا تضحك مني من فضلك».

واصطبغت وجنتها بلون الأرجوان.

وصاحت تاتيانا مصفقة بيديها: «هاك زوجين لطيفين.. وأنت يا عزيزي نجدانوف إنك تلوح جميلًا فاتنًا في زيك هذا، ولكنك بجانب يمامتي هذه لا شيء يذكر مطلقًا».

فقال نجدانوف يحدث نفسه: «حقًّا. إنها لفاتنة. واهًا لي ما أشد جمالها».

وعادت تاتيانا تقول: «ألا تنظر. لقد أبت إلّا أن نتبادل أقراطنا وقد أعطتني قرطًا ذهبًا، وأخذت في مقابله حلقًا من الفضة».

فقالت ماريانا: «إن فتيات الشعب لا يلبسن حليًّا من الذهب».

فتنهدت تاتيانا وقالت: «وسأحتفظ بقرطكِ الذهبي يا عزيزتي، فلا تخافي».

وجلس الجميع.

ولكن نجدانوف لم يلبث أن نهض قائلًا: «يجب أن أذهب الآن».

ثم التفت إلى سولومين وقال: «لا تك في جزع، فلن أتدخل مع عمال مصنعك، بل سأجرب لساني في الضاحية. وأعود فأنبئكم بكل شيء. فاطلبوا لي التوفيق».

فقالت تاتيانا: «ولماذا لا تتناول قدحًا من الشاي أولًا؟».

فأجاب نجدانوف: «كلا وشكرًا. فإنني إذا احتجت إلى قدح منه، فما عليّ إلا أن أدخل حانًا أو مطعمًا فأتناول منه ما أريد».

فهزت تاتيانا رأسها.

ولكنه انطلق مسرعًا وهو يقول: «إلى الملتقى. إلى الملتقى».

ولكنه ما كاد يخطو عتبة الباب، حتى التقى ببافيل، فقدم هذا إليه هراوة طويلة قائلًا: «خذ هذه يا أليكسي واتكئ عليها».

فأخذ نجدانوف الهراوة منه، ولم يقل كلمة واحدة.

وأرادت تاتيانا أن تخرج من الحجرة، ولكن ماريانا أوقفتها قائلة: «انتظري لحظة يا تاتيانا؛ فإنني بحاجة إليك».

فأجابت تاتيانا: «سأعود بعد لحظة بوعاء الشاي. لقد ذهب صديقك دون أن يشرب قدحه، وكان مسرعًا في عجلة مخيفة. ولكن ليس هذا سببًا يدعوكِ إلى ترك الشاي. ولا تلبث الأمور أن تستقر، فيترك نجدانوف هذه العجلة».

وانصرفت ووقف سولومين أيضًا يريد الذهاب.

وكانت هي مولية ظهرها له، فلما التفتت نحوه وهي في دهشة منه، إذ ظل طول تلك الجلسة صامتًا، تبينت في وجهه وفي عينيه وهما مستقرتان على وجهها، ظل إحساس لم تكن رأته من قبل، ظل حيرة واضطراب وفضول وقلق.

فاضطربت وخجلت وتوردت وجنتيها حياء وخجل، كذلك سولومين إذ رآها قد أدركت ما في نفسه، فراح يتكلم بصوت جهير على غير عادته.

قال: «حسن ما فعلت يا ماريانا. بديع والله ما صنعت. وهكذا ابتدأتِ مطمح نفسكِ وعملكِ العظيم».

فأجابت: «أي بدء ترى يا سولومين! أتسمى هذا ابتداء للعمل! لقد أصاب نجدانوف. نحن إنما نمثل رواية مضحكة».

فعاد سولومين إلى مجلسه.

قال: «ولكن استمعي إليّ يا ماريانا. كيف كنت تتصورين البدء سيكون؟ بلا ريب لم تتصوري أنك ستقفين خلف المتاريس ملوحة بالعلم الخفَّاق فوق رأسك صائحة:

«لتحي الجمهورية! ليمت الظلم. وليندثر الاستبداد!» ثم أنت تعلمين أن ليس هذا واجب المرأة وعملها المفروض عليها. ولعلك بادئة اليوم بتلقين مبادئك الوطنية الجديدة لفتيات صغار من نسوة الشعب وبناته، وسترين أنها لن تدرك حرفًا مما ستقولين، ولن تدركي أنت كذلك كلمة مما ستفوه به، وفوق ذلك وأشد ألمًا للنفس أنها سيخيل إليها أن ما تلقنينها لا نفع منه ألبتة ولا رجاء ولا

جدوى. وستنطلقين عنها لتعليم فتاة أخرى مبادئ القراءة. ولن يمضي أسبوع حتى تجدي نفسك تمرضين طفلًا أو تجرعين شيخًا مريضًا دواءه. هذا هو بدء عملك يا عزيزتي ماريانا».

فقالت ماريانا: «ولكن الراهبات والأخوات الرحيمات يقمن بذلك، فما فائدتي أنا؟ لقد كنت أظن أنني سأعمل عملًا آخر غير هذا».

فقال سولومين: «أكنت تريدين أن تقومي بتضحية النفس؟».

فبرقت عين الفتاة سرورًا وطمعًا وأملًا وراحت تقول: «نعم. ذلك حلمي الذهبي. نعم. نعم. لقد أردت ذلك».

قال سولومين: «ونجدانوف؟».

فهزت ماريانا كتفيها وقالت: «وماذا عن نجدانوف! سنذهب معًا. وإلا ذهبت أنا وحدي».

فأجال سولومين البصر في وجهها وقال: «إنك يا ماريانا أنبل نفسًا منا نحن الرجال».

فرفعت ماريانا عينيها إليه وأجابت: «أريد أن أكون عند ظنك بي يا سولومين، وأحقق فكرتك، وبعد ذلك أروح أشد الناس تأهبًا للموت».

فنهض سولومين من مجلسه وقال: «كلا. خير لمثلك أن يعيش. والآن. أتودين أن تعرفي ماذا يجري الآن في دار سبياجين. ليس علينا إلا أن نوحي بالفكرة إلى بافيل، فيكشف لنا في خطف البرق الغطاء عما يجري هنالك».

فقالت ماريانا في دهشة: «يا له من رجل!».

فأجاب سولومين: «نعم. إنه حقًّا رجل عجيب، وإذا كنت تريدين أن تتم صيغة الزواج بينك وبين نجدانوف، كان هو أنشط الناس إلى ذلك، ولعلك تذكرين أنني نبأتك بحديث القسيس القريب منا. ولكن لعلّ الوقت لم يحن بعد. أليس كذلك؟».

فأجابت ماريانا: «بَلَى. لا حاجة إلى ذلك الآن».

فقال سولومين: «حسن جدًّا»، ومضى إلى الباب الذي بين الحجرتين، وبدأ يفحص القفل.

فسألته ماريانا قائلة: «ماذا تفعل؟».

فأجاب: «هل ترين المفتاح والقفل سليميْن، وهل يقفل الباب بإحكام؟».

فهمست ماريانا تقول: «نعم».

فالتفت سولومين إليها، ولم ترفع هي إليه عينيها، وهمَّ سولومين بالانصراف متقدمًا خطوة إلى الباب.

ولكن ماريانا راحت تناديه: «سولومين!».

قال: «نعم. ماذا تريدين؟».

فأجابت: «لماذا أراك اليوم تكثر من الحديث معي، وعهدي بك الرجل الصموت القليل الكلام؟».

فتناول يديها الناعمتين الصغيرتين في يديه الكبيرتين الغليظتين وقال: «أتسألينني لماذا. يخيل إليّ أنني لم أفعل ذلك إلا لأنني أحبكِ كثيرًا. وداعًا إلى لقاء».

وانصرف.

ووقفت ماريانا تتأمله وهو يبتعد.

وبعد لحظة انطلقت تفتقد تاتيانا، وتناولت معها الشاي، وغسلت معها الآنية والصحاف ومواعين الطهي، ونتفت ريش الدجاج، وعقصت شعر أطفال صغار من أهل المصنع.

وقبل طعام الغداء عادت إلى حجرتها، ووافاها نجدانوف على الأثر.

دخل الحجرة متعبًا متراخي النفس، منهوك القوى قد علاه الغبار.

ومد بدنه هابطًا في المقعد وهو يلهث تعبًا.

وجلست ماريانا بجانبه.

قالت: «والآن، نبئني ماذا فعلت؟».

فأجاب بصوت متهدج متعب أتذكرين المثل القائل: «وشر البلية ما يضحك!».

فأجابت: «أذكره ولا أنساه».

فعاد يقول: «هذا المثل ينطبق على جولتي الأولى من كل ناحية. إنني لم أرَ تعبًا في تمثيل دوري، بل كان ذلك أسهل عمل عليّ. وقد بدا لي أنه ينبغي للإنسان أن يدخر قبل الشروع في العمل طائفة من الأحاديث والقصص والنوادر، وإلا إذا هجم عليك أحد بالسؤال أين تقيم؟ ومن أي البلاد قدمت؟ وفيم مقامك؟ ولمَ كان قدومك؟ فلا تستطيع أن تعلم بماذا تجيب. ولكن هذا أيضًا ليس بالأمر الشاذ، ولا باللازمة الأولى. وإنما الأمر الهام الأول هو أن يحتمل الإنسان بضع كؤوس من الشراب وإن يكذب ما استطاع».

فقالت ماريانا: «وأنت. هل كذبت؟».

فأجاب نجدانوف: «بلا ريب بكل جهدي. وقد تبين لي أن كل إنسان لقيت به في طريقي متسخط متألم. ولكن لا يحفل أحد منهم بمعرفة باعث سخطه، وسر ألمه وقد أديت شيئًا حقيرًا من نشر الدعوة، فتركت رسالتين من هذه الكتب الصغيرة في حجرة، وألقيت أخرى في مركبة من مركبات الفلاحين. ولا يعلم إلا الله ماذا ستنتج تلك الكتب! ومررت في طريقي بأربعة رجال، فعرضت عليهم شيئًا من تلك الكتب، فسألني أولهم هل الكتاب دينيّ، وأبى أن يأخذه، وقال الثاني إنه لا يعرف القراءة وإنما تناول مني الكتاب ليحمله إلى بيته هدية إلى أطفاله من أجل الصورة التي على الغلاف، أما الثالث فابتسم أولًا حتى كدت أظن أن الأمل فيه كبير، ولكنه انتهى بالقدح فيّ والاستهزاء بي والتهكم مني ورفض أخذ الكتاب، وأما الرابع فأخذ الكتاب مسرورًا وشكرني عليه، ولكني في ريب من أنه سيفهم منه كلمة واحدة أو مما قلت له لفظًا، وفوق ذلك خرجت من هذه الطوفة بعضة كلب في ساقي، وهددتني امرأة قروية تعدو ورائي بالمغرفة صارخة: «امش من هنا أيها الخنزير القذر. يا للشيطان لكم أيها الأوغاد أشرار موسكو. لا تنتهي منكم يومًا واحدًا ومِن ثقلكم وفظاعتكم، وصاح عليّ أحد الجنود قائلًا: «هُوُ أنت أيها الماشي هناك، سنعمل من لحمك «كفتة»-وانتهى أمري معه بأن شرب حتى ثمل على نفقتي».

قالت ماريانا: «وماذا أيضًا؟».

فأجاب: «أتسألينني ماذا أيضًا! لقد دميت قدمي من المشي، وأنا الآن جائع كالذئب، ورأسي يكاد يتصدع من تأثير الفودكا».

فقالت ماريانا: «ولماذا، هل أكثرت من الشراب؟».

فأجاب: «كلا. لم أشرب غير مقدار قليل لأضع الأسوة، واحتذي الحذو، وجلست في خمس حانات. إنني لا أطيق هذه الفودكا الممقوتة الكريهة الحيوانية، ولا يعلم إلا الله وحده لماذا يشرب شعبنا هذا

السم الكريه. وإذا كان لا بد للإنسان لكي يخشوشن من شرب هذا السائل اللعين، فإنني أفضل أن أُعفى من هذه المهمة».

قالت ماريانا: «وهكذا لمَ يستربْ بك أحد؟».

فأجاب: «كلا لا أحد. اللهم إلا رجلًا واحدًا من أصحاب الحانات وهو رجل بدين مبطان شاحب العين جعل ينظر إليّ نظرات مستريبة قلقة. وقد سمعته يقول لزوجته: «خلي بالك من هذا الفتى الأجعد الشعر فإنني ألمح عليه شيئًا من غرابة الأطوار. ألا ترين كيف يمكث الساعة الطويلة في شرب كأسه»، وفي الحق لقد كنت أختلس الفرص وأصب من كأسي شيئًا من الفودكا تحت المائدة فرارًا من اجتراعها. واضيعتا... ثقيل والله على رجل خياليّ شاعر مثلي أن يمتزج بالحياة الحقيقة هذا الامتزاج».

فقالت ماريانا بلهجة المؤاسي المشجع: «لا بأس عليك. فلعلك ظافر في المرة الثانية بتوفيق وحظ أحسن وأوفر، وإنني ليسرني أنك تبينت الوجه الفكه المضحك من تجربتك الأولى. فهل شعرت حقًّا بالسآمة والملل؟».

فأجاب نجدانوف: «كلا. بل لقد لاح لي ذلك مضحكًا مسليًا فكهًا. ولكن الآن إذ عدت أفكر فيما حدث لي أشعر بالألم منه والتعب».

فقالت ماريانا: «ولكني لن أدعك تكثر التفكير فيه، بل سأحاول تسليتك وطرد الهم عنك. وسيجيء الطعام بعد قليل، وعلى ذلك، ألم تعلم أنني غسلت «الصحون» التي أكلنا فيها ونظفتها بدلًا من تاتيانا. نعم سأشرح كل صغيرة مما فعلت».

وكذلك فعلت، وظل نجدانوف يصغي إلى حديثها وعينه لا تفارق النظر إليها، وتمهلت مرات عدة لتسأله علامَ ينظر إليها تلك النظرات ولكنه ظل على صمته.

وبعد أن تناولا طعامهما راحت تقرأ عليه شيئًا من الأشعار، ولكنه لم يلبث أن نهض فجاءة وترامى على قدميها.

فنهضت هي أيضًا من مجلسها، فألقى ذراعيه حول ركبتيها، وراح يصب في مسمعيها كلمات والهة متقطعة يائسة حارة أليمة.

فقال لها إنه يريد أن يموت، وإنه يشعر في أعماق نفسه أنه غير لابث دهرًا طويلًا حتى يقضي نحبه. وظلت هي ساكنة لا تتحرك مستسلمة لا تقاوم ولا تنازع، بل صبرت صامتة لكلماته الجياشة المستفيضة من شفتيه ولعناقاته الحارة، ونظرت إليه وهو في مكانه بسكون ورثاء وشفقة ورحمة.

ووضعت كلتا يديها على رأسه، وقد أسنده إلى طيات ثوبها، ولكن لم يلبث أن أحدث سكونها تأثيرًا عظيمًا في نفسه لم يكن ليحدثه صدها إياه لو أنها صدته.

ونهض وهو يتمتم قائلًا: «اصفحي عني يا ماريانا لما فعلت في يومي هذا وأمسي، ألا قولي لي مرةً أخرى إنك متأهبة للانتظار حتى أبرهن لك على أنني أستحق حبك وأنني به جدير. وصفحًا عني. ماريانا. صفحًا».

فقالت: «لقد قلت كلمتي. ولن أتحول عنها آخر الحياة».

فصاح نجدانوف قائلًا: «شكرًا يا عزيزتي والآن وداعًا إلى الغد».

وانصرف، وراحت ماريانا تغلق عليها الباب بالقفل.

* * *

ومضى أسبوعان.

وجلس نجدانوف ذات يوم إلى المائدة، يكتب إلى صديقه سيلين على نور مصباح ضئيل.

وكان الوقت مَوْهِنًا من الليل، وكانت أثوابه الملطخة بالأوحال ملقاة مبعثرة فوق المتكأ، مطروحة فوق الأرض، وكان المطر يسقط رذاذًا على زجاج النافذة والريح تزف أشبه شيء بأنين المحتضر.

وكانت هذه رسالته:

«عزيزي سيلين –أكتب إليك دون أن أذكر لك عنواني إذ سأرسل هذا الكتاب مع رسول إلى مكان قصيّ من هذه الناحية؛ لأن مُقامي هنا سر خفي، لا أريد أن يظهر لأنه إذا ظهر أودي بي وبغيري معي. ولذلك حسبك أن تعرف عني أنني منذ أسبوعين وأنا أعيش في مصنع مع ماريانا. وقد هربنا معًا من دار سبياجين في ذلك اليوم بعينه الذي كتبت إليك فيه. وقد آوانا صديق لنا في هذا المكان، وتسهيلًا للشرح سأدعوه في رسالتي هذه بهذا الاسم «فاسيلي»، وهو زعيم هنا ورجل من خيرة الرجال، ونحن في هذا المكان غير باقين طويلًا، إذ سنخفف منه إذا حان حين العمل، وجاءت ساعة الجهاد. على أنني لا أنكر عليك ريبتي وشكوكي في مجيء تلك الساعة، فإنه بالقياس إلى الحاضر، أخشى أن لا تجيء مطلقًا.

«أي صديقي سيلين! إنني تعس متألم معذب، وينبغي أن تعلم أنني منذ هربت مع ماريانا من دار خالها أعيش معها عيشة أخ وأخت وهي تحبني وقد أخبرتني أنها ستكون لي، إذا شعرت من نفسي بأنني قد أصبحت خليقًا بأن أسألها أن تهبني ذات نفسها.

«أي سيلين العزيز، إنني أشعر بأن ليس لي هذا الحق، وأنني لست بامتلاكها خليقًا، وهي تركن إليّ وتؤمن بشرفي وإخلاصي وصدقي، وأنا لا أستطيع أن أغشها أو أخدعها، وأدرك أنني لم أحب سواها، ولن أحب غيرها بمقدار ما أحببتها هي، هذا ما أؤمن به وأعتقد. ولكن كيف أستطيع أن أربط حياتها بحياتي إلى الأبد؟ أأربط مخلوقًا حيًّا تجري في روحه حرارة الحياة بجثة هامدة لا حياة فيها، أو إن شئت فقل مخلوقًا هو في نفسه نصف ميت! وإلّا فأين ضمير الإنسان وأين وجدانه لو أنه فعل ذلك؟ ويخيل إليّ أنك ستقول إنه إذا كانت العاطفة قوية متينة حارة مستفيضة، هدأ الضمير ورقد الوجدان. ولكن هذا ما أتألم منه وأشفق. إنني جثة. نعم.

جثة مخلصة حسنة النية إذ شئت الحق، شريفة لا تريد سوءًا، ولكنها بعد كل هذا لا تزال.... جثة!

«إنني أتوسل إليك أن لا تقول إنني مبالغ مغالٍ فيما أقول؛ فإن ما شرحت لك الآن هو الحق الصراح. إن ماريانا منكمشة إلى عملها ونشاطها وتلببها للجهاد والعمل، والاعتقاد بمبادئها. ولكن أنا!

«ولكن حسبي ما قلت عن الحب والسعادة وما إليهما. ألا اعلم أنني قد مضى عليّ الآن أسبوعان وأنا متغلغل في غمار الشعب، وليس في العالم أغبى ولا في الأرض أبله مما رأيت مخلوقات وأناسًا، ولا ريب عندي في أن الذنب واقع عليّ لا على العمل في حد ذاته. إنني لست بالرجل المتعصب الضيق الذهن، بل أريد أن أحدث في نفوسهم تأثيرًا، ولكن كيف السبيل؟ وكيف يتم لي ذلك؟ إنني في مهمة قفر لا أستطيع أن أدرك شيئًا أو أصل إلى شيء. إنني كلما اندسست في وسط الجماهير لم ألبث أن أجد نفسي مستمعًا إلى أحاديثهم، فإذا جاء دوري إلى الكلام لم أجد كلمة أقولها، وإني لأشعر أنني ممثل غير حاذق، دُفع إليّ دور لا يوافقني ولا أصلح لتمثيله، وأحس الاشمئزاز والاستنكاف من هذه الأخلاق والأطمار التي أجرر ذيولها في طريقي، ثياب «المسخرة» كما سماها صديقي فاسيلي الذي آواني في بيته، والناس يقولون لي ينبغي لك أولًا أن تتعلم لسان القوم وعاداتهم ومشاربهم. ولكن كل هذا قول هراء وسخافة. سخافة. سخافة. إذ يجب أولًا أن تؤمن بما تقول وتقول ما تحب وتشاء. وقد اتفق لي يومًا أن سمعت رجلًا من أهل الدين يعظ الناس، وكانت خطبته السخف كله ومادة الهراء والكلام الفارغ بجملته، ولكنه كان يتكلم بحمية حارة وبلهجة إيمان عميق بما يقول، حتى راح حديثه ووعظه يوغلان في صميم قلوب سامعيه. أجل، هناك وقف على ذؤابة المنبر تبرق عيناه، ويشع نظره، عميق الصوت، ثابت الجرْس، مطبق اليد، يلوّح بقبضته تلويحًا، كأنما قد ركّب من الحديد أو الفولاذ، ولم يفهم أحد من السامعين كلمة مما كان يقول، ولكنهم انحنوا جميعًا أمامه ووقفوا خاشعين كأنما على رؤوسهم الطير. أما أنا فإذا أنشأت أتكلم خيل إلي أنني مجرم يسأل الصفح، ويلتمس الغفران. وأما ماريانا فمؤمنة بما تفعل، وإنها لتشتغل من الصباح إلى المساء لا تكل ولا تمل، ولقد سرها أن رأت يديها قد ارتدتا خشنتين مستغلظتين من العمل وامتهانهما في غسل الأواني وعمل البيت. وهي في كل ذلك متطلعة إلى الصعود إلى المشنقة فدى وتضحية نفس. بل لقد حاولت أن تستغني عن حذائها، فخرجت محتفية، وعادت محتفية. وسمعتها وهي تغسل قدميها، ورأيتها وهي تمشي على حذر متباطئة، فلم يخامرني الريب في أن قدميها قد تشققتا من المشي غير منتعلة. ولكن يا ألله! لقد كان وجهها مستهلًّا يشرق ضياء وسرورًا وابتسامات، كأنما قد سقطت على كنز، وانعكست أشعة الشمس على وجنتيها.

نعم، إنَّ ماريانا فتاة متينة ذات بأس شديد، ولكنني عندما أحاول أن أحدثها عن مشاعري وعواطفي لا ألبث أن أشعر بالعار يتولاني والخجل يسري في نفسي، كأنما أهتك حجاب شيء لم يكن من حقي أن أقترب منه. ثم تلك النظرة... تلك النظرة المرعبة المخلصة العتيدة التي كانت تقول لي. خذني ولكن تذكر!

«حسبي الآن. حسبي. أليس في العالم شيء أنبل من هذا وأبدع: أو بعبارة أخرى: ارتدِ أيها الإنسان المتململ المتسخط بسترتك القذرة الملطخة بالأوحال، واذهب لتندس في غمار الشعب أواه. نعم. ها

أنا ذاهب الساعة.

«لي الله. ما أشد كراهيتي لهذا المزاج الحساس القلق المتألم المتسخط الذي ورثته عن أبي النبيل الأرستقراطيّ. ولعمري أي حق كان له في إخراجي إلى هذا العالم بخصال لا تتفق والوسط الذي أعيش فيه! ليت شعري كيف يخلق الإنسان عصفورًا ويرميه في الماء ليعيش؟ وكيف يبرأ الله رجلًا خياليًّا في وسط القذارات والدناسات والأوحال؟ ما أعجب أمري! أكون ديموقراطيًّا أحب الشعب وأخلص إلى الشعب، ثم لا إني أشعر بالاشمئزاز إذ أشتم رائحة الفودكا! ولكن من الظلم وسوء الأدب اللوم على أبي وتأنبيه لأنه لم يكن المسؤول عن نشأتي، ولم يحملني هو الديموقراطي الذي أكون الآن.

«إنني متأسف يا سيلين إذ لم أكن أريد أن أكتب إليك رسالة كهذه حزينة في ألفاظها أليمة في لهجتها. ثم لا أختمها بكلمات فرحة مسلية منعشة. ولكني متى سأكتب إليك مرةً أخرى؟ وهل سيقدر لي أن أكتب يومًا؟ ولكن مهما حدث لي، فإنني مؤمن بأنك لن تنسى.

صديقك المخلص أ. ن.» وألقى نجدانوف القلم من يده، وصاح بنفسه يخاطبها قائلًا: «والآن أيها الكاتب يجب أن تحاول النوم ونسيان هذا السخف كله».

واضطجع فوق الفراش، ولكنه لم ينم إلا بعد مدة طويلة.

وفي اليوم التالي أيقظته ماريانا، وكانت مارة بحجرته في طريقها للقاء تاتيانا.

وما كاد يرتدي ثيابه حتى عادت وقد تهللت معارف وجهها سرورًا وابتهاجًا.

وكانت مضطربة وفرحة في آن واحد، وجعلت تقول: «ألا تعلم يا أليكسي أنهم يقولون إنها في ولاية منا قريبًا من هذه الناحية قد بدأت».

فقال نجدانوف مندهشًا: «ماذا تقولين؟ ما هذه التي بدأت؟ ومن الذي قال ذلك؟».

فأجابت: «بافيل قال ذلك. وهم يشيعون أن الفلاحين اليوم ثائرون وقد رفضوا دفع الضرائب وتجمهروا متظاهرين متمردين».

فعاد نجدانوف يسألها: «وهل سمعت أنت ذلك بأذنك؟».

فأجابت ماريانا: «لقد نبأتني به تاتيانا، ولكن ها هو ذا بافيل فأولى بك أن تسأله».

فلما سئل بافيل أمّن على قول ماريانا وأكده.

قال يهز لحيته ويغمز بعينه اليمنى: «حقًّا إن هناك بعض القلاقل، ولا بد من أن لمستر ماركليوف يدًا في ذلك، فقد مضت عليه أيام خمسة لم يعد فيها إلى داره».

فأسرع نجدانوف إلى قبعته فتناولها، ووقفت ماريانا تسأله: «إلى أين إذن؟».

قال دون أن يرفع بصره وهو مقطب عابس: «هناك ولا ريب. إنني ذاهب إلى تلك الولاية».

فقالت ماريانا: «إذَنْ دعني أذهب معك. إنك ستأخذني معك ولا ريب، تمهل إذَنْ حتى آخذ معطفي».

فأجاب نجدانوف قلقًا مضطربًا: «كلا. ليس هذا عمل المرأة».

فقالت ماريانا: «كلا. كلا. يحسن بك أن تذهب، وإلا ظنك ماركليوف جبانًا. ولكني ذاهبة معك».

فأجاب نجدانوف بعبوس ووجوم: «إنني لست جبانًا».

فقالت ماريانا: «لقد أردت أن أقول إنه سيظننا أنا وأنت من الجبناء، إنني آتية معك».

ومضت إلى حجرتها لتأتي بمعطفها، بينا ضحك بافيل في أعماق نفسه وانصرف ليعلن سولومين.

وقبل أن تخرج ماريانا من حجرتها، أقبل سولومين، فدخل حجرة نجدانوف، وكان الفتى موليًا وجهه نحو النافذة، وقد أسند جبهته إلى راحة يده ومرفقه إلى زجاج النافذة.

فلمس سولومين كتفه، فالتفت بسرعة، وكان منظره غريبًا موحشًا، فقد كان شاحب اللون، واجمًا متجهم الطلعة، وكان سولومين أيضًا قد تغير في الأيام الأخيرة فكان كذلك شاحب اللون مضطربًا متهيج الأعصاب.

قال: «لم يستطع ماركيلوف في النهاية أن يضبط غضبه ويكبح جماحه. وأخشى أن تكون النتيجة وخيمة له ولغيره».

فأجاب نجدانوف: «أريد أن أذهب لأشهد ماذا يحدث هناك».

وقالت ماريانا وقد ظهرت إذ ذاك لدى الباب: «وأنا أيضًا!» فالتفت سولومين إليها بعجلة وقال:

«إنني أنصح لكِ أن لا تذهبي يا ماريانا. فإنه لا يكون من ذهابك إلا أن تكشفي أمرنا بلا ضرورة. دعي نجدانوف يذهب إذا أراد. وخير له أن يعود سريعًا. ولكن ما باعث ذهابك؟».

فقالت ماريانا: «إنني لا أريد أن أفترق عنه لحظة عين».

فأجاب سولومين: «إنك ستكونين بذلك عقبة في طريقه».

فنظرت ماريانا إلى نجدانوف وكان واقفًا جامد الحركة متجهمًا مكفهر الوجه.

قالت تخاطب سولومين: «ولكن تصور أنه قد يقع له شيء من الخطر».

فابتسم سولومين وأجاب: «لا تخافي ولا تجزعي، فإنه يوم يكون ثمة خطر عليه، أسمح لك بالذهاب».

فنزعت ماريانا معطفها عن كتفيها في صمت وجلست.

وإذ ذاك دار سولومين بعينه نحو نجدانوف وقال: «يحسن بك يا أليكسي أن تتخذ الحذر. فإنهم مبالغون في تلك الإشاعات، وأرجو أن تعود سريعًا. أتعدني ذلك يا نجدانوف. أتعد؟».

فقال نجدانوف: «نعم».

فقال سولومين: «أحقًّا ما تعدني؟».

فأجاب نجدانوف: «أظن ذلك، ما دام كل إنسان هنا يطيعك ويذعن إليك، وأولهم ماريانا».

وانصرف نجدانوف دون تحية أو توديع.

وللحال وثب بافيل بغتة في الظلام، وتقدمه يهبط السلم مسرعًا.

وجلس سولومين بجانب ماريانا.

قال: «هل سمعتِ الكلمة الأخيرة التي قالها نجدانوف؟».

فأجابت ماريانا: «نعم. إنه متألم من أنني أستمع لكلماتك أكثر مما أستمع له. ولكن هذه هي الحقيقة. إنني أحبه، وأستمع إليك، فهو العزيز لدي، وأنت القريب مني!».

فأخذ سولومين يدها في يده، ولاطف راحتها برفق.

وقال أخيرًا: «هذه مهمة ثقيلة كريهة. فإنه إذا كان ماركيلوف قد زج بنفسه فيها، فقد ضاع وذهب أملنا في نجاته».

فارتعشت ماريانا وقالت: «أتقول ضاع!».

فأجاب سولومين: «نعم. فإنه ليس بالرجل المعتدل. إذ ليس يرتضي وسطًا، ولا يقبل هوادة، ولا يستطيع التكتم، وإن كان ذلك لمصلحة غيره من الناس».

وعادت ماريانا تتمتم قائلة والدموع تتحدر من عينيها: «ضاع!... رباه يا عزيزي سولومين إنني محزونة من أجله، ولكن ما الذي يحملك على الظن بأنه لن ينجح في مهمته؟ لمَ تظن أنه سيقبض عليه؟».

فأجاب سولومين: «ذلك لأن البادئين بكل نهضة والطلائع يهلكون ويتحطمون، وإن كانوا الفائزين الموفقين. وفي خطب عظيم كالذي نحن نريد أن نزج بأنفسنا فيه لن يهلك الأوائل وحدهم، بل الذين بعدهم، والذين يجيئون بعد هؤلاء وهكذا، حتى يتحقق الرجاء ويأتي الفوز المبين».

فأجابت ماريانا: «إذَنْ لن يقدر لنا أن نعيش لنراه».

فقال سولومين: «أتعنين ما في نفسك من أمنية؟ مطلقًا! نعم لن يقيض الله لنا أن نشهدها بأعين رؤوسنا. نعم. لن نراها بأعيننا هذه الباصرة، ولكن نستطيع أن ننظرها الآن بأعيننا الروحانية، ولكن ذلك أمر آخر».

قالت ماريانا: «وإذا كان الأمر كذلك فلماذا إذَنْ...؟».

ولم تستطع أن تتمم سؤالها.

فقال سولومين: «ماذا تقولين؟».

فعادت تقول متشجعة: «لماذا إذَنْ تسير في هذا الطريق؟».

فأجاب سولومين: «لأنه ليس هناك طريق غيرها، ولست أقصد بذلك إلا أن أقول إن مطالب روحي هي بعينها أماني ماركيلوف، ولكن طريقي إليها مختلفة عن سبيله التي اتخذها».

فتأوهت ماريانا وقالت برنة أسى:

«واهًا لك يا ماركيلوف».

فمد سولومين يده إليها وقال: «حسبك. لا تحزني عليه، فإننا لا نعرف عن أمره شيئًا إلى الآن. وسنعلم الساعة ما هنالك مما سيحمله بافيل من الأخبار إلينا.

فنحن خلقاء اليوم أن نكون شجعانًا مستبسلين أقوياء الأرواح. وللإنجليز مثل سائر يقول: «لا تقل أبدًا أموت!» وهو مثل طيب، بل هو أطيب وأنبل من مثلنا الروسي حيث يقول: «إذا طرق بابك مصاب، فافتح له الباب على مصراعيه!».

ونهض من مجلسه.

فعاجلته ماريانا قائلة: «والمكان الذي قلت لي عنه وأردت أن تجده لي، ماذا تم فيه؟».

وكانت العبرات لا تزال متلألئة على وجنتها، ولكن عينيها قد تولى عنهما الحزن.

فجلس سولومين ثانية وقال: «أتريدين أن تغادري هذا المكان بهذه العجلة؟».

فأجابت ماريانا: «كلا. كلا يا عزيزي. إنما أردت أن أجد عملًا نافعًا أؤديه».

فقال سولومين: «إنك نافعة هنا يا ماريانا. فلا تتركينا، بل انتظري هنا مدة أخرى».

وفي تلك اللحظة دخلت تاتيانا فابتدرها سولومين قائلًا: «ما وراءك من الأنباء؟».

فأجابت تاتيانا ضاحكة مشيرة بيديها: «لقد جاءت فتاة تسأل عن نجدانوف، فقلت لها إنه لا يوجد لدينا شخص بهذا الاسم، وإننا لا نعرف نجدانوف هذا، ولكنه إذ ذاك...».

قال سولومين: «ومن تكون الفتاة؟».

فأجابت تاتيانا: «إنها كتبت اسمها على هذه الورقة الصغيرة، وطلبت إليّ أن أجيء بالورقة هنا، وأدع لها سبيل الدخول قائلة إنه إذا لم يكن نجدانوف هنا، فإنها ستنتظر رجوعه».

وكان مكتوبًا على الورقة بأحرف كبيرة هذه الكلمة: «ماشورينا!».

فقال سولومين: «دعيها. وما أحسبك تتألمين منْ دخولها يا ماريانا. فإنها أيضًا من حزبنا».

فأجابت ماريانا: «لا بأس مطلقًا».

ولم تكد تمضي لحظات، حتى ظهرت ماشورينا لدى الباب، في ذلك الثوب بعينه الذي شهدناه به في مطلع هذه الرواية.

* * *

قالت وقد لمحت سولومين: «هل نجدانوف هنا؟».

وتقدمت إلى سولومين ومدت إليه يدها، وقالت وهي تنظر إلى ماريانا شذرًا: «كيف أنت يا سولومين؟».

فقال سولومين: «سيعود بعد قليل. ولكن نبئيني كيف عرفت ِأنه...».

فقاطعته ماشورينا قائلة: «لقد أخبرني بذلك ماركيلوف، وفضلًا عن ذلك فكثيرون في القرية يعرفون الآن أنه هنا».

قال سولومين: «أحقًّا؟».

فأجابت ماشورينا: «نعم، ويلوح لي أنه لا بد من أن بعض الناس قد نشر الخبر وأذاعه، وفوق ذلك فقد عُرِف نجدانوف واكتُشف أمره».

فتمتم سولومين قائلًا: «على الرغم تلك الثياب كلها التي تخفى بها».

ثم نظر إلى ماريانا وقال: «اسمحي لي أن أعرفكما بعضكما ببعض: مِسْ ماريانا. مس ماشورينا. ألا تجلسين!».

فأطرقت ماشورينا رأسها قليلًا، وجلست ثم قالت: «إن لدي خطابًا لنجدانوف ورسالة لك يا سولومين».

فقال هذا: «وأي رسالة وممن؟».

فقالت: «من رجل تعرفه أتم معرفة. والآن. هل كل شيء هنا على استعداد تام؟».

فأجاب سولومين: «كلا. لم يكن هنا أي أثر للاستعداد».

فحملقت ماشورينا بعينيها وقالت: «أحقًّا ما تقول؟».

فقال سولومين: «الحق كله».

فعادت ماشورينا تقول: «أهذا ما أقوله لهم؟».

فأجاب سولومين: «نعم».

ففكرت ماشورينا مليًّا وأطلعت من جيبها لفافة تبغ وقالت: «هل من عود من الكبريت؟».

فقدم سولومين إليها ما طلبت، فأشعلت اللفافة وقالت: «لقد كانوا يرتقبون شيئًا غير هذا. إنني لن أمكث هنا طويلًا، بل أريد فقط أن أرى نجدانوف، وأدفع إليه بالكتاب الذي جئت به».

فقال سولومين: «وإلى أين أنت ذاهبة؟».

فقالت ماشورينا: «إلى مكانٍ قصيٍّ بعيدٍ».

وكانت مزمعة السفر إلى جنيف، في بعثة من البعوث، ولكنها لم تكن تريد أن تقول لسولومين، ولا سيما أن فتاة غريبة كانت جالسة.

قال سولومين: «وأين أوستراديموف. هل هو معك؟».

فأجابت ماشورينا: «كلا. ولكنه منا قريب. وقد اشتبك مع الشرطة في الطريق، ولكنه يعرف كيف يتخلص، فلا حاجة إلى القلق عليه».

وللحال سمع من أقصى الحجرة صوت ينادي: «سولومين، من فضلك هلم إليّ» فقال سولومين: «من أنت وماذا تريد؟».

فعاد الصوت يقول بلهجة الإلحاح: «تعالَ من فضلك. فقد حضر بعض العمال وهم يحاولون أن يشرحوا شيئًا، وبافيل ليس هنا ليستمع لهم».

فاستأذن سولومين وخرج.

ورمقت ماشورينا ماريانا بنظراتها مليًّا، حتى انزعجت هذه وتململت في مجلسها.

قالت ماشورينا فجأة: «معذرة فإنني امرأة صريحة لا تعرف كيف تنمق الحديث، وتصطنع الكلمات فلا تغضبي مني ولا تتألمي، ولا حاجة بك إلى أن تقولي لي إذا لم تكوني تحبين أن تتكلمي. أأنت الفتاة التي هربت من دار آل سبياجين؟».

فأجابت ماريانا بشيء من الدهشة: «نعم».

فقالت ماشورينا: «مع نجدانوف» فأومأت ماريانا بالإيجاب.

فقالت إذ ذاك ماشورينا: «ألا هاتي إذَنْ يدك أصافحك واصفحي عني. لا بد من أن تكوني فتاة طيبة ما دام نجدانوف يحبك».

فشدت ماريانا يدها مصافحة وقالت: «أتعرفينه منذ زمن بعيد؟».

فأجابت ماشورينا: «نعم. عرفته في سان بطرسبرج. وهذا هو ما جعلني أتحدث إليك عنه، وقد أخبرني ماركيلوف أيضًا...».

فقاطعتها ماريانا قائلة: «آه. ماركيلوف. أرأيته منذ عهد بعيد أم قريب».

فقالت ماشورينا: «كلا. ليس من عهد بعيد. ولكنه قد ارتحل الآن».

فعادت ماريانا تسألها بقلق: «وإلى أين ذهب؟».

فقالت ماشورينا: «إلى حيث كُلِّف أن يذهب».

فتأوهت ماريانا وتنهدت وقالت: «أواه يا مس ماشورينا. إنني خائفة عليه».

فأجابت ماشورينا بجفاء وغلظة: «أول كل شيء أنا لست «مس» -آنسة- إذ ينبغي لك أن تطرحي جانبًا هذه الآداب. وثانيًا، إنك تقولين «خائفة»، وهذا ما يجب عليكِ أيضًا أن تطرحيه بعيدًا، فإذا لم تكوني تخافين على نفسكِ فأولى بكِ أن لا تشعري بالخوف على الآخرين، وقد يكون سهلًا على مثلي أن يتكلم على هذه الصورة، إنني فتاة دميمة وأنت فتاة حسناء، ولعل ذلك يشق على مثلك أنت».

فأطرقت ماريانا رأسها وأشاحت بوجهها، وعادت ماشورينا تسترسل في حديثها: «وقد نبأني ماركيلوف وكان يعرف أن لديّ رسالة لنجدانوف وقد قال إذ ذاك «لا تذهبي إلى المصنع، ولا تدفعي بالكتاب إليه، فإن ذلك قد يزعجهما، ويعكر صفاءهما. إنهما سعيدان فدعيهما لنفسيهما ولا تدخلي عليهما بما يغضب ويسيء.

ذلك ما قال ماركيلوف. ولست أود أن أتداخل في أمركما، ولكن ما حيلتي ولديّ كتاب له لا بد من إعطائه إياه».

فقالت ماريانا: «ادفعي بالكتاب إليه، وليكن من الشر ما يكون، ما أرق فؤاد ماركيلوف، أتظنين يا ماشورينا إنهم حاكمون عليه بالموت. أو النفي إلى سيبريا؟».

فأجابت ماشورينا: «وماذا لو فعلوا؟ ألستِ ترين الذين يذهبون إلى سيبريا يعودون منها؟ وهل في فقدان الحياة ما يؤلم ويؤسف له؟ ليست الحياة معسولة لكل الناس راضية موفقة. فهي لقوم حلوة عذبة، وهي لآخرين الصاب والعلقم، ولم تكن حياة ماركيلوف هنيئة راضية حتى يحرص عليها ويعض بنواجذه».

قالت ذلك ونظرت إلى ماريانا نظرة طويلة متفحصة.

ثم صاحت قائلة: «ما أجملك وما أنضر طلعتك. إنكِ لأشبه شيء بالطائر الحلو الريش،الناعم الخوافي، ما أظن نجدانوف قادمًا. سأعطيكِ إذَنْ رسالته، إذ لا فائدة من الانتظار طويلًا».

فقالت ماريانا: «تأكدي أنني سأدفع بالرسالة إليه عند قدومه».

فوضعت ماشورينا خدها في يدها وراحت تفكر طويلًا ثم عادت تقول: «ألا نبئيني واغفري لي هذا السؤال: «هل تحبينه؟».

فأجابت ماريانا: «نعم».

فهزت ماشورينا رأسها وقالت: «لا ضرورة لي أن أسأل إذا كان هو أيضًا يحبكِ، والآن خير لي أن أنصرف، فقد تأخرت كثيرًا، فإذا حضر فنبئيه إنني جئت لرؤيته واحملي إليه سلامي وتحيتي. قولي له إن ماشورينا كانت هنا. ولا تنسي اسمي: ماشورينا، ثم ادفعي إليه بهذا الكتاب. ولكن انتظري. أين تراني وضعته؟».

وقامت ماشورينا من المجلس ومضت تتلفت وتشيح بوجهها وتتظاهر بأنها تبحث عن الكتاب في جيوبها، وعلى غرة أخرجت قطعة من الورق فالتهمتها في فمها وراحت تقول: «عجبًا! أين الكتاب؟ يا للدهشة. ماذا فعلت بالكتاب؟ لقد ضاع مني. لا بد من أنه سقط مني وأنا لا أدري. رباه كيف العمل! وقد يقع في أيدي أحد الناس. يا للعجب. لقد وقع ما كان يريد ماركيلوف».

فهمست ماريانا لها تقول: «انظري في جيوبك مرةً أخرى، فلعلك مهتدية إليه».

فلوّحت ماشورينا بيديها وقالت: «لا فائدة ألبتة فقد أضعته».

فتقدمت ماريانا إذ ذاك نحوها وقالت: «والآن قبليني!».

فألقت ماشورينا ذراعيها حول ماريانا وضمتها إلى صدرها بأقوى مما تستطيع امرأة وقالت بصوت متهدج: «ما كنت لأرضى أن أفعل ذلك مع فتاة أخرى على كره من ضميري للمرة الأولى، ألا قولي لنجدانوف أن يشدد الحذر. وخذي أنت نفسك كذلك بالحيطة. إذ لا يلبث أن يحدث الخطر بكل من في هذا المكان، وخير لكما أن ترتحلا عنه قبل أن تأزف الآزفة. إلى الملتقى...».

وانصرفت مغلقة الباب بشدة وراءها، بينا وقفت ماريانا في وسط الحجرة مرتبكة حَيْرى في أشد الدهشة.

وقالت لنفسها أخيرًا: «ما معنى كل هذا. إن هذه المرأة تحبه أكثر مما أحبه؟ فماذا كانت تعني بكلماتها تلك؟ ولماذا اختفى سولومين فجاءة ولماذا لم يعد؟».

وجعلت تتمشى في الحجرة، وقد تولاها خوف غريب ممتزج بالألم والغضب والحيرة، ومضت تسائل نفسها لماذا لم تذهب مع نجدانوف؟ وذكرت ما قاله سولومين ليغريها بترك الذهاب، وإذ ذاك جعلت تسائل نفسها أين ذهب سولومين، وماذا يجري إذ ذاك في المصنع والقرية. وعاودتها ذكرى ما كان بينها وبين ماشورينا، ثم ماركيلوف والخطر الذي يحدق به، والكلمات التي سمعتها ماشورينا من فمه عن سعادتهما وهنائهما.

وقد شعرت بجرح يدمي كبرياءها، وألم لعزة نفسها، إذ رأت الجميع قد تركوها وتخلوا عنها، وقد دعتها تلك الفتاة المزهوة المتكبرة طائرًا حلو الريش، فلماذا لم تدْعُها «عروسة خشبية ليس غير»، ولماذا لم يذهب نجدانوف وحده، بل ذهب معه بافيل كأنما كان بحاجة إلى رجل يرعاه ويحرسه.

تلك كانت الخواطر التي ازدحمت في ذهن الفتاة وتعاقبت متطاردة متلاحقة، ومضت فجلست أمام النافذة جامدة الحركة أشبه شيء برجل صامت رهيب، متأهب للوثوب في أي لحظة.

ولم تشأ أن تذهب إلى تاتيانا لتشتغل في مطالب البيت، بل أحبت أن تجلس وحيدة في عزلة ساكنة، ولكنها كانت تنتظر في ألم وغضب.

وفي تلك اللحظة خطر لها هذا الخاطر «هل أنا غَيْرَي»، ولكنها تذكرت عند ذلك وجه ماشورينا، فهزت كتفيها، وطردت هذه الفكرة من ذهنها.

ولم تلبث أن سمعت وقع خطوات شخصين فوق السلم يدنوان نحوها، فاستقر بصرها على الباب، وكانت مواقع الخطى تدنو رويدًا رويدًا، وللحال فتح الباب فإذا بها ترى نجدانوف محمولًا على ذراع بافيل وهو شاحب اللون في مثل صفرة الموتى، ولا قبعة فوق رأسه وشعره المضطرب قد تدلّى على جبينه والعرق يتصبب منه، وهو ينظر نظرات مذهولة فارغة جوفاء أمامه، وجعل بافيل

يتقدم به في الحجرة مسندًا بدنه، إذ كانت ساقاه ضعيفتين تجرران فوق أديم الحجرة، ومشى به بافيل حتى أجلسه فوق الوسادة...

فوثبت ماريانا من مجلسها وهي صارخة: «ما هذا؟ ما الذي ألمّ به؟ أمريض هو؟».

فلما انتهى بافيل من إجلاس نجدانوف فوق الوسادة، ابتسم وأجاب من فوق كتفه: «لا تنزعجي. سيفيق بعد مدة قليلة. لم يحدث له ذلك إلا لأنه لم يعتده ولم يألفه من قبل».

فأعادت ماريانا عليه السؤال قائلة: «ماذا به؟».

فقال بافيل: «إنه «مبسوط شوية»، وقد شرب على معدة خالية. هذا كل شيء».

فانحنت ماريانا فوق نجدانوف لترى ما به، وكان رأسه قد سقط على صدره وهو مغلق العينين، وكانت تنبعث منه رائحة خمرة «الفودكا» وكان نشوان منزوفًا من أثر الشراب.

فخرجت هذه اللفظة من شفتيها وهي لا تعي: «أليكسي!».

فقال متلعثمًا: «ماريانا لقد جعلت دائمًا تتكلمين عن الاخ.... ش... يشا... ن.... فها أنا ذا.... مخ... شوشن.. على آخر درجة؛ لأن العامة كما تعلمين سكيرون ثملون. ولهذا أنا... أيضًا.. الآن... مثلهم».

وأمسك عن الكلام، ثم تمتم بكلمات غير واضحة، وأغمض عينيه وسقط في سبات عميق.

فمدده بافيل فوق المتكأ بكل رفق، وهو يعيد القول: «لا تنزعجي يا ماريانا؛ فسينام ساعة أو ساعتين، ثم يثوب إلى رشده كما كان».

فأرادت ماريانا أن تسأله عن تفاصيل القصة، وكيف وقع له ذلك، ولكنها أدركت أن أسئلتها ستبقي بافيل في الحجرة طويلًا، وكانت تريد أن تخلو إلى نفسها؛ لأنها لم تكن تحب أن يراه بافيل على تلك الحال أمامها، فمشت مبتعدة إلى النافذة بينا جعل بافيل، وقد أدرك غرضها كل الإدراك بوحي ذكاء غريب، يغطي ساقي نجدانوف بأطراف سترته، ويضع وسادة تحت رأسه، ثم عاد يقول: «لا شيء. لا ضير عليه».

ومضى منصرفًا على أطراف أصابعه.

فتلفتت ماريانا حولها، وكان رأس نجدانوف مدفونًا في الوسادة، وبدا على وجهه الشاحب اكفهرار شديد، أشبه بذلك الاكفهرار الذي يبدو على وجه رجل مريض في أشد حالات المرض.

فجعلت تقول لنفسها في حيرة: «إنني لأعجب كيف حدث ذلك!».

* * *

وإليك ما حدث:

لم يكد يجلس نجدانوف بجانب بافيل في العجلة، حتى تولاه اضطراب وهياج نفساني شديد.

وما كادت العجلة تتجاوز بهما فناء المصنع وتسير صعدًا في طريقها إلى مدينة ت...، حتى انطلق نجدانوف يصرخ في وجوه الفلاحين السابلة الذين كانوا يمرون به وهو في العجلة، ويصيح بكلمات غريبة مجنونة صاخبة.

جعل يقول لهم: «لم هذا النوم أيها القوم؟ ألا أفيقوا. انهضوا من سباتكم. لقد أزفت الآزفة. لتسقط الضرائب. ليسقط أصحاب الأرض. لتسقط الظلمة القساة الغلاظ الأكباد!».

فجعل بعض القرويين يحملقون فيه الأبصار مندهشين مذهولين، ومضى آخرون غير مكترثين ولا محتفلين بصياحه؛ إذ ظنوا أن ذلك فعل الخمر، وأنه منزوف اللب من نشوة الصهباء، حتى لقد مضى أحدهم إلى داره وهو يقول إنه التقى في طريقه برجل من الفرنسيين كان يهمهم ويصرخ بألفاظ لا يفهمها ولا يفقه لها معنى.

وكان نجدانوف يدرك أنه إنما كان يأتي أمرًا نكرًا، وأن عمله ذاك الحماقة التامة، ولكنه لم يلبث أن اشتد اهتياجه، وارتفعت حميته، فلم يعد يفرق بين العقل والطيش وبين الحكمة والحماقة.

وحاول بافيل أن يهدئ من روعه ويقنعه بأن هذا من العبث والسخف، وأنهم قد أصبحوا على قاب قوسين من مدينة كبيرة، ولكن نجدانوف لم يكن ليهدأ أو يسكن جأشه، بينا كان وجهه قد بدت عليه أمارات اليأس والحزن والعذاب الأليم الدفين في صدره.

وكان الجواد الذي يجر العجلة سريعًا، فأطلق للريح ساقيه، كأنما قد أدرك أنه يحمل قومًا ذوي خطر ومكانة عظمة إلى ساحة القتال، وملحمة العراك والنضال. وقبل أن يبلغا البلدة، لمح نجدانوف جمعًا من الفلاحين وقوفًا في الطريق بجانب مخزن للغلال، فوثب من العجلة واندفع يعدو صوبهم، وراح يصيح في وجوههم، ملوحًا بقبضة يده وهو يصرخ قائلًا: «إلى الحرية تقدموا. انطلقوا سراعًا»، وجعل أولئك الفلاحون يسمعون إليه بكليتهم، ولكن كان يلوح على وجوههم أنهم لم يفقهوا لفظة واحدة من تلك الزوبعة الهوجاء الطائشة التي كانت تقذفهم ألفاظًا حارة، وكلمات ثائرة ملتهبة متقدة؛ لأنه ما كاد يوليهم ظهره، حتى تبادلوا النظرات في صمت وقال أحدهم، وهو أذكاهم: «لا بد من أن يكون هذا الرجل ضابطًا. نحن نعرف ماذا يريد منا. لا بد من أن ندفع له ثمن ما يلتهم من اللحم والشراب».

وعاد نجدانوف يقول وقد جلس بجانب بافيل فوق العجلة: «رباه. ما هذا الجنون مني، ولكن لا يستطيع أحد منا أن يتقرب إلى الشعب، ويؤثر في أذهانهم. ولكن من يدري لعل هذه هي الطريقة المثلى، هلم بنا يا بافيل. هل يؤلمك قلبك؟ ليكن. هيا. هيا!».

ووجدا نفسيهما في قلب البلدة، وقد وقف في بهرة الطريق جمع آخر، على مقربة من باب إحدى الحانات، فوثب نجدانوف إذ ذاك من مجلسه، غير مكترث بكلمات بافيل ونصيحته وتشبثه بذراعه يمنعه النزول، ومضى يقول مخاطبًا ذلك الجمع: «أيها الإخوان»، فأفسح القوم له طريقًا والمطلق وهو يعظ مرةً أخرى، دون أن ينظر يمنة ولا يسرة، وهو في أشد حالات الغضب، حتى لقد تحيرت العبرات فوق خديه، ولكن كانت تجربته هذه غير تجربته الأولى، إذ تقدم إليه من بين الجمع رجل ضخم الجثة ذو وجه حليق شرير الملامح وهو في رداء علاه الشحم والدهن وقبعة من جلد الماعز ودق كتفه بيده قائلًا: «عظيم أيها الفتى اللطيف.

ولكن انتظر قليلًا. إن الأعمال الطيبة لا بد لها من جزاء حسن. هلم بنا ندخل فذلك مكان يحسن فيه الحديث».

قال ذلك واجتذب نجدانوف إلى الحان، وتدفق الباقون وراءهما.

وما كان يستقر ذلك الرجل البدين في الحان حتى صاح بصاحبه: «يا غلام. هات بقرشين، من الصنف الذي أشرب منه. فإنني أريد أن أكرم صديقًا لي، ولا يعرف إلا الشيطان من هو ولا أسرته ولا من أي البلاد قدم».

والتفت صوب نجدانوف وناوله قدحًا مفعمًا بالشراب وقال: «اشرب يا صاح! اشرب إن كنت حقًّا تشعر من نحونا بعاطفة...».

وللحال صاح الجمع: «اشرب».

فأمسك نجدانوف بالقدح، وكأنما كان في حمى مخيفة وصاح بالجمع: «أشرب نخبكم يا أطفالي» ثم اجترع القدح مرة واحدة.

له الله! لقد اشتف تلك الكأس بتلك البسالة المستيئسة التي يقذف الجندي بها نفسه لامتلاك مدفع من مدافع العدو، أو اقتحام خط من الرماح والسنان العوالي.

ولكن ليت شعري ماذا حدث له؟

لقد بدأ يشعر بشيء قد هدم قفاره، ورضّ ساقيه، وألهب حلقه، وأحرق حنجرته، وأرسل نار السعير في صدره ومعدته، وبعث الدموع تتساقط من عينيه.

وتولته إذا ذاك هزة اشمئزاز عمت جميع أجزاء بدنه وراح يصيح بأعلى صوته؛ لكي يطفئ النار التي اضطرمت في رأسه، ولم تلبث قاعة الحان المظلمة أن أصبحت حارة قد تكاثفت في سقفها الأبخرة الخانقة، وخُيِّل إليه أنها قد غصت بالناس واكتظت بعديد القوم، فأنشأ يتكلم ولا يقف عن الكلام لحظة، صائحًا في غضب، صارخًا في حدة واحتدام.. مصافحًا أياديَ غليظة، وأكفًّا خشنة مشققة، مقبّلًا لحى مدببة قارصة لاذعة جعدة الشعر، ولثمه كذلك ذلك الشخص البدين واحتضنه بكل قواه حتى كاد يكسر ضلعًا من أضلاعه، وانقلب ذلك الغليظ البدين مخيفًا موحشًا مفترسًا يصيح فيمن حوله صارخًا: «والله إني لأدق عنق من يجترئ على إهانة أخينا هذا أو إغضابه، بل أعمل منه «كفتة» ولحمًا دقيقًا. نعم سأبكيه وأوذيه فما ذلك عليّ بعسير، وقد كنت في ماضي حياتي جزارًا ماهرًا».

وهنا صاح أحدهم مرةً أخرى يقول: «اشرب»، فاجترع نجدانوف قدحًا آخر من ذلك السم القذر.

ولكن تلك المرة كانت مريعة، فقد أحس مسامير تقطع أحشاءه ومديًا تمزق أمعاءه، وكان رأسه كأنما في لجة صخابة ثائرة، واستدارت أمام عينيه دوائر زرقاء، وعادت الضوضاء أخرى تطرق سمعه. يا للهول! وقدحًا ثالثًا...

فهل تظن أنه شرب ذلك القدح أيضًا؟ شعر بأيد خشنة تمسك به وتتدافعه وسمع أصواتًا تصيح به: «هلم الآن تكلم. انطلق في حديثك فقد تكلم قبلك أول من أمس رجل غريب بمثل ما تكلمت. هيا أسمعنا كلامك».

ولكن الأرض كانت تمور تحت قدم نجدانوف، وطرق صوته في أذنه غريبًا منكرًا غير مألوف، كأنما كان قادمًا من مكان بعيد.

أكان ذلك عارض الموت، أم ماذا؟

ولم يلبث فجأة أن أحس هبّات النسيم على وجهه، وقد انقطعت الأصوات والضوضاء، وأبخرة الكحول ورائحة القطران، ورأى نفسه فيما يري النائم جالسًا بجانب بافيل في العجلة، وهو يصرخ أولًا ويصيح: «إلى أين أنت ذاهب. قف. لم يكن هناك وقت لأقول لهم شيئًا.. يجب أن أشرح لهم كل شيء»، ثم أردف على تلك الكلمات قوله: «وما هي أفكاركم أنتم في موضوعنا هذا أيها المفاليك الأحقار السوقة الملاعين؟».

فأجاب بافيل: «حقًّا لقد كان الخير كله لو أنه لم يكن لدينا نبلاء وسروات وأهل شرف ومحتد، وكانت الأرض كلها لنا، ولكن لم نتلق بعد أمرًا من الحكومة بذلك!».

وأدار وجه الجواد برفق، وألهب ظهره بسوطه، فانطلقت العجلة بهما مسرعة عائدة إلى المصنع؟

وجلس نجدانوف مهمومًا يهز رأسه مع هزات العجلة، بينا كانت الريح تتلاطف فوق صفحة وجهه، وترد عن خاطره أفكارًا سوداء أليمة محزنة.

وكان مغضبًا من أنه لم يُسمح له بأن يقول لذلك الجمع كل ما كان في صدره.

وخطر له وهو في تلك الحالة طيف ماريانا، فتولاه إذ ذاك الاشمئزاز من نفسه والمعرة من عمله، ثم تلا ذلك النوم. نعم، ضربت تلك الخمرة على أذنيه فهبط في نعاس هادئ عميق، لا حركة فيه ولا نأمة.

وقد نبأ بافيل سولومين بكل هذه القصة بعد ذلك، ولم يكتم عنه أنه لم يحاول منع نجدانوف من الشراب، وإلا لو كان فعل لما استطاع أن يخرجه من تلك الورطة، ولحال أولئك القرويون الغلاظ بينه وبين أخذه.

قال بافيل يحدث سولومين ويشرح له: «فلما رأيت أنه قد أخذ يضعف وتفعل فيه الخمرة فعلها، سألتهم أن يتركوه حتى أذهب به، فوافقوني بشرط وهو أن أعطيهم خمسة قروش ففعلت».

فقال سولومين: «لقد فعلت ما يجب عليك».

* * *

ونام نجدانوف، بينا جلست ماريانا تنظر من النافذة. ومن عجب أن تلك الخواطر الغاضبة الشريرة السيئة التي كانت تعذب ذهنها قبل وصول نجدانوف، لم تلبث أن اختفت من خاطرها دفعة واحدة. فلم يبق لها من أثر. ولم يبدُ نجدانوف في عينيها مثيرًا للاشمئزاز باعثًا على الاستنكاف منه، ولكنها كانت محزونة لأجله، لأنها كانت تعلم أنه لم يكن بالرجل الملح على الشراب، المستسلم لشهوات نفسه. وكانت حَيْرَى لا تدري ماذا تقول له إذ يفيق من سكرته، وأجمعت نيتها على أن تخاطبه بألفاظ رقيقة مفعمة بالحب والود والعطف، حتى لا تثير وخز ضميره، وجعلت تحدث نفسها قائلة: «ينبغي لي أن أحاول وأجتهد بالإغراء، حتى أبعثه على أن يقص عليّ بنفسه جميع ما وقع له».

ولم تكن في جزع أو قلق، وإنما كانت في حزن أليم. ولكنها عزت نفسها وتشجعت، وطردت جميع تلك الخواطر، ونهضت من مجلسها ومشت إلى المتكأ الذي كان نجدانوف نائمًا فوقه، وتناولت منديلها من جيبها، وراحت تمسح جبينه الشاحب، وتصلح نظام شعره المضطرب.

وجعلت تراعيه وتشفق عليه وترثي لحاله، كما تفعل الأم بولدها المريض، ولكنها كانت تتألم كلما ألقت نظرها على وجهه، ولذلك انطلقت إلى حجرتها تاركة باب حجرته غير موصد.

ولم تحاول أن تعمل عملًا ما، بل جلست تفكر، وما لبثت الخواطر أن ازدحمت في ذهنها، وتساءلت ماذا كان من أمر سولومين؟ وماذا وقع له؟ وماذا أخره عن الحضور.

وإذ ذاك سمعت صرير الباب، فنظرت ناحيته، وإذ ذاك ألفت تاتيانا داخلة عليها.

فابتدرتها ماريانا بشيء من الغضب قائلة:

«ماذا تريدين؟».

فأجابت تاتيانا بصوت منخفض: «لا تنزعجي يا عزيزتي ماريانا، ولا تغضبي، فإن أمثال هذه الحوادث تقع في كل يوم. ثم حمدًا الله إذ...».

فقاطعتها ماريانا قائلة: «لست منزعجة ولا غاضبة. فإن أليكسي منحرف المزاج فقط، وليس ثمة من خطر أو مرض شديد».

فأجابت تاتيانا: «حمدًا لله. لقد عجبت كيف تأخرت عن الحضور إليّ، وخشيت أن يكون قد وقع أمر، ولم أشأ أن آتي إليكِ؛ إذ رأيت أنه خير لي أن لا أتدخل، ولكن حضر شخص غريب، فتى قزم أعرج لا يعلم إلا الله ما شأنه وما أمره. وهو يريد أن يرى أليكسي، ولا أدري ما السبب، وقد حضرت كما تعلمين تلك الفتاة تسأل عنه في الصباح، وها هو ذا الأعرج يسأل عنه الآن. وقد قال لي.. إذا لم يكن أليكسي في حجرته، فإنني أريد أن أرى فاسيلي سولومين، ولن أبرح المكان حتى أراه، فإنني قادم في أمر عاجل لا يمكن تأخيره.. وقد أردت أن أتخلص من إلحاحه، كما فعلنا مع تلك المرأة، فأخبرته بأن فاسيلي غائب عن المصنع، ولكنه أصر على رؤيته، وإن اضطر إلى انتظاره حتى منتصف الليل، وهو الآن يتمشى في فناء المكان. ألا تعالي وانظري إليه من النافذة الصغير التي في الردهة فلعلكِ تعرفينه من وجهه».

فمشت ماريانا في أثرها منطلقة في الردهة، ومرت في طريقها بحجرة نجدانوف، فلمحت ذلك العبوس الذي بدا لها أولًا في عارضه، فتقدمت إليه، وأطلعت منديلها، ومسحت له جبينه النديّ.

ولمحت من النافذة ذلك الزائر، ولم تكن تعرفه من قبل، ولكن في تلك اللحظة ظهر سولومين يدنو من ركن هناك في المصنع».

فوثب ذلك القزم إليه، ومد إليه يده بالتحية، فشدها سولومين مصافحًا، فتبينت ماريانا من ذلك أنهما يعرفان بعضهما بعضًا.

واختفى الرجلان، ولكنها لم تلبث أن سمعت مواقع خطاهما فوق السلم، فعلمت أنهما آتيان لرؤيتهما.

فولت هاربة إلى حجرتها، ووقفت في بهرتها جامدة الحركة لا تستطيع التنفس.

لقد تولاها خوف شديد، ولكن ممّ ذلك الخوف؟

لم تكن تعرف باعث خوفها.

وبدا رأس سولومين من بين شقي الباب.

قال: «ماريانا، هل تأذنين لي بالدخول؟ لقد جئت بفتى لا بد لك من رؤيته».

فهزت ماريانا رأسها بالإيجاب، فدخل سولومين وفي أثره.. باكلين!

* * *

وانحني باكلين كثيرًا، وكأنما أراد أن يخفي عنها قبح وجهه، وقال: «إنني صديق لزوجك ولسولومين، وقد علمت أن أليكسي نائم ومريض. ولسوء الحظ قد جئت أحمل أنباء سيئة، وقد شرحت بعضها لسولومين وأخشى أنه لا غنى عن اتخاذ تدابير فعالة في الحال».

وتهدج صوت باكلين، وتقطعت كلماته أشبه برجل قد اشتد به الظمأ. وفي الحق لقد كانت الأنباء التي جاء بها لا تسر ولا تفرح، فقد قبض بعض القرويين على ماركيلوف واستاقوه إلى البلدة، وقد نمّ ذلك الكاتب الأبله الأحمق عن جولوشكن وفضح أمره، فألقى القبض على التاجر، ولم يكن من جولوشكن إلا أنه مضى يفضح الجميع، ويكشف أنباء القوم وما يعرفه جميعًا.

ولم يكن يخامر باكلين شيء من الريب في أن التاجر قد فضح اسم نجدانوف، وأن الشرطة قد يهاجمون المصنع في أي لحظة، وكان سولومين كذلك في خطر.

وأردف باكلين يقول: «أما عن نفسي؛ فأنني في دهشة من أنني لا أزال أطوف في الضواحي حرًّا طليقًا إلى هذه الساعة. ولو أنني في الحق لم أشتغل اشتغالًا جديًّا بشؤون السياسة، ولم أسهم في مهمة من مهماتها، ومؤامرة من مؤامراتها. ولقد انتهزت سهو الشرطة عني وتغافلهم لكي أحضر لإنذاركم وتحذيركم وللتفكير في خير الوسائل لاجتناب الخطر، والتفادي من شر الشرطة..».

وأصغت ماريانا إلى حديثه، ولم يظهر عليها دليل من أدلة الخوف أو الفزع، بل كانت هادئة ساكنة، ولكنها تبينت أنه لا بد من عمل شيء للحيطة والحذر. فألقت نظرها على وجه سولومين...

وكان هو أيضًا رابط الجأش، ولكن اختفت تلك الابتسامة الدائمة على شفتيه.

فأدرك سولومين معنى نظرات ماريانا، فأنشأ يقول: «إن هذه محرجة من المحرجات. وما أظن نجدانوف يضيره أن يختبئ ردحًا من الزمن. ولكن على ذكر ذلك يا باكلين، كيف أتيح لك أن تعرف أن نجدانوف يقيم هنا؟».

فلوح باكلين بيده، وأجاب: «علمت ذلك من أحد الناس إذ رآه يخطب في جوار هذه الضاحية، فتبعه دون مقصد سيئ أو مأرب شرير؛ لأنه يعطف على القضية الوطنية أيضًا، ويشارك المتحمسين لها في عاطفتهم».

وهنا التفت إلى ماريانا وقال: «معذرة لسؤالي. أحقًّا أن نجدانوف كان مهملًا غير محاذر ولا محتاط لنفسه؟».

فقال سولومين: «لا فائدة الآن من لومه؛ فقد وقع ما وقع. والأمر الذي يؤسف له أننا لا نستطيع أن نتناقش معه الآن في هذه الأمور، ولكنه سيفيق غدًا من غشيته. وإني لأعلم أن الشرطة لا ينفذون الأمور بالسرعة التي تتوهمها، فإذا كان نجدانوف سيرتحل عن هذا المكان للاختباء عن أنظار الشرطة، فلا مفر من ذهابك معه يا ماريانا».

فقالت بعزم وإصرار وقد تهدج صوتها: «نعم. بلا ريب».

فقال سولومين: «نعم. يجب علينا أن نفكر في الأمر مليًّا».

فانبرى باكلين يقول: «أتسمحان لي بأن أدلي إليكما باقتراح، فقد خطر لي وأنا قادم إلى المصنع».

فقال سولومين: «وما ذلك الاقتراح الذي اهتديت إليه؟».

فأجاب باكلين: «ادفع إليّ بجياد ومركبة لكي أسرع إلى دار سبياجين».

فصاحت ماريانا: «أتقول سبياجين. ولماذا؟».

فأجاب باكلين: «سترين!».

فقالت ماريانا: «وهل تعرفه؟».

فأجاب باكلين: «لا أعرفه ألبتة. ألا فكرا مليًّا في اقتراحي هذا. فإنه يلوح لي فكرة بديعة؛ فإن ماركيلوف شقيق زوجته، فهل تظنان هذا السيد غير محاول نجاة صهره؟ وأما عن نجدانوف فإذا نحن فرضنا أن مستر سبياجين مغضب أشد الغضب منه، فإنه مع ذلك قد أصبح صهرًا له بالزواج بك...».

فقاطعته ماريانا قائلة: «إنني لم أتزوج بعد».

فأجفل باكلين، وبهت ثم أجاب: «ماذا أسمع؟» ألم تنتهيا من ذلك طول هذه المدة. ولكن لا بأس، فإن الإنسان يستطيع أن يكذب كذبة صغيرة ويدعي أن الزواج قد تم، فإنكما ستتزوجان عما قليل، ولا مناص من ذلك، وينبغي أن تتذكري أن سبياجين إلى اليوم لم يحاول إرهاقك أو البحث عنك أو مطاردتك في كل مكان تدفعين إليه. وهذا ما يدل على أنه لا يزال رجلًا كريمًا من بعض نواحيه، ولكن يلوح أن هذا الوصف لم يرق في عينيك. إذَنْ فلأقل، إن ذلك كان منه عزة وزهوًا وشممًا. فلماذا لا نستفيد بتلك العزة، وننتفع بهذا الزهو الأشيم، ألا فكري في ذلك وتدبري!».

فرفعت ماريانا رأسها ولعبت بأناملها في شعرها.

وأجابت: «انتفع يا مستر باكلين بأي شيء، واستفد في سبيل نجاة ماركيلوف أو لمصلحتك أنت، ولكني أنا ونجدانوف لا نريد رعاية سبياجين ولا نروم حمايته، فإننا لم نترك داره لنعود إليها، فندق الباب متسولين متكففين. إن زهو سبياجين وكبرياء زوجته لا شأن لهما ألبتة بنا».

فأجاب باكلين: «إن هذه العواطف الكريمة خليقة بالمديح حَرِيَّةٌ بالثناء المستطاب. ولكن إذا كنت ترين أن لا أفعل، فإنني مذعان مطواع لما تقولين. وسأسعى لدى سبياجين في سبيل ماركيلوف وحده. ماركيلوفنا الطيب الكريم، ولكن ينبغي أن أذكرك أن ماركيلوف ليس بذي قربة لسبياجين من دمه وأهل أسرته، ولكن بينك أنت وبينه لحمة القرابة والعشيرة».

فقالت ماريانا متذمرة: «مستر باكلين، أرجوك...».

فأجاب باكلين: «آسف جدًّا لإغضابك. ولكني لا أستطيع أن أمسك لساني عن القول بأنني آسف لخيبة هذا المقترح، فإن سبياجين رجل ذو نفوذ».

فقال سولومين: «وأنت. أليست في فؤادك مخاوف عن نفسك؟».

فاشرأب باكلين وقال بزهو وكبرياء: «هناك لحظات لا ينبغي للإنسان أن يفكر في نفسه».

وفي الحق لقد كان يفكر في نجاته طول المدة. له الله من فتى مسكين. لقد كان يريد أن يفر ويعدو عدو الظليم، ويهرب مطلقًا ساقيه للريح، وكان يطمع في أن يقول سبياجين إذا أدى إليه هذه الخدمة كلمة خير ولفظة طيبة تنفعه ويمنع عنه الأذى وشر الشرطة؛ لأنه كان أيضًا متورطًا في الورطة عينها. فقد تكلم وتذمر وجلس إلى الثوريين وعاشرهم واختلط بهم.

فقال سولومين أخيرًا: «لا أظن مقترحك سيئًا، وإن لم يكن ثمة أمل في نجاحه، وعلى كل حال لا ضير من المحاولة والسعي، فلعله سينجح ويأتي بالفائدة المبتغاة».

فأجاب باكلين: «بلا ريب. ولنفرض أنهم طردوني وألقوا بي خارج الدار من عنقي. فماذا يكون العمل؟».

فقال سولومين: «هذا لا يهم!».

فتمتم باكلين في نفسه «أشكرك!».

وعاد سولومين يقول: «الساعة الآن الخامسة. فلا ينبغي التباطؤ والتهاون. ستشد الجياد إلى المركبة في الحال. بافيل».

ولكن في تلك اللحظة بدا نجدانوف لدى الباب، فمشى قليلًا، ولكنه ترنح، وعاد فتماسك، وفتح فمه ودار بعينه الزجاجية وهو لا يعي شيئًا مما حوله.

وكان باكلين أول من ناداه.

قال: «أليكسي، ألا تعرفني؟».

فحملق نجدانوف فيه البصر، وقال بعد جهد طويل: «باكلين؟».

فأجاب هذا: «نعم. أنا باكلين. أمريض أنت؟».

فقال نجدانوف متلعثمًا: «كلا. نعم. مريض. ولكن لماذا أنتم هنا؟».

فأجاب باكلين «لماذا أنا هنا؟».

ولكنه لم يتم قوله، إذ رأى ماريانا تشير بيديها، فالتفت نحوها، وإذ ذاك رآها تشير إليه إشارات فعاد يقول: «آه. نعم. إني جئت إلى هذا المكان في أمر عاجل هام، وينبغي لي العودة في الحال، وسينبئك سولومين بباعث مجيئي وكذلك ماريانا، وهما موافقان على ما انتويت عمله، فإن هذا الأمر متعلق بنا جميعًا». ولكنه لاحظ أن ماريانا كانت تشير إليه، فأصلح ما قال إذا انطلق ثانية يقول: «بل الأمر يتعلق بماركيلوف، صديقنا ماركيلوف على أنه ينبغي لي أن انصرف؛ فإن كل دقيقة غالية لا تقدر بثمن. إلى الملتقى يا عزيزي أليكسي فسنرى بعضنا بعضًا في وقت آخر، وأنت يا عزيزي سولومين، هلا جئت معي لترى هل أعدت المركبة؟».

فقال سولومين: «ليكن ذلك. لقد كنت أريد أن أقول لكِ يا ماريانا أن تعتصمي بالصبر والثبات. ولكن لا حاجة بي إلى ذلك؛ فإنك رابطة الجأش متينة الروح».

فصاح باكلين: «نعم. نعم. إنك والله لأشبه بعذراء من عذارى الرومان في عصر كاتو. يجب أن ننصرف. هلم بنا يا عزيزي سولومين».

فابتسم هذا ابتسامة ضعيفة وقال:

«لا تزال لدينا فسحة من الوقت».

فوقف نجدانوف في ناحية، ليفسح لهما الطريق للخروج.

فلما انصرفا من الحجرة مشى خطوتين أو ثلاثًا، وراح يجلس في مقعد إزاء ماريانا.

فأنشأت الفتاة تقول: «أليكسي، لقد انحسر القناع، وانكشف كل شيء. لقد قُبض على ماركيلوف، ولم يكن القابضون عليه غير الفلاحين أنفسهم الذين كان يستثير حميتهم، ويلهب فيهم روح حب الوطن. وكذلك زج في السجن معه ذلك التاجر الذي تعرفه، وأخشى أن تهجم علينا الشرطة في المصنع بين آونة وأخرى.

ولذلك مضى باكلين يريد مقابلة سبياجين».

فقال نجدانوف في همس وصوت ضعيف خافت: «ولماذا ذهب إليه؟».

وفي تلك الهنيهة كان وجهه قد استعاد رزانته ومظهره الطبيعي، وقد فارقته غشية الشراب في الحال.

فأجابت ماريانا: «لكي يجتهد في حثه على التداخل في الأمر».

فتحفز نجدانوف في مجلسه وقال: «هل للتداخل من أجلنا؟».

فقالت ماريانا: «كلا. بل لإنقاذ ماركيلوف. وكان يريد كذلك أن يتداخل لأجلنا نحن ولكني لما سمح له أن يفعل. فهل تراني أحسنت صنعًا يا أليكسي بمنعه؟».

فأجاب نجدانوف دون أن ينهض من مجلسه، بل مد إليها ذراعيه: «أتسألينني عما إذا كنتِ أحسنتِ صنعًا؟».

ثم أمسك عن الكلام، واجتذبها إليه، ودفن وجهه في طيات خصرها، وشهق بالعبرات على غرة، وعاد يكرر كلمته: «أتسألينني إذا كنتِ قد أحسنتِ صنعًا أم لا؟».

فصاحت ماريانا قائلة: «ماذا بك؟ ماذا حدث لك؟».

وراحت تضع يدها فوق رأسه المرتجف الراعد، كما فعلت يوم تشبث بركبتيها باكيًا مستغفرًا مستصفحًا، ولكن إحساسها في هذه المرة لم يكن مثل إحساسها يومذاك.

في تلك اللحظة استسلمت إليه، وانتوت أن تهبه ذات نفسها، وإنما كانت تنتظر منه أن يقول كلمة، ولكن الآن كانت تشعر له بالرثاء والرحمة، ولا تدري ماذا تفعل لتهدئة خاطره.

وعادت تسأله قائلة: «ماذا بك؟ ولمَ أراك تبكي؟ ألأنك جئت إلى المنزل... بحالة... غريبة؟ لا يمكن أن يكون هذا باعث بكائك. أم أنت محزون من أجل ماركيلوف؟ أم خائف عليّ أم على نفسك؟ أم ذاك لآمالنا المضيعة، وأمانينا المخيبة؟ إنك لم تكن ولا ريب تتوقع أن تجد التوفيق سهلًا على حبل الذراع».

فرفع نجدانوف رأسه فجأة، وأجاب وهو يغالب عبراته جاهدًا: «ليس هذا باعث بكائي يا ماريانا. لست بالخائف علينا ولكني محزون...».

قالت: «من أجل من؟».

فأجاب: «من أجلكِ أنتِ يا ماريانا. نعم يحزنني أنك ربطتِ حياتك بحياة رجل ليس جديرًا بك».

قالت ماريانا: «ولماذا أنت غير جدير بي؟».

فأجاب: «لأنه إن لم يكن ثمة من سبب، فحسبك سببًا أنني أبكي في ساعة خطيرة كهذه».

فأجابته ماريانا: «لست أنت الذي يبكي: بل تلك أعصابك المضطربة».

فقال نجدانوف: «إنكِ لا تستطيعين أن تفرقي بيني وبين أعصابي. إنها في بدني ولحمي. ولكن استمعي إليّ يا ماريانا ألا انظري إليّ في وجهي. ألست ترين معي أنه لم يكن ثمة حق لي في أن آخذكِ معي من دار أقربائك؟».

فأجابت ماريانا: «كلا. لست معك في رأي كهذا».

فقال: «وهل ترتضين الذهاب معي إلى أبعد من هذا المكان، وإلى أي بقعة في الأرض؟».

فقالت ماريانا «نعم. لقد قلت كلمتي ولن أستردها ما بقيت أنت الرجل الذي أحبه».

فظل نجدانوف جالسًا في مكانه، وبقيت ماريانا واقفة قبالته، وكان ذراعاه حول خصره، وأما ذراعاها هي فكانتا مستقرتين على كتفيه..

ومضى نجدانوف يحدث نفسه قائلًا: «عندما أخذتها آخر مرة في ذراعيّ، كان بدنها ثابتًا لا يتحرك، ولكني أشعر الآن بأنها تريد أن تبعد بدنها عني قليلًا!».

فأرخى ذراعيه، وفي الحق مضت ماريانا تبتعد عنه قليلًا.

وعاد يقول: «إذا كان لا بد لنا حقًّا من الهروب من هذا المكان قبل أن تدهمنا الشرطة، فما ضرنا إذا تزوجنا، فلعلنا غير واجدين قسيسًا قريب المنال منا، كهذا الذي ذكره لنا سولومين».

فقالت ماريانا: «إنني على أتم الاستعداد».

فأجال نجدانوف في وجهها البصر متفحصًا، ولم يلبث أن صاح وعلى فمه ابتسامة لا تخلو من تهكم: «يا لها من فتاة رومانية! ما أنبل شعورها بالواجب!».

فهزت ماريانا كتفيها وقالت: «يجب أن ننهي هذا الأمر إلى سولومين».

فأجاب نجدانوف مضطربًا متلعثمًا:

«نعم. سولومين، ولكنه أيضًا في خطر».

وتمهل قليلًا، ثم عاد يكرر قوله: «سولومين. سولومين. أتعلمين يا ماريانا أنني ما كنت لأستشعر الأسف لو أنك واصلتِ حياتكِ إلى الأبد بحياة رجل كسولومين، أو بحياة سولومين نفسه».

فراحت هي تجيل البصر في أعماق نفسه وأجابت: «ليس لك حق في أن تقول لي هذا القول».

فقال نجدانوف: «أتقولين ليس لي الحق، فماذا أفهم من هذه الكلمات؟ أتعنين بذلك أنك تحبينني؟ أم تريدين أن تقولي أنه كان ينبغي لي أن لا أفتح باب موضوع كهذا؟».

فأعادت ماريانا كلمتها: «ليس لك حق».

فخفض نجدانوف رأسه وقال بلهجة غير لهجته الأولى: «ماريانا!» قالت هي: «نعم!».

قال: «لو أنني سألتكِ الآن. إنك تعرفين ماذا أريد بقولي هذا. ولكن كلا. لست أسألكِ شيئًا. إلى الملتقى!».

ونهض منصرفًا، ولم تستبقيه هي، ولم تمنعه الذهاب.

ومضى نجدانوف إلى المتكأ، فجلس فوقه، وأخفى وجهه في راحتيه، لأنه تولاه الخوف من أفكاره وهواجس نفسه، فأراد بذلك أن يوقف تيار تفكيره، وشعر كأنما قد أمسكت به يد خفية في الظلام وقبضت عصارة حياته وكيانه، فلا تريدَ تركها.

وأدرك أن تلك المخلوقة العذبة الحارة الفاتنة التي غادرها في الحجرة الأخرى لا تأتي إليه إذ ذاك. وأحسن أنه لا يجرؤ هو أيضًا على الذهاب إليها.

وفي تلك اللحظة سمع وقع خطوات ثابتة تطرق أذنه، ففتح عينيه، ورأى سولومين يمر بحجرته، وسمعه يدق باب حجرة ماريانا، وتبين أنه قد دخل عليها المخدع.

فهمس نجدانوف لنفسه في ألم وعذاب شديد: «الشرف حيث يجب الشرف!».

وكانت العاشرة من المساء، وقد جلس سبياجين وزوجته وكولومتزف في قاعة الاستقبال إلى ورق اللعب، وإذا ذاك دخل وصيف يخبر سيده بأن رجلًا غير معروف لديه، يُدعى مستر باكلين، يريد مقابلته في مهمة عاجلة.

فقالت فالنتينا مندهشة: «أفي مثل هذه الساعة؟».

وأردف سبياجين على كلمتها يقول: «ماذا...! ما اسم الزائر قلت».

فأجاب الوصيف: «مستر باكلين يا سيدي».

فصاح كولومتزف: «باكلين... سولومين هذه أسماء قروية. حقيرة. أليس كذلك؟».

فعاد سبياجين يسأل الخادم قائلًا: «هل قلت إن المهمة مستعجلة؟».

فأجاب الوصيف: «لقد قال الزائر ذلك يا سيدي».

فقال سبياجين: «هيه. لازم يكون سائلًا أو دساسًا أو مشعوذًا».

فأمن كولومتزف على كلمته بقوله: «أو هما معًا».

فأجاب سبياجين: «محتمل»، ثم التفت إلى الوصيف وقال: «دعه يدخل إلى حجرة مكتبي. معذرة يا زوجتي المحبوبة. ألعبا معًا حتى أعود، إلا إذا أحببتما أن تنتظراني، فلن أغيب طويلًا».

فقال كولومتزف بالفرنسية: «بل سنتحادث قليلًا، تفضل اذهب!».

فلما دخل سبياجين حجرة المكتب، ولمح باكلين على قزامته ودمامته ورثاثة ثيابه وانحناءاته وتأدباته، صاح في أعماق نفسه: «يا للسماء! ما أقبح هذا الصعلوك الغريب، وأعرج أيضًا، مصيبة وطبقت عليّ في هذه الساعة».

والتفت إلى باكلين وقال بصوت جهير: «تفضل اجلس».

وجلس هو قبالة ضيفه، وأنشأ يتكلم.

قال: «لا ريب في أنك متعب من «المشوار» تفضل بالجلوس. وخذ في شرح هذه المهمة المستعجلة التي جاءت بك إلينا في هذه الساعة المتأخرة من الليل».

فقال باكلين متلعثمًا وقد هبط في مقعد كبير: «سعادتك... لقد تجاسرت وجئت إلى سعادتك في...».

فقاطعه سبياجين قائلًا: «لحظة من فضلك. يلوح لي أنني رأيتك قبل هذه المرة، فإنني لا أنسى الوجوه التي أراها ما حييت ولكن اللعنة، ألا قل لي أين رأيتك حقًّا؟».

فأجاب باكلين: «لم تخطئ سعادتك. فقد كان لي الشرف برؤية سعادتك في سان بطرسبرج في منزل شخص كان من سوء حظه أن استهدف لغضبكم».

فوثب سبياجين من مجلسه قائلًا: «آه. صحيح. في منزل نجدانوف. لقد تذكرت الآن. ما أظنك قد جئت من قِبله».

فأجاب باكلين مأخوذًا متلعثمًا: «كلا. سعادتك. على النقيض من ذلك. إنني إنما...».

فعاد سبياجين إلى مكانه وقال: «هذا كلام طيب. فإنك لو كنت جئت من أجله، لسألتك أن تترك منزلي في الحال. فإنني لا أرتضي وسيطًا في الصلح بيني وبين مستر نجدانوف؛ فقد أهانني مستر نجدانوف إهانة لا تغتفر ولا تقبل الصفح، وأنا رجل أربأ بنفسي أن أتنزل إلى الثأر والانتقام لنفسي، ولكن لا أريد أن أعلم شيئًا عن أخباره وعن أنباء الفتاة التي طاوعتها نفسها أن تفارق عشها الذي درجت فيه وسكنت إليه، لكي تصبح خليلة أفّاق صعلوك حقير. وحسبهما أنني راض عن نفسي لنسيانهما».

وأمسك سبياجين إذ ذاك عن الكلام، وهز يده، وعاد يقول: «نعم. لقد نسيت ما كان منهما يا سيدي العزيز!».

فأجاب باكلين: «لقد قلت لسعادتكم إنني لم آتِ من قبلهما خاصة، ولكن ليأذن لي مولاي أن أنبئه بأنهما زوجان مرتبطان بصيغة الزواج الشرعي وأواصره».

وراح باكلين يقول لنفسه: «لا ضير إذا أنا كذبت، فقد وعدت أن أكذب، وها أنا نازل كذب،لا بأس، لا بأس».

فأجاب سبياجين: «هذا لا أهمية له عندي ألبتة يا سيدي. فإن هذا الزواج سيزيد عدد الزيجات الحمقاء الطائشة في العالم زيجة واحدة، هذا كل ما فيها. ولكن الآن ما هذه المهمة المستعجلة التي جعلتني مدينًا لك بشرف رؤيتك».

فجعل باكلين يقول لنفسه: «اطلع من دول أيها الموظف الخطير المتصنع المتأدب الخدّاع. لن ألبث أن أجعل من وجهك هذا المشرق سحنة مقلوبة».

ثم التفت إلى سبياجين وعاد يقول:

«إن شقيق زوجتك مستر ماركيلوف قد قبض عليه الفلاحون الذين كان يدعوهم إلى الثورة والخروج، وهو الآن سجين في قصر الحاكم».

فوثب سبياجين مرةً أخرى من مقعده وقال متلعثمًا وقد اختفت مظاهر الرجل الحكوميّ الخطير التي كان يجيد تمثيلها: «ماذا... ماذا قلت؟».

فعاد باكلين يقول: «قلت إن ماركيلوف الآن سجين قيد التحقيق. ولم أكد أسمع بالنبأ حتى ركبت وجئتك عاديًا لأحمل الخبر إليك؛ إذ لاح لي أن في قدومي عليك تأدية بعض الخدمة لك، ولذلك الرجل السيئ الحظ الذي قد تستطيع إنقاذه من هذه الملمة التي وقع فيها».

فأجاب سبياجين بصوت ضعيف وهو يدق جرسًا بجانبه: «أنا لك شاكر الشكر الأجزل. ولكن يجب أن تعلم أن رجلًا كهذا يطأ تحت قدميه القوانين والسنن والشرائع السماوية والوضعية لا يبدو في عيني، مهما كان بيني وبينه من صلة القرابة أو آخية النسب، سيئ الحظ كما تقول، بل مجرمًا من المجرمين!».

وفي تلك اللحظة دخل الوصيف يقول: «أمرك يا مولاي؟».

قال: «المركبة. المركبة وأربعة جياد في لحظة؛ إنني ذاهب إلى البندر، ودع فيليب واستيفان يستعدان للذهاب معي».

فانصرف الخادم.

وعاد هو يتمم حديثه: «نعم. يا سيدي إن صهري هذا مجرم وأنا ذاهب إلى البندر لا لإنقاذه. كلا. حاشاي. حاشاي».

قال باكلين متحيرًا: «ولكن سعادتك...».

فقاطعه سبياجين بإشارة قائلًا: «هذه مبادئي يا سيدي العزيز، وأرجو أن لا تكدر خاطري باعتراضاتك».

وفتحت إذ ذاك الباب، وأقبلت فالنتينا مسرعة وفي أثرها كولومتزف.

فتقدم سبياجين إلى زوجته وأخذها من ذراعها، وهمس لها بالفرنسية قائلًا: «ينبغي أن تعتصمي بالشجاعة يا عزيزتي، فقد قُبِض على أخيك».

فقالت فالنتينا مروعة فازعة «أخي. ماركيلوف. وعلام قبض عليه؟».

فقال سبياجين: «لأنه كان يخطب القرويين والفلاحين في فضل الاشتراكية. نعم، لقد كان ينشر عليهم آراءه الثورية، ويقوم بنشر الدعوة، فأمسكوا به وأسلموه إلى الحاكم، وهو الآن سجين في ضابطة البندر».

فصاحت فالنتينا: «يا له من مجنون! ولكن من الذي حمل إليك هذا النبأ؟».

فأشار سبياجين إلى باكلين وقال: «هذا الزائر... مستر... كونوباتين. أليس هذا هو الاسم؟ معذرة. اسم حضرتك...».

فالتفتت فالنتينا إلى باكلين، فانحنى هذا انحناءة المسكنة والذلة والاستماتة إذ كان يحدث نفسه قائلًا: «يا لها من امرأة فاتنة ساحرة، حتى في أحرج المواقف كهذا الذي نحن فيه»، وكان باكلين ولوعًا بالنساء، حساسًا يذيبه هذا الجنس الرفيق كما وصفناه من قبل.

وعادت فالنتينا تقول: «وتريد أن تذهب إلى البندر في هذه الساعة؟».

فأجاب سبياجين: «أظن الحاكم لم يذهب بعد إلى مخدعه».

فانبرى كولومتزف يتكلم فقال: «كنت دائمًا أقول إنها ستنتهي به إلى هذه الخاتمة. نعم. لم يكن شيء آخر منتظرًا. ولكن ما أبسل هؤلاء الفلاحين وأبدعهم».

ثم تمهل وانطلق يقول بالفرنسية: «باردون. يا مدام. إنه أخوك، ولكن الحقيقة قبل كل شيء!».

وفي تلك اللحظة دخل الوصيف يعلن أن المركبة على استعداد.

ولكن فالنتينا تداخلت إذ ذاك في الأمر، ومضت تحث زوجها على ترك الذهاب، وتغريه بالبقاء، وتبتسم وتخلبه بمفاتن توسلاتها، حتى انهزم.

قال يخاطب الوصيف: «لست بحاجة إلى المركبة الآن. ولكن دعها تكون على أتم الاستعداد في السادسة صباحًا. هل سمعت؟ لك أن تنصرف الآن. ودع المركبة التي أقلت هذا السيد تنصرف، وادفع الأجرة إن لم تكن دفعت. ماذا؟ هل قلت شيئًا يا مستر كونوباتين؟ سآخذك غدًا معي إلى البندر يا مسيو كونوباتين. إيه؟ ماذا قلت؟ لم أسمع جيدًا. أتشرب الفودكا؟ إذَنْ أعطه فودكا يا فيدور. كلا! لا تحب الشراب. إذَنْ في هذه الحالة، خذ السيد يا فيدور إلى الحجرة الخضراء. طاب مساؤك يا مستر كونو!».

فنفد صبر باكلين، وعلا غيظه لهذا التحريف المخيف في اسمه وقال: «اسمي باكلين. اسمي باكلين!».

فقال سبياجين: «آه. صحيح. ولكن هذا لا يهم. «مافيش فرق» يا أالله! إن لك صوتًا جهيرًا مخيفًا لا يتناسب وهذا البناء القصير المتأود. إلى الغد إذَنْ يا مستر باكلين... هل تراني صححت الاسم في هذه المرة. وأنت يا عزيزي سيميون. هل ستأتي معنا غدًا؟».

فأجاب كولومتزف بالفرنسية: «أعتقد ذلك».

وسيق باكلين إلى الحجرة الخضراء، وأوصد عليه بابها بالقفل، فلما انبطح على الفراش، مضى يؤنب نفسه على قدومه، ولم ينم إلا غرارًا.

وأيقظوه في بكرة اليوم التالي، وجاءوا إليه بالقهوة، ووقف الخادم الذي جاءه بها على رأسه، كأنما يقول له: «بالعَجل إن مولاي في الانتظار».

فلما شرب القهوة سيق إلى الطابق الأول، وكانت المركبة واقفة بباب القصر، وكذلك كانت مركبة كولومتزف.

فحيا سبياجين باكلين تحية مبتسمة لطيفة، وأشار إليه أن يأخذ مقعده في المركبة وقال:

«إنك قادم معي يا مستر باكلين. مستر باكلين، ضع حقيبتك تحت كرسي السائق يا مستر باكلين، أنا سآخذ معي مستر باكلين».

وكذلك جعل يكرر لفظة باكلين ويشدد في النطق بها، ويقول لنفسه كأنما يخاطب ذلك الفتى الأعرج: «إن لك اسمًا ثقيلًا ملعونًا مخيفًا كهذا، ثم تتألم وتشعر بأنك قد أهنت وانتقص من قدرك إذا أخطأ الناس في النطق به، وحرفوا شيئًا من أحرفه. طيب. اشبع الآن وانبسط. خذ كفايتك منه يا مستر باكلين. باكلين.

باكلين!».

وركب سبياجين وباكلين المركبة، ووثب كولومتزف في مركبته وحده.

ووقفت فالنتينا وراء زجاج نافذة مضجعها، وهي لا تزال بلباس النوم، فلوح سبياجين بيده إليها وهو جالس في المركبة.

والتفت إلى الفتى المسكين بجانبه وقال:

«أمرتاح أنت يا مستر باكلين؟ أيها السائق هلم بنا».

وانطلقت المركبتان.

ومضت بضع دقائق والرجلان في سكون، وإذ ذاك أخرج سبياجين من جيب سترته علبة التبغ الفضية، وقدم إلى باكلين سيجارة منها وهو ممسك بها بين أنامله المختفية في طيّ قفازته.

فاضطرب باكلين واستحيا وتلعثم قائلًا: «إنني لا أدخن».

فصاح سبياجين وهو يشعل بنفسه السيجارة: «أحقًّا ذلك؟».

وانطلق يرسل ذؤائب الدخان من فمه ويقول: «في الحق ينبغي لي أن أقول لك يا عزيزي مستر باكلين إنني حقيقة مدين لك شاكر صنيعك. ولعلى كنت ليلة أمس خشنًا شديدًا بعض الشدة، مع أن ذلك ليس من عادتي. ولكن ضع نفسك في مكاني يا مستر باكلين، فإن المكان الذي أشغله يجعلني على عين الشعب وقبالة أنظارهم. ثم يعمد شقيق زوجتي فيتورط في محرجة كهذه ويورطني معه. ولكن لعلك يا مستر باكلين لا ترى ضررًا من هذا الحادث ألبتة».

فأجاب بخجل واستحياء: «كلا. أنا مع سعادتك في هذا الرأي».

فعاد سبياجين يقول: «ألم تعرف صدفة لماذا قُبض عليه، وفي أي مكان كان القبض؟!».

فأجاب باكلين: «لقد سمعتهم يقولون إنه قبض عليه في مركز ت...».

قال سبياجين: «ومن الذي أخبرك الخبر؟».

فأجاب باكلين موجزًا: «شخص معين».

فقال سبياجين: «بالطبع شخص. وهل تظنني حسبت مخبرك عصفورًا يا سيد باكلين! ولكن من ذلك الشخص؟».

فاضطرب باكلين قليلًا وأجاب: «رجل يشتغل في مكتب الحاكم».

فعاد سبياجين يقول: «نعم. نعم. أنا حقًّا مدين لك. ولكن هذه الفعلة التي ارتكبها ماركيلوف جنون مطبق. نعم جنون مطبق. ألا تراها كذلك يا مستر باكلين؟».

فقال باكلين: «نعم. هي كذلك ولا ريب. إنها تدل على جهل صاحبها بأخلاق الفلاح الروسي».

فعاد يكرر هذه الكلمات: «جنون. جنون تام».

ومضى في تفكير، وهو ينظر إلى ذوائب الدخان وهي تصعد إلى سقف المركبة المقفلة.

وإذ ذاك أنشأ باكلين يقول معتذرًا متوسلًا متشفعًا: «لقد قلت لسعادتك منذ هنيهة أنني لا أدخن، ولم يكن ذلك مني حقًّا. إنني صحيح أدخن، وإن تبغك ينعش الأرواح برائحته».

فقال سبياجين كأنما قد انتبه من غفلته: «إيه. ماذا تقول؟». وقبل أن يدع لباكلين فرصة لتكرير سؤاله، أطلع علبة التبغ من جيبه، وقدم إليه لفافة منها.

فتناول باكلين اللفافة بعناية وحذر، وأشعلها متأنيًا متمهلًا وهو يقول لنفسه: «هذه فرصة حسنة».

ولكن سبياجين كان قد سبقه في أعماق نفسه إلى هذه الفكرة بعينها.

فأنشأ يقول غير مكترث: «لقد تذكرت الآن أنك كنت تقول إنك كنت تتكلم.. عن... عن من كنت تتكلم. آه. عن صديقك ذاك الذي... تزوج... بابنة أختي... فهل رأيتهما منذ ذلك العهد صدفة واتفاقًا، إنهما يسكنان قريبًا من هذا المكان. هيه. أليس كذلك؟».

فجعل يحدث نفسه قائلًا: «خذ بالك يا باكلين. احذر وإلّا وقعت!».

والتفت إلى سبياجين وأجاب: «لم أرهما إلا مرة يا صاحب السعادة. نعم إنهما يسكنان في جوار هذه الضاحية».

فأجاب سبياجين باللهجة الأولى عينها: «لعلك تدرك أنني لا أعبأ بأمرهما ألبتة ولا بأمر تلك الفتاة المتهوسة المتقلبة، ولا بأمر صاحبك، والله وحده يعلم إنني لست رجعيًّا ولا متأخرًا في أفكاري

ومبادئي، ولكنك مع ذلك توافقني على أن ما فعلاه شيء كثير لم يكن يصح عمله مطلقًا، حماقة إن شئت التعبير الصحيح، ويخيل إليّ أن الذي أثار في نفسيهما الحب، هو الاشتغال بالسياسة أكثر من أي عاطفة أخرى».

قال ذلك وهو يهز كتفيه.

فأجاب باكلين: «نعم. أظن ذلك أيضًا يا صاحب السعادة».

فاستمر سبياجين على شرحه يقول: «نعم. إن مستر نجدانوف كان ثوريًّا شديد التهوس ولا ريب، ولا ينبغي أن نظلمه، بل نحن أولى بأن ننصفه، ولذلك أقول لك إنه لم يكن حقيقة يخفي آراءه، ويكتم الناس عقائده ومبادئه».

فقال باكلين: «قد يكون نجدانوف أُغِوَي على تلك المبادئ، واستهوته هي، واجتذبته إليها، ولكن فؤاد...».

فقاطعه سبياجين قائلًا: «طيب. نعم. أعرف ذلك. أشبه شيء بفؤاد ماركيلوف. إن لهم جميعًا أفئدة طيبة، ولا ريب عندي في أن نجدانوف أيضًا قد أسهم في العمل، وسيتورط كما تورط صاحبنا ماركيلوف، ويخيل إليّ أنني سأتداخل من أجله كذلك».

فضرب باكلين صدره بيديه، وقد سره أن جاءت الفرصة الحلوة المناسبة وصاح: «يا صاحب السعادة. تكرم بمساعدته. ألا امدد إليه يد الرعاية. إنه يستحق منك الشفقة».

فهمهم سبياجين وقال: «أتظن أنت ذلك؟».

فعاد باكلين يقول بلهجة التوسل والضراعة: «وإذا لم يكن لأجله هو وشفقة عليه، فمن أجل ابنة أختك، من أجل زوجته».

فأغمض سبياجين عينيه وقال: «يلوح لي الآن أنك صديق له مخلص وفيّ حميم. هذه سجية كريمة، خليقة بالثناء عليها أيها الفتى الشهم. وكذلك قلت منذ هنيهة إنهما يسكنان في هذه الضاحية ألم تقل ذلك... أليس هذا ما قلت؟».

فأجاب باكلين: «بلى يا صاحب السعادة. إنهما يسكنان في مصنع كبير....».

وكاد باكلين يسترسل في الشرح، ولكنه لم يلبث أن شعر بالندم على تسرعه، فعض شفتيه غيظًا وندمًا.

فقال سبياجين يعاجله: «نعم. لا بد في دار سولومين ولا شك. إنني كنت أعرف ذلك من قبل. وقد نُبئت هذا النبأ».

ولم يكن سبياجين قبل ذلك يعرف شيئًا من هذا السر، ولكنه قد هزم باكلين وطواه.

وأنشأ باكلين يقول وعض شفتيه مرةً أخرى: «أما وقد عرفت ذلك يا صاحب السعادة».

ولكنه أمسك نادمًا على طيشه وتسرعه، ولات حين مندم، فإنه لم يكد ينظر إلى سبياجين نظرة واحدة حتى أدرك أن الرجل كان يستخف به ويعبث ويلعب به، كما تلعب الهرة بالفأرة.

فتلعثم المسكين وهو يقول: «ينبغي أن أقول لك يا صاحب السعادة. إنني حقًّا. إنني حقًّا لا أعرف شيئًا».

فأجاب سبياجين متكبرًا مغطرسًا: «ولكني لم أسألك ولم أطلب إليك أن تقول لي ما تعرف. ماذا تظن فيَّ وفي نفسك؟».

وللحال عاد سبياجين إلى زهوه الأول وخيلائه الوزارية.

وشعر باكلين ثانية بنفسه مخلوقًا حقيرًا قد سقط في الفخ، وكان إلى تلك اللحظة قد وضع لفافة التبغ التي تناولها من سبياجين في ركن من فمه، وهو يرسل ذوائب الدخان في رفق، مبتعدًا بها عن سبياجين. ولكنه رفعها إذ ذاك عن فمه، وانقطع عن التدخين بتاتًا.

وراح يئن في أعماق نفسه، والعرق يتدفق من عارضه ويتحدر من ظهره، ويناجي ضميره متألمًا محزونًا نادمًا متحسرًا. يقول: «ويلتا! ضلة لي ماذا تراني فعلت! لقد فضحت كل شيء، وكشفت سر كل إنسان، نعم لقد خُدعت وسُخر مني، واشتُريت بثمن سيجارة جميلة، إنني رجل خائن، ماذا تراني فاعلًا الآن لأصلح ما أفسدت؟ ويلتا. ويلتا!».

ولكن هيهات له أن يصلح ما أفسد، فقد جلس سبياجين منزويًا عنه في ركن يهوم تهويمة المفكر السارح المخيلة في ذلك المظهر الوزاريّ الجليل الخطير.

* * *

ولما خرجت ماريانا من مخدعها في ذلك الصباح بعينه، لمحت نجدانوف جالسًا فوق المتكأ مرتديًا ملابسه.

وكان رأسه مسندًا إلى إحدى ذراعيه، بينا تدلت ذراعه الأخرى ضعيفة ملقاة فوق ركبتيه.

فمشت إليه.

قالت: «طاب صباحك يا أليكسي. ماذا؟ ألم تخلع ثيابك؟ ألم تنم؟ ما أشد اصفرار وجهك!».

فرفع جفنيه ببطء وقال: «كلا. لم أنم».

فقالت: «أمريض أنت أم تلك آثار أمس؟».

فهز رأسه وأجاب: «لم أستطع النوم بعد أن دخل سولومين إلى مخدعك».

قالت: «متى كان ذلك؟».

فأجاب: «ليلة الأمس».

فصاحت ماريانا قائلة: «أليكسي، أغيور أنت من سولومين! يا لها من فكرة جديدة. أفي هذه الساعة تَعْجَلك الغيرة؟ ماذا! إنه لم يمكث معي غير ربع ساعة، وكنا نتحدث عن القسيس الذي يمت إليه بسبب من القرابة، وكنا نتناقش في التدابير التي ينبغي اتخاذها لأجل زواجنا».

فأجاب نجدانوف «أعلم أنه لم يمكث معك إلا لحظة وجيزة من الزمن، ورأيته وهو ينصرف، وما أنا بالغيور، ولا الغيرة وقعت في فؤادي. كلا. كلا. ولكن مع هذا لم أجد النوم مطاوعي بعد ذلك».

فعادت ماريانا تسأله: «ولكن لماذا؟».

فسكت نجدانوف لحظة ولكنه عاد فأجاب:

«لقد كنت أفكر.. أفكر.. مليًّا!».

فقالت تسأله مرةً أخرى «وفيم كنت تفكر؟».

قال: «فيكِ وفيه وفي نفسي. وقد لاح لي أنني وقفت في طريقكِ وفي طريقه هو، بل وفي طريقي أنا أيضًا، أي ماريانا إن في أعماق نفسي رجلين اثنين لا يريد أحدهما أن يدع الآخر يعيش، فانتهى بي التفكير إلى أنه خير لهما معًا أن لا يعيشا وألا يبقيا في الحياة بعد اليوم».

فتأوهت ماريانا وقالت تجيبه: «لا تقل هذا يا أليكسي. حسبك لا تعذب نفسك وتعذبني أنا كذلك. لقد كان أولى بنا أن نكون الآن جالسين نفكر في وسائل الهروب من هذا المكان والتدابير الواجبة لذلك، والوسائط الفعالة».

فتناول نجدانوف يدها ملاطفًا وأجاب:

«ألا اجلسي بجانبي يا ماريانا، ودعينا نتحدث مليًّا كرفيقين. ألا هاتي يدك، إنك طيبة القلب رفيقة ذكية وستفهمين ما أقول، بل ما لا أستطيع أن أجد له شرحًا وتعبيرًا، تعالي اجلسي بجانبي».

وكان صوته رقيقًا عذبًا، وقد لمع في عينه بريق حب وعطف ورفق وهو يتوسل إليها ويتضرع.

وجاءت تجلس بجانبه راضية متقبلة، وأخذت يده في يدها.

وقال نجدانوف إذ ذاك: «ألا شكرًا يا ماريانا. شكرًا يا أعز إنسان لديّ. ولن أبقيك بجانبي طويلًا ولن أؤخرك. فقد فكرت في كل ما أريد أن أقول لك ليلة أمس وأجمعت النية، واعتزمت العزيمة. ولا تحسبي أنني قد مرضت أو تألمت من حادث أمس وحكايته، فقد كنت ولا ريب مضحكًا أبعث الاشمئزاز في النفس، ولكني أعلم أنك لم تسيئي الظن بي، ولم تغضبي مني لفعلتي تلك؛ فإنك أعرف الناس بي وبخلقي. ولكن الحق أبعد مما أقول؛ إذ أنبئك أنني لم أتألم أمس. كلا، لقد تألمت وروّعت. ولكن لا لأني جيء بي إلى البيت ثملًا حميلًا منزوف اللب من الشراب، بل لأنني كنت مؤمنًا بعجزي، ولم يكن ألمي لأنني لم أستطع أن أجلد على الشراب كرجل روسي حقيقي، ولكن كان ألمي لعجزي عن تأدية أي شيء، لضعفي في كل شيء.... أي ماريانا ينبغي أن تعلمي أنني لم أعد أؤمن بالعقيدة الوطنية التي جمعت بيننا وربطت فؤادينا وعلى هدْيها وبفضلها خرجْنا معًا من دار عشيرتك على جناح الحب. والحق أقول يا ماريانا لقد فقدت إيماني بقضية بلادي يوم رحتِ تشعلين في جوانحي سعرة الحمية... نعم لا أؤمن بها ولا أدين ولا أستطيع إيمانًا».

قال ذلك ووضع يده الخالية فوق عينيه، وسكت مليًّا، ولم تفه ماريانا ببنت شفة، بل جلست مطرقة الرأس إذ أحست أنه لم ينبئها بحديث جديد كانت منه في جهل.

وأزاح نجدانوف يده عن عينيه، ولكنه لم ينظر إليها، بل استرسل في حديثه يقول: «لقد كنت أبدًا أحسبني مؤمنًا بقضية بلادي في نفسها، وإن لم أكن مؤمنًا في نفسي بقوتي ومواهبي، وكنت أظن أن مقدرتي لم ترتفع إلى مكانة عقيدتي ولم تواز إيماني، ولكنك يا ماريانا لا تستطيعين أن تفرقي

بين هاتين وتفصلي بين العقيدة وبين المقدرة. ولعمري ما جدوى مخادعة النفس وما الفائدة من المغالطة –كلا لا أؤمن بها. وأنت يا ماريانا أتؤمنين؟».

فاستوت ماريانا في مجلسها، ورفعت رأسها وأجابت: «نعم أؤمن بها يا أليكسي، أؤمن بها بكل مادة نفسي وعصارة روحي، وسأبذل حياتي فدى لها، وسأرسل أنفاسي من أجلها إلى آخر رمق من حياتي».

فالتفت نجدانوف نحوها ونظر إليها عن غَيْرة حاسدة، وقد برق في عينيه ضياء غريب.

قال: «لقد كنت أعلم أنك ستجيبين بهذا الجواب، ولذلك تَرَيْن أنه لم يَعُد لدينا ما نعمله معًا، فقد قضيْتِ على رابطتنا بضربة واحدة».

فظلت ماريانا على صمتها.

وعاد نجدانوف يستطرد في حديثه يقول: «ولكن لديكِ سولومين خذيه، وإن لم يكن هو أيضًا...».

فقاطعته ماريانا قائلة: «ماذا تعني بقولك هذا؟».

فأجاب نجدانوف: «هو الحق قلت، إنه لا يعتقد... ولكن لا حاجة به إلى الاعتقاد، فهو أبدًا متقدم بخطى ثابتة إلى الأمام. وإن رجلًا يسير في طريق يشق المدينة لا يمشي يسائل نفسه هل هو في المدينة أم لا؟ بل حسبه أن يتابع طريقه وينطلق في همته –ذلك مثل سولومين وهذا شأنه ولستِ تسألينه أكثر من ذلك، أما أنا... فلا أستطيع التقدم خطوة إلى الأمام، ولا أريد الرجوع على عَقِبيّ، وقد سئمت البقاء في مكاني، فكيف تطاوعني نفسي أن أسأل مخلوقًا من مخلوقات الله أن يكون رفيقي في طريقي؟ فهلّا تذكرين المثل القديم الذي يقول: يهون حَمْل العبء إذا احتمله اثنان؟! ولكن إذ ترك أحدهما العبء من ناحية، فماذا يكون مصيره من ناحيته الأخرى؟».

فأنشأت ماريانا تقول مترددة: «أليكسي، إني لأظنك مُغاليًا فيما تقول. ألسنا نحب بعضنا بعضًا؟!».

فأرسل نجدانوف آهة عميقة، ثم أجاب: «أي ماريانا إني لأحني رأسي أمامك خاشعًا... إنك ترثين لحياتي، وفي نفس كل منا إيمان عميق بصدق صاحبه ووفاء رفيقه... هذا موقفنا ولكن لا حب بيننا».

فصاحت به ماريانا قائلة: «قف يا أليكسي وأمسك عليك. ماذا تقول! لعلّ الشرطة قادمين اليوم للقبض علينا، فينبغي أن نرتحل معًا وأن لا نفترق».

فقاطعها نجدانوف قائلًا: «لنطلب إلى القسيس أن يعقد الإكليل على رأسَيْنا كما اقترح سولومين. إنني أدرك أنك تنظرين إلى زواجنا كأنه نوع من «الجواز»، كوسيلة لاجتناب شر الشرطة، ولكنها لا تزال تربطنا بعضنا ببعض إلى حد ما، إذ لا غناء لنا عن العيش معًا».

فقالت ماريانا: «ماذا تقصد بقولك هذا يا أليكسي هل تنوي البقاء هنا؟».

فأجاب نجدانوف مترددًا: «كلا!».

وكان يهم بأن يجيب بكلمة الإيجاب، وكادت الكلمة تخرج من بين شفتيه، ولكنه تمالك نفسه فلم يقلها.

فعادت تسأله: «وإذا لم تكن تنوي البقاء في المصنع، فإنك ولا ريب ذاهب إلى مكان آخر، فهل أنت مرتحل إلى مكان غير المكان الذي سأرتحل أنا إليه؟».

فضغط نجدانوف بيده يدها، وكان لا يزال ممسكًا بها وقال: «إنها الخسة أن أتركك وحدك بلا نصير ولا معين، ولكني لن أفعل ذلك مهما كنت رجلًا فاسدًا، ولذلك ثقي بأن سيكون لك ذلك النصير».

فانحنت ماريانا نحوه ووضعت وجهها قريبًا من وجهه، ثم نظرت إلى عينيه نظرات طويلة متلهفة، كأنما تريد بها أن تغلغل إلى صميم روحه.

وجعلت تقول: «ماذا بك يا أليكسي؟! وما الذي يتلجلج في خاطرك؟! ألا نبئني فإنك تخيفني وترعبني، ولكلماتك غرابة ودهشة ثم وجهك. يا ألله! لم أرَ محياك يومًا كما هو في هذه اللحظة».

فأزاحها نجدانوف عنه برفق، وقبَّل يدها بحرارة وعطف، ولم تقاوم هي في هذه المرة ولم تمانع ولم تضحك ضحكاتها الأولى، بل جلست ساكنة تجيل فيه البصر.

ومضى يقول: «لا تراعي يا حبيبتي ولا تفزعي، فليس ثمت غرابة ولا دهشة. فهم يقولون إن الفلاحين ضربوا ماركيلوف وأنه أحس وقع الهراوات فوق ظهره، حتى لقد رضوا عظامه، وأهاضوا قفاره، ولكنهم لم يضربوني أنا ولم يسيئوني، بل شربوا معي، وتندموا على الأقداح بجانبي، واجترعوا نخبي أيضًا وارتشفوا الكؤوس في صحتي. ولكنهم قتلوا روحي بأشد مما أهاضوا عظم ماركيلوف».

فقالت ماريانا في رفق: «يحسن بك يا أليكسي أن تصارحني القول، ولا تُخْفِ عني شيئًا».

فضم قبضتي يديه وقال: «لقد عريت جميع أجزاء حياتي وروحي وكياني أمام عينيك، وسأنبئك بكل ما يخطر لي أن أفعله قبل أن أنفذه».

وهمت ماريانا بأن تسأله عما كان يقصد بقوله ذاك، ولكن سولومين دخل الحجرة في تلك اللحظة.

وكان في عجلة ونشاط لم يعتدهما من قبل، وكان مكفهر الطلعة قاسي النظرات.

وراح يقول على الفور: «ينبغي أن أطلب إليكما أن لا تضيعا الوقت عبثًا، بل يجب أن تستعدا للرحيل حالًا، وأمامكما ساعة واحدة تعدان فيها المعدات لإكليل الزواج، ولم أتلقَّ إلى الآن نبأً عما كان من أمر باكلين، فقد حجزت المركبة برهة من الزمن في دار سبياجين، ولكنها عادت ثانية إلى المصنع، ويلوح لي من ذلك أنهم استبقوه هناك، ولا بد من إنهم قد عادوا به الآن إلى المدينة، وما أحسبه سيفضح أمرنا ويكشف سرنا، وإنما أخشى أن تفرط منه كلمة فتنم عنا جميعًا من غير قصد منه ولا إرادة. وفضلًا عن ذلك لا بد من أنهم أدركوا شيئًا من رؤية جياد المصنع ومركبته، وقد نبأت القسيس بحضوركما، وسيصحبكما بافيل ليكون شاهد الزواج».

فقال نجدانوف: «وأنت ألست قادمًا معنا؟ فإنني أراك قد ارتديت ثياب الخروج».

وأشار نجدانوف إلى الحذاء المرتفع الذي انتعله سولومين.

فأجاب هذا: «إنني لم أنتعله إلا لأن الطرق في الخارج موحلة».

فعاد نجدانوف يقول: «وما أظنهم يأخذونك بمسؤولية فرارنا وثورية مبادئنا؟ ألست ترى أنت ذلك أيضًا؟».

فأجاب سولومين: «دع ذلك جانبًا، فإنني أعرف شغلي. إذَنْ ستكونان على أتم الأهبة بعد ساعة، إنني أظن يا ماريانا أن تاتيانا كانت تريديك لبعض حاجاتها؛ فإن لديها شيئًا قد أعددته لك».

فقالت ماريانا وقد التفتت تريد الباب: «نعم هذا صحيح لقد كنت أريد أن أراها».

وتولى وجه نجدانوف في تلك اللحظة اكفهرار الخوف واليأس، فصاح بها في لهجة الخائف المروع: «ماريانا... هل أنت ذاهبة إليها؟».

فوقفت الفتاة في مكانها وأجابت: «سأعود بعد نصف ساعة، ولن يستغرق إعدادي معدات الرحيل زمنًا طويلًا».

فأجاب نجدانوف: «ماريانا... اقتربي مني!».

فقالت: «بلا ريب إنني أدنو. ولكن علام ذلك؟».

فنظر إليها طويلًا وأجاب: «لقد أردت أن أتزود منك بنظرة أخرى... وداعًا يا ماريانا وداعًا».

فبهتت ماريانا، ووقفت مرتاعة لا تدري ماذا تقول.

ولكن لم يلبث أن أجاب: «ما هذا القول الطائش الذي قلته، ألست عائدة بعد نصف ساعة... أليس كذلك؟».

فأجابت ماريانا: «بلا شك».

فعاد يقول: «لا ضير مما قلت. لا ضير. اصفحي عني يا ماريانا لما قلت، فإن ذهني متعب مكدود من أثر السهد. ولكن يجب أن آخذ من الآن كذلك في إعداد معدات الرحيل».

فانصرفت ماريانا من الحجرة، وكان سولومين يهم بأن ينصرف في أثرها، ولكن نجدانوف أوقفه مناديًا: «سولومين!».

فالتفت سولومين صوبه وأجاب: «ماذا تريد؟».

فقال نجدانوف: «هات يدك. يجب عليّ أن أشكر لك عطفك وكرمك ونبل عواطفك».

فابتسم سولومين وقال وهو يمد يده: «فكرة جميلة!».

واسترسل نجدانوف في حديثه يقول: «وهناك شيء آخر أردت أن أقوله لك. وهو لنفرض أنه وقع لي حادث سيئ، فهل لي أن أتوقع منك أنك لن تترك ماريانا وحدها بلا نصير؟».

فقال سولومين: «أتعني زوجك المستقبلية».

فأجاب نجدانوف: «نعم. ماريانا. ماريانا».

فقال سولومين: «ما أظن أمرًا سيئًا سيحدث، ومع ذلك يجب أن يطمئن منك البال، فإن ماريانا عزيزة لديّ كمعزتها لديك».

فصاح نجدانوف وهو في أشد التأثر: «نعم. لقد كنت أعلم ذلك. نعم. كنت أعلم ذلك. كنت أعلم ذلك. فما أطيب فؤادك. ألا شكرًا لك. إذَنْ بعد ساعة نحن مزمعون رحيلًا».

فقال سولومين: «نعم بعد ساعة».

فأجاب نجدانوف: «سأكون على الأهبة. وداعًا يا صاحبي. وداعًا».

وانطلق سولومين والتقى على السلم بماريانا، وكان يريد أن يحدثها أن نجدانوف، ولكنه أمسك عن الكلام ومضى في سبيله، وكانت هي تدرك ذلك من عينيه، ولكنها ظلت كذلك صامتة ولم تتكلم.

* * *

وما كاد سولومين ينصرف من الحجرة، حتى وثب نجدانوف من فوق المتكأ، ومضى يخطو في الحجرة مسرعًا، ثم يقف في بهرة المكان مترددًا متحيرًا، وللحال خلع عنه ثياب «المسخرة» كما كان يصفها في رسالته إلى صديقه سيلين، وركلها بقدمه في ركن من الحجرة، واشتمل بثيابه التي اعتاد الارتداء بها من قبل، ثم مشى بعد ذلك إلى المائدة، ونزع من درج من أدراجها رسالتين في غلافين مختومين، وأطلع منه كذلك شيئًا، دسه في جيبه في خطف البرق، وترك الرسالتين فوق المائدة، وانحنى إلى الموقدة وفتح الباب. وللحال ارتفعت النار قليلًا، ثم خمدت فكانت رمادًا، وكان ذلك الرماد كل ما بقي من دفتر تلك الأشعار التي نظمها. نعم لقد حرق قصائده، وألقى ديوان شعره الشاب للنيران تلتهمه، وكان فوق المرجل في ناحية هناك صورة ماريانا التي أخذها من ماركيلوف، وكان فؤاده لا يستطيع أن يطاوعه على حرق تلك الصورة الجميلة كذلك، فانتزعها من مكانها في رفق وتؤدة وألقاها فوق المائدة بجانب الرسالتين.

وإذ ذاك تناول قبعته بحركة سريعة، ومشى يريد الباب، ولكنه لم يلبث أن وقف فجأة ثم التفت، ومضى إلى حجرة ماريانا.

هناك وقف لحظة يدير البصر فيما حوله، ثم دنا من فراشها الصغير، وانحنى وهو يشهق منتحبًا انتحابة مختنقة راجعة، وراح يقبل قدم ذلك السرير ويلثم أطرافه.

ووثب من مكانه، وألقى قبعته فوق رأسه، واندفع مفلتًا من الحجرة، ولم يلق أحدًا في طريق، فعدا يطلب الحديقة.

وكان اليوم غائمًا، فلما بلغ الحديقة جعل يتلفت حوله ليستوثق من خلو المكان من الناس، فلما لم يجد أحدًا مضى عاديًا إلى شجرة التفاح العجوز التي كان يعجب بها من قبل، وكانت أغصانها مهدلة متساقطة متماوتة، كأنما كانت أذرعًا متوسلة إليه أن يهبط في أحضانها.

فمشى حتى وقف تحت ظلالها، وأخرج ما كان في جيبه، ونظر إلى نافذة الحجرة من مكانه، وكان المكان هادئًا ساكنًا، كأنما قد مات القوم جميعًا.

وجلس نجدانوف يحدث نفسه قائلًا: «لم تعد أمامي غير هذه الوسيلة، إذ لا أستطيع الرجوع إلى سان بطرسبرج، ذلك السجن الكريه المقيت».

وإذ ذاك شعر بثقل عذب الوقع قد بدأ يسرى في أجزاء بدنه، فنزع القبعة عن رأسه وطرحها بعيدًا وتناول المسدس وشد المحرك...

وأحس شيئًا قد صدمه في الحال، ولكن لم يشعر بشدته كثيرًا. وكان نائمًا على ظهره يحاول أن يتذكر ماذا حدث له، ولمح إذ ذاك تاتيانا، فأراد أن يناديها، ولكن تولاه تخدير شديد، وشعر فيما يشعر المحتضر بشيء يمسكه ويقيده إلى الأرض إلى الأبد.

وكان نجدانوف مصيبًا إذ شعر بأنه لمح تاتيانا، وكان ذلك في اللحظة التي ضغط فيها المحرك، إذ كانت تنظر من النافذة، ولمحته هو أيضًا وهو تحت الشجرة، ولم تكد تسائل نفسها مندهشة عما جاء به إلى ذلك المكان، وماذا كان يفعل هناك، عاري الرأس والمطر متساقط، حتى رأته يترنح ثم يسقط إلى الأرض كورقة من أوراق الشجر.

فاندفعت إلى الحديقة، فبلغت المكان، وقد كادت أنفاسها تتقطع وهي تصيح «أليكسي. ماذا بك؟».

ولكن كان الظلام قد خيم على إحساسه إذ ذاك.

فصاحت تنادي بأعلى صوتها على زوجها: «بافيل.. بافيل!» ولم تمضي دقيقتان حتى هرع إليها سولومين وماريانا وبافيل وعاملان من عمال المصنع كانا في الحديقة.

فرفعوه عن الأرض، وحملوه إلى البيت، وأرقدوه فوق ذلك المتكأ بعينه.

فرقد منبطحًا على ظهره، وقد ارتد وجهه أزرق خافتًا، وكانت الحشرجة قد وقفت في صوته، وهو ينتحب بين آونة وأخرى، ويشهق مغالبًا أنفاسه المتطايرة.

ولم تكن الحياة قد فارقته بعد، ووقفت ماريانا وسولومين بجانبه صامتين، وقد شعرا بالصاعقة قد وقعت فوقهما وجعلا يتساءلان.

كيف لم يتنبآ بهذه الخاتمة، ولم يحسبا لها حسابًا، ولكنهما في الحقيقة كانا يعرفان طرفًا منها عندما قال نجدانوف لماريانا عن المخلوقين المتعارضين في نفسه، ويريد أحدهما ألّا يدع الآخر يعيش.

ووقفت ماريانا لا تستطيع النظر إلى سولومين، ولا تجسر على الالتفات إليه، كأنما شعرت بأنه كان شريكها في الإثم، وأنه كان في استطاعتهما أن ينقذاه من هذه الخاتمة الأليمة؛ لأنهما أدركا من حديثه قبل ذلك ما كان ينذرهما بوقوعها.

وأرسل سولومين في طلب الطبيب.

ولم يلبث أن تحرك نجدانوف.

فهمس سولومين يقول: «إنه سيثوب إلى رشده».

فركعت ماريانا بجانبه، ونظر نجدانوف إليها بتلك النظرات التي تبدو في أعين الموتى.

وراح يقول بصوت غير مسموع متقطع خافت محشرج: «إنني لا أزال على قيد الحياة. لي الله! لقد عجزت عن كل شيء، حتى عن قتل نفسي كما يجب.. وتسديد المسدس أتم التسديد؛ لأنني قد أخرتكما الآن عن الرحيل».

فقالت ماريانا وهي شاهقة بالعبرات: «أليكسي. أليكسي!».

ومضى يقول: «ولكن لن يطول تأخيري لكما... فهل تذكرين... يا ماريانا... قصيدتي... ألا أدفنوني في وسط الأزاهر... ولكن أين تلك الأزاهر؟ ولكن لا بأس... ما دمتِ...

أنتِ هنا أمامي... هناك... كتاب مني...».

وهنا ارتعش ثم غالب الحياة الناضبة وقال: «أواه... ها هي... قد... أقبلت... ضعي يديك في يديه... أمامي... قبل أن أرتحل... أسرعا...».

فأمسك سولومين بيد ماريانا.

وعاد المحتضر يقول: «.. نعم. هذا ما أريد...».

وانتحب ثانية، وشهقت أنفاسه، وحاول أن يضع يده فوق يديهما المشتبكتين، ولكنها سقطت هامدة.

فهمست تاتيانا، وكانت واقفة لدى الباب: «إنه يجود بأنفاسه الأخيرة».

وجعلت تؤدي إشارة الصليب فوق صدرها.

وبدأت شهقاته تخفت رويدًا رويدًا، وهو يحاول أن يبحث عن ماريانا بعينيه، وقد غشيهما غشاء من البياض.

وكانت آخر كلماته: «نعم.. تزوجا.. فهذا ما أردت!».

وانطلق من صدره النفس الأخير، ولا تزال يد سولومين وماريانا مشتبكتين فوق صدره...

* * *

وإليك ما جاء في الرسالتين:

وكانت إحداهما لا تحوي غير بضعة أسطر كتبها إلى صديقه سيلين.

وهي: «وداعًا يا صديقي العزيز... وداعًا... عندما يصلك كتابي هذا... أكون أنا قد مضيت... فلا شيء مني باق... فلا تسأل لماذا وعلامَ مت... ولا تحزن عليَّ ولا تبتئس لي.. بل ثق أنني الآن أحسن حالًا من قبل اليوم وأعمد إلى ديوان شعر بوشكن واقرأ ما كتب عن موت لينسكي فتذكر ذلك الآن. لم يعد لدي ما أقوله لك، ولو أنني قلت جميع ما كنت أريد أن أقول، لاستغرق كتابي وقتًا مستطيلًا، وأنا أريد أن أمضي مسرعًا، ولكن لا أستطيع أن أترك هذه الدنيا قبل أن أنبئك بنبأ موتي. وإلا ظللت على ظنك تحسبني في الأحياء وداعًا... عش وأنعم بالحياة..

صديقك «نجدانوف»

* * *

أما الرسالة الأخرى فكانت موجهة إلى ماريانا وسولومين معًا، وكانت أطول من الأولى قليلًا.

«يا طفليّ... قد يدهشكما أن أناديكما بهذا النداء، فإنني أنا نفسي طفل، وأنت يا سولومين أكبر مني عمرًا، ولكني على وشك أن أموت... وأنا أقف الآن على نهاية الحياة، فلا عجب أن أحس برودة الشيخوخة.... لقد أسأت إليكما وكنت لكما ظالمًا. ولا سيما أنتِ يا ماريانا إذ سأحدث لكِ هذا الحزن.. نعم إنني أعلم أنكِ ستحزنين وتتألمين لموتي... ولكن ماذا كنت مستطيعًا أن أفعل!! لقد عجزت عن الاهتداء إلى وسيلة أخرى بعد أن عجزت عن تأدية شيء في سبيل قضية وطني. نعم.

لقد رأيت أنه ليس من سبيل إلّا أن أمحو نفسي من الحياة محوًا. وأنت يا ماريانا... اعلمي أنني لو عشت وأبقيت على حياتي لكنت عبأ ثقيلًا عليكِ. وأنا أعلم أنكِ كنتِ متقبلة حمل هذا العبء راضية مسرورة، ولكن لم يكن لي حق في مطالبتكِ بهذه التضحية، فإن أمامكِ عملًا أسمى، ومقصدًا أنبل، وخطبًا أروع وأعظم..

هو خدمة وطنك... إذن دعاني يا طفليّ أربط بينكما بسبب الحب والزواج. وأنا في القبر.. وستعيشان معًا تحت ظلال الهناء. أي ماريانا! إنني أعلم إنك لن تلبثي أن تحبي سولومين. وهو... لقد أحبك منذ اللحظة الأولى التي رآك فيها في دار آل سبياجين... ولم يكن ذلك ليخفي عليّ، وإن كنا فررنا معًا بعد ذلك بأيام قلائل...

واهًا لذلك الصباح الساجي المبترد الجميل! ما كان أبدعه وأفتنه صبحًا... وأفرحه وأملأه حداثة وجمالًا وشبابًا... ولكن حسبي، إنني لا أريد أن أشكو، بل أردت فقط أن أبرر نفسي فوداعًا يا ماريانا، أيتها الفتاة الكريمة العزيزة، ووداعًا يا سولومين. إنني أتركها في ذمتك فلتهنأكما الحياة. فعيشا في سبيل الشعب، ولخير الوطن.. ولا تفكري يا ماريانا فيّ ولا تعيديني إلى الذاكرة إلا في لحظات هنائكِ، وأوقات سعادتكِ وفرحتكِ. واذكريني كرجل لم يكن خلوًا من معنى الخير، ولم يكن قفرًا من الفضيلة من جميع نواحيه، بل آثر الموت على الحياة. فهل كنت حقًّا أحبكِ يا ماريانا؟ لا أعرف يا صاحبتي العزيزة. ولكن الذي لا ريب فيه عندي أنني لم أحبب أحدًا بأكثر مما أحببتكِ. وإنه لشد ما كنت سأرتاع من الموت لو أنني مضيت ولم أحمل هذا الإحساس الذي في فؤادي لك معي إلى القبر. إنك في هذه اللحظة في حجرتكِ نائمة هادئة البال خالية الذهن مما في نيتي. لقد مشيت إلى حجرتك الآن، واستمعت وأصغيت، وخيل إليّ أنني أسمع أنفاسكِ الطاهرة النقية الهادئة.

وداعًا. يا صاحبيّ... وداعًا يا طفليّ... وداعًا».

«أليكسي».

حاشية –ويلتي كيف حدث لي أن لا أذكر في آخر رسالة لي في الحياة ولا كلمة واحدة عن القضية الوطنية، ولكن ما نفع الكذب والمرء على شفا الموت، فاصفحي عن هذه الحاشية يا ماريانا.

إنني أنا الذي انطوت حياتي على الكذب، ولم يكن الإيمان بقضية بلادنا كذبًا.

كلمة أخيرة: لعلك يا ماريانا حسبت أنني لم أختم حياتي إلّا خوفًا من السجن، ولكن ثقي أنه لم يخطر ذلك لي، فليس دخول السجن مخيفًا في نفسه، ولكن أن يُحْبَس الإنسان في غيابة سجن مظلم في سبيل شيء لا يؤمن به، هو الذي لا يطاق ولا يحتمل. أجل، يا ماريانا، لم يدفعني إلى الموت خشية سجن، أو خوف محبس. وداعًا... أيتها الفتاة الطاهرة... وداعًا!».

ووضعت ماريانا، بعد أن قرأت وسولومين، الرسالتين والصورة معهما في جيبها، وظلت واقفة جامدة في مكانها.

فقال سولومين: «هلمي بنا يا ماريانا، فإن كل شيء على استعداد، إذ ينبغي لنا أن ننفذ وصياته، وننزل على إراداته».

فدنت ماريانا من جثة نجدانوف، وألقت شفيتها على جبينه المتبرد، وقد سرت إليه برودة الموت.

والتفتت إلى سولومين، وقالت: «هلم بنا».

وانصرفا يَعْدُوان ويد كلٍّ في يد صاحبه.

* * *

ووجد البوليس إذ جاؤوا إلى المصنع بعد ذلك ببضع ساعات جثة نجدانوف ملقاة فوق المتكأ، وقد وضعت تاتيانا باقات من الأزهار بجانبه.

ولقيهم بافيل بمنتهى السخرية، وشرح لهم تفاصيل الانتحار، وقال لهم إنه لا يعرف مقر سولومين ولا الفتاة الصغيرة، وعلم من الشرطة في مقابل ذلك أنه لم يدس على نجدانوف وسولومين غير رجل أعرج قزم دميم أُطلق سراحه.

وانصرف رجال البوليس مخيبين لم يظفروا بشيء غير جثة هامدة، جثة فتى قضى شهيد وطنية سالبة، وإنكارًا لذاته في سبيل رجل آخر أقوى منه بأسًا وأمتن روحًا.

«تمت»

Contents

Notes

[←1]

معنى سامسوننتش: ابن سامسون، وهو شامشون رمز القوة وشدة البأس على حين كان باكلين أعرج قزمًا ضعيفًا.

[←2]

نجدانوف في الروسية معناه «غير المنتظر».